الإحياء

جمال البنا

الإسلام والعقلانية

دار الفكر الإسلامي
٢٠٠٣

جمال البنّا

الإسلام والعقلانية

الناشر
دار الفكر الإسلامي
١٩٥ شارع الجيش ـ بالقاهرة ١٢٢٧١
ت : ٩٣٦٤٩٤

بسم الله الرحمن الرحيم
والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

مقــدمة

يميل كثير من الكتاب المعاصرين للتقليل من أثر وقيمة الدين في الحياة الحديثة ، ويؤثرون بالأولوية قضايا مثل «التكنولوجيا» و «الفنون» و «السياسات الدولية والداخلية» و «المشاكل الإقتصادية والمادية» . فهذا هو مايدور عليه المجتمع وما يشغل حياة الناس وحاضرهم ومستقبلهم .. أما الدين فيأتى بعد هذا كله ، ومن باب «جبر الخواطر» أو بإعتباره ممثلاً للتراث ورمزه الخاص الذى كان مجيداً فى إحدى الفترات .

وإذا كان بعض الكتاب «يميلون» هذا الميل تأثراً منهم بالثقافة الأوربية ، فالحقيقة أن هناك آخرين وجدوا أنفسهم وهم يقفون هذا الموقف لاعن ميل أو إختيار ، ولكن بحكم التيار الكاسح ، والسياق المحموم للحياة الحديثة التى لم تدع لهم مندوحة .. إن التقدم التكنولوجى فى الصناعة وتعقد الحياة الحديثة ومطالبها المادية والمستجدات فيها من إرسال تليفزيونى ، وتزايد المطالب عن الأمكانيات ، وتفتح وسائل عديدة للإستمتاع ولارواء ما تشتهيه الأنفس ، كل هذا لم يترك لأى شىء آخر ، بما فى ذلك الدين ، إلا وقتاً ضئيلاً ، واهتماما هامشياً .

إن أسوأ ما أصطحب بهذه الظاهرة الزعم أن الدين لامكان له فيها . لأن الدين هو ، على سبيل التعيين ، الوحيد الذى يمكن أن يجابه مشكلة الإنطلاق غير المحدود للحياة الحديثة فيفل غربها ويكبح جماحها . **إنه وحده الترياق الذى يمكن أن يشفى المجتمع الحديث ، بورجوازياً وإشتراكياً، من دائه العضال.** وأى محاولة للإصلاح عن غير طريقه . ستكون من نوع «وداونى بالتى كانت هى الداء» لايمكن أن تفى بالمطلوب ، فبالاضافة إلى أنها ليست وقائية – فإن مدى كفايتها فى العلاج مشكوك فيه . وهى تعجز عن أن توقف فسوق الحضارة الحديثة وغلوائها وإنطلاقها حتى تبلغ شفا الهاوية .

فالنظر نظرة عقلانية – يتطلب تدخل الدين لأنه لايمكن العلاج علاجاً حاسماً

دونه .. وهو كلام يصدق على المجتمع الغربى ، كما يصدق على المجتمع الشرقى ، مع أهمية خاصة يكتسبها فى المجتمع العربى نتيجة لتأصل الدين وتغلغله فى أعماق هذا المجتمع ، من الديانة المصرية القديمة حتى الإسلام ، بحيث نجد رجلاً مثل طه حسين لايمكن القول بأنه من أنصار الدين بوجه خاص ، بل إنه «بطل أبطال التنوير» كما يقولون يرفض الرأسمالية والأشتراكية ، ويتحدث عن المذهبين «الرأسمالى الذى يقول أصحابه إنه يقوم على أساس الأحترام الكامل للحرية ، والشيوعى الذى يقول أصحابه إنه يستهدف قيام العدل وصيانته» فلا يرضى بالمذهب الأول والثانى ، وإنما يقول «إذا أمكن أن ينشأ مذهب ثالث بين هذين المذهبين يوائم بين الحرية والعدل من جهة ، وبين الدين من جهة أخرى ، ويتخذ من الدين أساساً لحياة إنسانية جديدة ترتفع فوق المادة ، وترقى إلى المثل العليا ، وتؤمن بأن الانسان قوة لاتستطيع أن تحيا ولا أن تثمر ، ولا تنتج للإنسان حظه من الرقى إلا إذا اتصلت بمصدرها القدسى الأول عن طريق الإيمان والثقة والأمل ، أقول إذا أمكن أن ينشأ هذا المذهب كان فى نشوئه الخير كل الخير لأنه يعصم الإنسان من المادية الجامحة .. ويكفل له فى الوقت نفسه نصيباً معتدلاً من الحرية ، ويتيح له فى الوقت نفسه سعياً متصلاً لتحقيق العدل فى الأرض»(١) .

هذه كلمة كان لابد أن نشير إليها أولاً ، لكى نضع الدين موضعه ، ونأخذ أمره مأخذاً جاداً ونؤمن بمنزلته فى المجتمع . فإذا سلمنا بذلك ، فلابد أن نتطرق إلى موضوع هذا الكتاب ، إلا وهو موقف الاسلام من «العقلانية» وتأييده للنظر العقلى الذى لاتقوم الحياة الرشيدة إلا عليه ، والذى لعله هو الذى عناه عندما أطلق على ما قبله «عصر الجاهلية» وعندما أستهدف أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور . وقد عنى الكتاب بتفنيد تلك القالة الظالمة : دعوى مخالفة الإسلام للعقلانية ، وان من الخير إبعاده عن كل شئون الدنيا ، وقصره على العبادة ، وصلة الفرد بالله ، وحصره فى «المسجد» . وقد بين الكتاب أن

---

(١) أنظر مقالاً بقلم الدكتور محمد حسن الزيات بعنوان «طه حسين والمذهب الثالث . التوفيق بين الحرية والعدل ، وبين الدين» الجمهورية ٨٩/١١/١٦ .

هذه الفكرة إنما جاءت من موقف الكنيسة الأوربية من النزعة العلمية التي ظهرت فيها ، وأنه قد يكون لها مايبررها من هذا الأرث القديم ، أو حتى من طبيعة المسيحية نفسها . التي ترى أن مهمتها هي تخليص الروح ، ولكن ليس لها ما يبررها بالنسبة للإسلام ، إلا تأثر لفيف من المفكرين الإسلاميين بالحضارة الأوربية تأثراً ملك ألبابهم ، وغلب على ملكة النقد والتمييز فيهم .

ولكي يعرض الكتاب كل أبعاد القضية فإنه عالج جوانب مثل الموقف ما بين النقل والعقل .. وأثر القلوب التي جعلها القرآن أوعية الإيمان على العقلانية . ثم جابه القضايا الأربع التي تطرحها العقلانية على الأديان إلا وهي وجود الله تعالى وتنزيهه ، وخلود الروح بعد الموت والحساب : ثواباً أو عقاباً في الدار الآخرة في جنة أو نار ، وأخيراً النبوات ودور الوحي فيها . فناقشها مناقشة مستفيضة دون أن يسمح للجزئيات بان تحجب الكليات واستشهد بآراء المفكرين والعلماء الأوروبيين قاصداً بذلك أن يقنع بعض الذين لايقتنعون إلا بما يصدره الغرب . وأخيراً فانه يعرض خصائص ومقومات العقلانية الإسلامية ، إلا وهي :-

(أ) إعمال الفكر سبيل الإيمان (ب) الموضوعية والسنن .

(جـ) الخيرية والصلاح ..

★ ★ ★

ولا يعنينا في هذه المقدمة أن نعرض لأبواب وفصول الكتاب ، فهذا أمر يطول ، وهو بعد بين دفتي الكتاب يمكن للقارىء أن يلم بها بتصفحه ، ولكن ما يعنينا هنا هو أن نشير إلى تساؤل نعلم أنه سيخطر لمعظم القراء . إن الكتاب باسلوبه وطريقة معالجته يختلف عن الطريقة التقليدية الإتباعية ، وعن الأسلوب الذي مرّن الأسلاميون عليه ، وألفوه ، وهو شيء يضيق به هؤلاء القراء الأعزاء من ناحية الفهم ، ومن ناحية المزاج ، ولعلهم كانوا يؤثرون أن يكون ككل الكتب التقليدية التي تزخر بها المكتبة الإسلامية . لهؤلاء نقول : كفى إجتراراً وكفى عكوفاً على ما كتبه الأقدمون . فإن الأقدمين لم يحيطوا بما

يكتنف الحياة والعصر ، وما قيمة كتاب لايأتى بجديد يضاف إلى بقية الكتب ، لقد آن للأسلاميين أن يتخلصوا من هذه العادة ، وأن يشكروا من يساعدهم على ذلك بدلاً من أن يضيقوا به . «وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه» ولكنها الحقيقة التى لايجوز التفريط فيها وتجاهلها .

ولعلى لم أكن سعيداً بوجه خاص بتعبير «العقلانية» ولكن اللفظ أكتسب شهرة وأصبح له دلالة إصطلاحية هى التى نعنيها ، فتعين الأخذ به . والألفاظ بعد ، خدم للمعانى وبقدر ما تؤدى المعنى ، بقدر ما يفترض الأخذ بها ، لأن الأخذ بغيرها سيكون على حساب المعنى المنشود .

وأخيراً فلعل أفضل ما نختم به هذه المقدمة الموجزة عن الاسلام والعقلانية ، **هى تلك الآية التى رفعت العلم عاليا عندما جعلته المُنة الإلهية العظمى :**

﴿ لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ ١٦٤ آل عمران

جمال البنا

رجـــب ١٤١١

يناير ١٩٩١

الباب الأول
علاقة الاسلام بالعقلانية

الفصل الأول : الاسلام يؤذن بالعقل
الفصل الثانى : بين العقل والنقل
الفصل الثالث : أثر القلب على العقل

يعالج هذا الباب علاقة الاسلام بالعقلانية فيثبت أن الاسلام آذن بالعقل لعوامل خاصة تميز بها عن بقية الأديان التى لم تكن لتتسق ضرورة مع العقلانية - على طول الخط ... وأبرز هذه العوامل :

(أ) الصورة غير اللاهوتية لله تعالى التى تثبت وجوده وصفاته ، وان لم تدرك ذاته وكنهه .

(ب) أن المعجزة التى تقدم بها الاسلام كانت «كتابا» ينقذ الناس من الظلمات الى النور ، من الجهل إلى العلم ، وليست معجزات مادية كالتى وجدت فى الاديان السابقة .

(جـ) وأخيراً عدم وجود «المؤسسة الدينية» التى تحتكر التأويل والتفسير ، وتجمد عليه تبعاً لمصالحها المكتسبة كما وقع من أحبار اليهود ، واكليروس المسيحية .

ويناقش الباب فى فصله الثانى قضية العقل والنقل ، ويوضح أنها فى جذورها قضية كنسية - أوربية . وان الاسلام لاينكر أبدأ العقل ، بل يعترف به ، ويجعله أصلاً للإيمان وشرطاً للتكليف . ثم يعرض لتجربة الفكر الاسلامى مع الفلسفة اليونانية ، وأن عدم توفيقها دفع الفكر الأسلامى إلى الحديث والتصوف ، ومن ثم بدأت تظهر فجوة بين النقل والعقل ويحدد الفصل مناطق الأختصاص السليمة ، وان هناك منطقة يعجز العقل البشرى عن التغلغل فيها ، هى ما يتعلق بذات الله تعالى وبعالم ماوراء الموت ..

ويختم الباب بفصل عن أثر القلب على العقل ، يكشف فيه عن سر القلوب التى «تفقه» بتعبير القرآن الكريم ، ومدى أثرها على خلوص العقلانية وان العقل وحده والمنطق المجرد لايتوصل إلى منجزات العلوم ما لم يكن وراءهما إيمان له طبيعة تختلف عن طبيعة العقل ، ويعرض أقوال عدد من أبرز علماء الطبيعة ، وبوجه خاص «بلانك» صاحب نظرية «الكوانتم» واينشتين صاحب نظرية «النسبية» .

الفصل الأول
الإســلام يُـؤْذِن بالعقــل

ليس من العسير على الباحث المحقق أن يتبين وجود خط رئيسي يفصل بين ماقبل الإسلام .. وما بعد الإسلام ، وهذا الخط في عالم الأديان يشبه تلك الخطوط الفاصلة في تاريخ الحضارة الإنسانية ، كالخط الذى آذن بحضارة المصريين القدماء ، فالخط الذى بدأ الحضارة اليونانية ، فخط ظهور روما والحضارة الرومانية ، وأخيراً الخط الذى أقترن بدعوة «الرينسانس» فى القرن الخامس عشر ، ووضع بذرة الحضارة الأوربية التى أتت أكلها فى القرون الخمسة التالية لها . ففى كل هذه الحالات نجد خطاً يؤذن «بنقلة» حضارية تقدم إضافتها للبشرية . فالعالم قبل أن يقدم المصريون أوليات الحضارة من حروف وورق وعمارة ودين شيء ، وبعد أن قدمها المصريون شيئاً آخر ، وعندما تحللت الحضارة المصرية القديمة ظهر اليونانيون وقدموا إضافاتهم المبدعة فى الفلسفة والعلوم ، ولما دالت دولتهم برز الرومان وأصبحت «كل الطرق تؤدى إلى روما» وهيمن الرومان حيناً حتى شاخت حضارتهم وأطبقت عليها ظلمات القرون الوسطى لينبثق أول شعاع فى دعوة «الأحياء» فى الدويلات الايطالية ووضع بذرة الحضارة الأوربية المعاصرة .

★ ★ ★

الأمر كذلك فى عالم الأديان .

فهناك خط فاصل يميز الدين قبل الإسلام عنه بعد الإسلام .

قبل الاسلام **كانت الالهة محلية ومجسمة** . وكانت صورة الله ترتبط بخصائص المحلية وتتقمص ابرز الكائنات فى كل دولة . فنجد فى مصر الثور . والقطط . وقرص الشمس ، وفى اليونان نجد الآلهة ناساً كالبشر لهم نزوات البشر ، ولكن لديهم قدرات الآلهة ، وكان تزاوج الآلهة بالناس وتناسلهم **أمراً مقرراً ومألوفا . وعنه صدرت أبرز صور «الثالوث» القديمة وكان بعض** آلهة اليونان يتقمص شكلاً بشرياً ليتصل بامرأة جميلة ، وكان يمكن لابن هذه المرأة ان يكون «نصف اله» الخ . ما تفيض به الميثولوجيا اليونانية او التاريخ المصرى القديم .

وحتى اليهودية فانها تأثرت بطابع المحلية ، فجعلت إلاهها اله بنى اسرائيل خاصاً دون الأمم . واذا كانت المسيحية فى فترة إزدهارها قد جاوزت نطاق المحلية ، فذلك لأنها خلصت من التأثر بنظم دولة معينة ، ولأنها هاجرت من مهبط رسالتها ، ولان محورها «المحبة» والرحمة وتخليص الروح بالبشارة والإيمان . وهى مشاعر إنسانية . على أنه عندما رفع الإمبراطور قسطنطين الصليب على أسنة الرماح أخذت المسيحية طابعاً أوربيا ، وتركزت فى روما ، وفى الوقت نفسه فإن صورة «الله» التى بشر بها المسيح نفسه واتسمت بالبساطة نُسخت بالصورة التي وضعها القديس بول اليونانى الرومانى والتى كانت نوعاً من الاسقاط الهلينى على المسيحية بحيث أصبح المسيح مزيجاً من برومثيوس الذى سرق سر النار وقدمه للبشرية ، فأوقع به كبير الآلهة زيوس عقاباً مروعاً ، ومن التطوير الهلينى للديانة المصرية طوال عهد البطالمة وأخذت فيها شكل «ثالوث الهى» .

★ ★ ★

وأهم من ذلك **أن الأديان اصطحبت بالمعجزات واعتمدت عليها** فى إكتساب إيمان المؤمنين فكان لموسى معجزاته التى نقرأ عنها فى التوراة، وكان

للمسيح معجزاته التى نقرأ عنها فى الأناجيل ، بل إن هذه المعجزات لم تقتصر على الرسول المؤسس للديانة ، ولكنها امتدت إلى أتباعه كالحواريين المسيحيين ، وبقية أنبياء بنى اسرائيل بحيث اعتبر أن المعجزة الحسية سواء كانت إحياء للموتى أو شفاء للمرضى أو غير ذلك من الخوارق جزءاً لايتجزأ من الدين ، وسبيلا إلى التصديق به .

★ ★ ★

ونلحظ كذلك **إقتران الأديان بالمؤسسة الدينية** : كالمعبد الفرعونى وكهنته والهيكل اليهودى وأحباره والكنيسة المسيحية واكليروسها . ولم يكن يتصور أن تستغنى هذه الأديان عن «المعبد» أو عن السدنة لأن شئون الدين كانت من الطقوسية والكهنوتية والتعقيد بحيث يفترض وجود هذه الواسطة بين عامة الناس وبين الدين بأسراره وطقوسه .. الخ . فضلاً عن ان وجود هذا التركيب كان مريحاً للجميع فالكهنة كان من مصلحتهم قيامه لأنه يعطيهم صفة الوساطة بين الناس والله والقوامة على شئون المعابد ، ومايوقف عليها أو يخصص لها من أموال .. الخ . وعامة الناس رأت فى مواكب الكهنة وطقوسها ما يتجاوب مع فكرهم عن منزلة الدين وعجزهم عن تصور الإله المجرد والمطلق . أما **الملوك والحكام بإنهم عقدوا صفقة مع الكهان والاكليروس للهيمنة على الجماهير والناس** ، ولم يكن يضيرهم ان ينزلوا عن جزء من ثرواتهم أو اختصاصاتهم لهؤلاء الكهنة لأنهم يستطيعون التأثير على الناس بما لايستطيعون هم .

واستقرت هذه الصورة فى أذهان المفكرين ودارسى الأديان ، وكانت من اكبر الأسباب التى دفعتهم إلى إصدار أحكامهم القاسية على الدين . كما كان من شأنها ان تبعد الدين عن «العقل» لان صورة الله لاهوتية معقدة ، ولأن الإيمان يقوم على معجزة ، ولأن المؤسسة الدينية تحتكر الدين وتحول دون أى محاولة للتطرق إليه أو إعمال العقل فيه .

وظلت هذه المقومات الثلاث ، وأعنى بها : الصورة المعينة للألوهية ،

واعتماد الدين على المعجزات والخوارق اول مرة لأكتساب الايمان ، ووجود المؤسسة الدينية بشقيها : الهيكل والسدنة . تصطحب فى أذهان المفكرين بمعنى الدين ، بحيث اعتبرت مكونات أصيلة للدين لايتصور دين بدونها . وكان هذا التصور فى أصل الأحكام القاسية التى صدرت على الاديان من المفكرين والفلاسفة « والعقلانيين » .

★ ★ ★

اختلفت الصورة تماماً مع ظهور الاسلام .

كان الاسلام ثورة جذرية فى عالم الاديان قضت على المقومات الثلاثة التى اعتبرت هى مكونات الدين :

(أ) الفكرة اللاهوتية الغامضة ، أو المجسمة أو المحدودة لله تعالى .

(ب) قيام الايمان على أساس معجزة .

(جـ) وجود «المؤسسة» الدينية التى تحتكر التأويل والتفسير ، وتملك سلطة التحريم والتحليل والحكم على المعارضين وظهور «المصالح المكتسبة» .

كان الشيء الأول الغريب الذى جاء به هذا الدين هو ان رسوله يدعو الناس للإيمان به بقوة «**كتاب**» يتلو عليهم آياته فتخلقهم خلقاً جديداً . خلقاً يثير الهمة ويضرم العزيمة ، ويوقظ العقل .

وكان الناس الذين ألفوا حتى ذلك الوقت أن يأتى كل دين بمعجزة تحمل الناس على الإيمان حملاً ، يطالبون الرسول بهذه المعجزة ﴿ وقالوا لولا انزل عليه آية من ربه ، قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن اكثرهم لايعلمون ﴾ . (الانعام ٣٧)

وقالوا ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكونَ لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقطَ السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتىَ بالله والملائكة قبيلاً . أو يكونَ لك بيتٌ من زخرف أو ترقى فى

السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه ، قل : سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ . (الاسراء ٩٠ - ٩٣)

﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه . قل ان الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب ﴾ . (الرعد ٢٧)

﴿ وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا . او يُلقى إليه كنز . او تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون ان تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ (الفرقان ٧ - ٨)

امام هذه المطالبات بالآيات والمعجزات يرد رسول الله ﷺ بقوله تعالى ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ .

وهو موقف يختلف عن موقف عيسى عندما دعا الله ان ينزل عليهم مائدة من السماء ﴿ تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ، وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾ (المائدة ١١٤)

نعم إن مؤرخى السيرة يذكرون معجزات عديدة للرسول ، ولكن لم يرد نص واحد عن إيمان بالاسلام بحكم معجزة . والصورة التى تتكرر هى الرسول .. يقرأ القرآن فيؤمن الناس .. والقرآن نفسه صريح فى هذا كما هو واضح من الآية ٥١ سورة العنكبوت وقالوا ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وإنما انا نذير مبين ، **او لم يكفهم أنا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم** ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ . ولعائشة رضى الله عنها كلمة جميلة قدر ماهى عميقة «**فتحت المدينة بالقرآن**» وقد كان هذا الفتح الذى قاده قارىء هو الفتح الاعظم ، وهو الذى كسب المدينة للاسلام وأرسى فيها جذوره .. **فمعركة الكلمة سبقت معركة السيف . إذ لو لم يكسب القرآن المدينة لما كانت غزوة بدر ... وماتلاها .**

إن اليد العظمى للاسلام على البشرية انه استنقذ الإيمان من قبضة

المعجزات عندما جعل الوسيلة إليه كتاباً . وبعد ان كانت المعجزات هى التى تصنع الايمان أصبح الإيمان هو الذى يصنع المعجزات . وبعد أن كان النهج المقرر فى الأديان أن يخضع العقل للنقل ، أصبح النقل يخضع للعقل . وفى تلك اللحظة الفريدة فى التاريخ : لحظة نزول جبريل برسالة «إقرأ» . حدث تلاق مابين الاسلام والفكر . وانقدحت الحياة فى الاسلام كدعوة تقوم على الفكر ، لانه مادامت معجزته «كتاب يتلى» فلابد من وجود صلة وثيقة ، بينه وبين عالم الفكر .

وهكذا انتفت المعجزة كمبرر للإيمان ، بل وجعلت كتاباً وكان هذا فى سلبه وإيجابه خطوة كبرى على طريق العقل ...

★ ★ ★

وخلصت الصورة التى قدمها الاسلام للألوهية من التجسيم الوثنى والتعقيد اللاهوتى والافتراض الفلسفى (كما لدى افلاطون وارسطو) وليس معنى هذا أنها أصبحت مسألة حسابية مثل ١ + ١ = ٢ ، لايتطلب إدراكها عناء . إذ جعلها الإسلام كالمثل الأعلى الذى تصوره الفلاسفة . ولكن بعد اضفاء الحياة والإرادة والكمال عليه . وكان هذا أمراً تتقبله العقول حتى وان لم تستطع إثباته بإدلة حسابية أو براهين حسية لأن الصورة التى قدمها لايمكن ان تنكرها العقول فهل يُتصور مثلاً إله يخلق دون أن يكون هو نفسه حياً . أو يهدى إلى الكمال دون أن يكون هو نفسه الكمال . ان الاختلاف فى التصوير الاسلامى لله تعالى عن التصوير المسيحى إن المسيحية تأثرت بفكرة الثالوث المصرى الذى كان موجوداً فى الديانة المصرية القديمة وروّج له البطالمة الذين كانوا يونانيين يحملون رواسب الهلينية والاولمب ، حيث يكون بعض الناس آلهة وبعض الآلهة ناساً . وفى هذه الفترة بالذات ظهرت المسيحية وتأثرت بها على يدى «بول» اليونانى الرومانى خصم المسيحية اولاً ثم قديسها وبانيها ثانياً ، فاصطنعت ثالوثاً يعود إلى أصول مصرية ، هلينية ، واساغة هذا الثالوث وتفهمه أمر يصعب على العقل البشرى للخلط مابين عناصر الطبيعة البشرية

وعناصر الطبيعة الإلهية خاصة عندما تتولى الكنيسة الشرح فلا تزيد الأمر إلا تعقيداً .

أما فى حالة الاسلام فإن الامر لايكون عدم الاستساغة ، ولكن قصور العقل البشرى عن سبر غور الألوهية ، أو كنهها ، أو ماهيتها . لأنها الأصل والمصدر والغاية التى لاغاية وراءها والمثل الأعلى الاعظم المطلق الذى لاتلحقه أى صفة من صفاتنا المحدودة .

وهذا التصوير حتى وإن لم يحط العقل باعماقه وأطرافه ، فليس فيه مايرفضه العقل . بل هو مايوجبه العقل . وإن لم يصل إلى كنهه وسره ، فالعقل يلمس جانب الحق فيه . وواجب وجوده ، وضرورة كماله . ولكنه لايلم بالكنه أو الماهية . وجاء النظم القرآنى المعجز فعرض صورة للألوهية دون تعسف أو تكلف بحيث تتشربها النفوس وتطمئن اليها وتستلهم منها معانى الحرية والرحمة والحق والعدل والجمال . وهو مايتضح عند مقارنته بالأسلوب الفلسفى اليونانى المعقد فى اثبات وجود الله .

وهكذا حل الإسلام تلك القضية الصعبة الحساسة حلاً مثالياً فعرض الصورة التى تستسيغها العقول لله تعالى كأفضل ماتصوره الفلاسفة فى المثل الأعلى زائداً عليه الحياة والقدرة والإرادة والكمال . وفى الوقت نفسه فإنه لم يجعله «معلومة» تفهم فهماً يقضى عليها .. لا ، إن الإيمان بالغيب فيما يتعلق بصفات الله وذاته .. وعالم السمعيات هو مما لايمكن للعلم الإنسانى أن يدركه ، وعدم ادراك الانسان له يطلق روح الاستشراف والاستطلاع والشوق والقربى ... لتتلمس فى تقوى وبكل تواضع شعاعاً من أشعة شمس الألوهية بين سطور القرآن الملهمة .

وبهذا وجد القدر المطلوب من المعلوم ، والقدر المطلوب من المجهول الذى لايناقض العقل ولكن يُبقى على روح الاستطلاع والاستشراف . ووجدت الوسيلة للانتقال من المعلوم إلى المجهول فى القرآن الكريم ومطالعته .

★ ★ ★

ولم يعد الاسلام فى حاجة إلى إقامة «مؤسسة» أو تنصيب «رجال دين» أو احتكار التفسير والتأويل ، وجعل العلاقة بين الفرد والله مباشرة دون واسطة ، بل لقد حارب الاسلام سلطة الأحبار والرهبان ورأى أن قيامهم بالتحليل والتحريم شرك . ورفض فكرة التوسل والشفاعة وأن يكون لأحد ما سلطة ان يقرب الآخرين إلى الله زلفى ، وتتبع هدماً وتدميراً كل ما يمكن أن يذكر بالوثنية من تماثيل أو نصب أو قبور مشيدة . فالإسلام كان فى حقيقته هدماً شاملاً لفكرة «المؤسسة الدينية» .

وكان مما يتفق مع هذا أن لايكون بيت العبادة «كنيسة» لها تقاليد ، لايمكن أن يقربها إلا أحد أفراد الاكليروس المؤهلين ، لأن ممارسة العبادة لها طقوس واساليب وأسرار لايستطيع أى واحد الالمام بها . ولكن لابد أن يتعلمها فى مدارس تتبع الكنيسة ، ولابد أن تعتمدها سلطات الكنيسة الأدنى ، فالأعلى . ولايقف الأمر عند هذا ، بل يقوم هرم ممرد قاعدته الشمامسة والقسس فى القرى وقمته «البابا» فى روما ، الذى يسيطر على العالم المسيحى ، والذى يتوج الملوك ، والذى يصدر المراسيم الملزمة لأنه رأس الكنيسة وحامل مفاتيح السماء ، والذى يملك «الحرمان» وهو نوع من الموت الروحى ، وكانت العادة عند إعلانه أن توقد الشموع وتدق النواقيس حتى يتلى أمر الحرمان . وما أن يتلى حتى تطفأ الأنوار وتقف الأجراس إشارة إلى الموت الروحى لمن وقع عليه الحرمان ، ووصل هذا الحرمان إلى الدرجة التى نالت أقوى الأباطرة عندما أضطر الأمبراطور هنرى الرابع إلى اللواذ بمقر البابا فى كانوسا ١٠٧٧ والوقوف على بابه ثلاثة أيام حافياً حتى تنازل البابا وعفا عنه . واصبح «الذهاب إلى كانوسا» مثالاً لأسوأ صور الخضوع والأذعان .

المسجد الاسلامى يختلف تماماً عن الكنيسة ، فالأرض كلها مسجد طهور ولايشترط لبنائه شروط معينة ، والشيء الوحيد الذى قد يميزه وهو المنبر ليس إلا ثلاث درجات خشبية يقوم عليها الامام حتى يراه المصلون فلا تحجبه الصفوف الأولى عن الأخيرة . وكل واحد يمكن أن يكون إماما مادام يحفظ بعض سور القرآن ، ولاتكون له قبل الإمامة أو بعدها سلطة ، ولما كانت

الصلوات خمس فيغلب أن يؤديها الناس فى بيوتهم أو أعمالهم . ومنظر القروى المصرى الذى يصلى على ساحل النيل ، والاعرابى الذى يركع ويسجد وسط الصحراء من المناظر التى لايمكن أن تتكرر فى الأديان الآخرى .

★ ★ ★

وهكذا قضى الاسلام على المقومات التى اصطحبت بالأديان السابقة عليه . وكانت فى أصل مقاومتها للفكر والعقل أو على الاقل عزوفها عنه . واصبح الاسلام ديناً مفتوحاً ، لايرفض فكراً ، ولايرفضه فكر ، كان نقلة من الظلمات – اى الجهل – الى النور – اى العلم . وهو التفسير لكلمتى الظلمات والنور الذى إرتآه الغزالى فى كتابه «ميزان العمل» .

كان ايذانا بان البشرية بلغت سن الرشد .

★ ★ ★

قد يقول قائل لماذا تجعل الاسلام إيذاناً بالعقل ، ولاتجعل الفلسفة اليونانية فى عهد سقراط وافلاطون وأرسطو هذا الإيذان ؟. لا جدال أن ظهور الفلسفة فى اليونان فى هذا الوقت يمكن أن يعد إيذاناً بعهد العقل .. لكن لأثينا وحدها وليس للبشرية كلها . إن الاسلام قد حمل دعوة «الكتاب والميزان» إلى الجماهير وتوجه بهما نحو شعوب كسرى وقيصر المستعبدة فأنقذها من الظلمات إلى النور . ولكن فلسفة أثينا كانت مقصورة عليها . بل كانت مقصورة على الاحرار الذكور دون الاناث والرقيق .. وعندما أسس البطالمة مكتبة الاسكندرية امتداداً لفلسفة أثينا فإنها كانت يونانية خالصة ، وحرم على أهل الأسكندرية الوطنيين المصريين وهم أصحاب البلاد الاقتراب منها ، واخيرا فان الفلسفة اليونانية لم تتنكر تماماً لعالم الأولمب الخرافى ، بل وقف سقراط عند عرافة دلفى يستنبئها فأين هذا من عالمية العقل التى حملها الاسلام الى كل الشعوب بحيث لم تمض مائة سنة حتى كانت علوم الاسلام . من تفسير وحديث وفقه فى ايدى «الموالى» . وحتى مايظن انه بعيداً عنهم كاللغة العربية . فقد كان سيدها من الموالى . ويحمل اسماً غريباً على الجرس العربى «سيبويه»

وظهر من ائمة اللغة من لا يحسن - بحكم جنسه - النطق ببعض حروف اللغة العربية كالراء او الحاء . وما من مثل كهذا يوضح انفتاح الاسلام ، وكيف أنه أذن بالعقل وحمل «الكتاب» دون حدود ، او قيود الى الشعوب قاطبة ، فاستفادت .. وأفادت .

وهذا هو أحد الفروق بين عقلانية الإسلام وعقلانية أثينا ، وهو السبب في أن الاسلام وليس أثينا كان إيذاناً بالعقل للبشرية ، فالعقلانية الاسلامية التي تعود جذورها - كما تعود كل جذور الاسلام - الى الله تعالى - اكتسبت صفة موضوعية ومطلقة وتقبلت البشرية كلها . ولكن عقلانية أثينا - وبعدها العقلانية الأوروبية - انبثقت من الانسان الأوروبى وظلت دائرة فى دائرته ، محكومة بمحدداته .

الفصل الثانى
بين العقــل والنقــل

ميراث أوربى – كنيسى

التعارض بين العقل والنقل ميراث كنيسى – أوربى ، ولايمكن فهمه إلا فى هذا الضوء ، لأن إفراد النقل بطبيعة خاصة ، والعقل بطبيعة أخرى **لايعنى بالضرورة التعارض أو التناقض** ، فنحن لانقول إن العين تناقض الأذن ، أو أن السمع يعارض النظر ، وإنما نرى ان لكل واحدة وظيفة خاصة تتميز عن الأخرى ، ويمكن أن يكونا مكملين . ولكن صفحات متوالية ودامية توالت عبر التاريخ الأوربى وتغلغلت عميقاً فى الفكر الأوربى أبرزت النقل والعقل كما لو كانا متناقضين وقد حدث هذا قبل أن يظهر الإسلام بثلاثة قرون ، واستمر حتى مشارف العصر ، أى قرابة خمسة عشر قرناً . وهى سحابة التاريخ الأوربى ، ولهذا أصبحت هذه الفكرة من مسلمات الفكر الأوربى ولم يعد من السهل تغييرها أو تقبل ما يخالفها .

وقد يكون مما يُيَسِّر فهم تلك الظاهرة ان الصراع لم يكن بين المسيحية والعقل ، ولكن بين الكنيسة وحرية الفكر . وكانت الواقعة التى سمحت بها ، بل وأدت إليها هى ظهور الكنيسة **باعتبارها الممثلة الوحيدة للمسيحية** . فإن المسيحية تتطلب رجل دين متخصص أو محترف يقوم بمهام دينية . إجتماعية عديدة بدءاً من تعميد الأطفال بعد الولادة ، حتى دفن الرجال والنساء ، مروراً

بعقد الزواج وتنظيم الصلاة وتقديم القربان وتلقى الإعتراف ... الخ . بحيث لم يكن متصوراً عدم وجود كنيسة ، وأصبح من الطبيعى أن يقول عنها المسيحيون . «أمنا الكنيسة» **وأدى ذلك إلى إحتكار المهنة الدينية وتبلور المصالح فى الكنيسة** : وعندما اعتنق قسطنطين المسيحية عام ٣٢٣ رزقت الكنيسة تأييد السلطة وبدأ اضطهاد المخالفين ، وفى عام ٣٨٥ أعدم الملحد الأسبانى بريسليان بأمر الأمبراطور مكسيموس ، وبرر القديس أوغسطين (٤٣٠) **ممارسة الإضطهاد** على أساس مبدئى متذرعاً بكلمة تنسب إلى يسوع المسيح «**أجبروهم على اعتناق دينكم**» وتمشيا مع هذا المنطق سلم «أوغسطين» بمعاقبة الملحد بالنفي والجلد وفرض الغرامات ، ووضع للكنيسة دستوراً تلتزمه إزاء كل حركة عقلية ، فصرح فى كتابه «تعليقات على سفر التكوين» بأن «ليس فى الوسع التسليم برأى لاتؤيده الكتب المقدسة ، لأن سلطانها أقوى من كل سلطان أمر به العقل البشرى»[١] .

وفى عام ٣٩٠ حطم تيوفيلوس وهو أحد المطارنة إحدى مكتبات الإسكندرية ، وبعد ذلك بقرن ضاق القديس سيريل «Cyril» وهو ابن أخت تيوفيلوس بالنشاط الذى كانت تقوم به هيباثيا ودروسها فى الرياضة والفلسفة فى الإسكندرية ، وكانت قاعة دروسها تكتظ بالمستمعين ، فأثار عليها الدهماء **فانقضوا عليها وهى فى طريقها إلى قاعة دروسها وجردوها من ثيابها ومزقوا جسمها إرباً** . وفى عام ٥٢٩ أمر جستنيان بإغلاق مدارس الفلسفة جميعاً .. واستمر هذا المنهج بل وازداد مع إنتعاش الدراسات اليونانية وتعرف المجتمع الأوربى على فلسفة بن رشد ، وظهور حركة الإحياء ، وحرمت الكنيسة على «جون بابتيست بورتا» John Baptist Porta أبحاثه الكيميائية والطبيعية التى كان يقوم بها فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، وتعرضت جمعيات البحث العلمى والأكاديميات التى ظهرت وقتئذ فى باريس ولندن ونابولى وفلورنسا وبوجه خاص أكاديمية «دل شيمنتو» التى عقدت أولى جلساتها فى فلورنسا

---

(١) انظر كتاب قصة النزاع بين الدين والفلسفة للدكتور توفيق الطويل ص ٨١ (لجنة الجامعيين لنشر العلم) وسيكون عمدتنا فى الفقرات التالية .

عام ١٦٥٧ تحت رئاسة الأمير ليوبولد دى مدتشى ، وكانت تضم الممتازين من أهل البحث العلمى الذين اتخذوا شعارهم «دحض كل مذهب فلسفى وإن كان حبيبا إلى النفس ، وضرورة البحث فى ظواهر الطبيعة فى ضوء التجربة وحدها» واستغرقتهم الحماسة فى إلتزام هذا الشعار ، وكان لأبحاثهم أطيب الثمرات ، وحسبنا أن نشير إلى «بوريلى» Borelli فى الرياضيات ، و «ريدى» Redi فى التاريخ الطبيعى ، وكثيرين ممن ساهموا فى البحث العلمى الصحيح ، ووسعوا من نطاق المعرفة الصادقة فعرضوا لدراسة الحرارة والضوء والمغناطيسية والكهرباء وعلاقة المقذوفات بالجاذبية وعمليات الهضم ، وعدم إمكانية إنضغاط الماء ... والتزموا فى بحثهم المنهج العلمى الصحيح ، فكانت الأكاديمية على يدهم حصناً منيعاً للعلم الجديد . ولكن رجال اللاهوت قد ضاقوا بها فضربوا عليها حصارهم ، وأعلنوا إتهام الأعضاء بالهرطقة واللادينية ، وقدموا لرئيسها قبعة الكردينالية ثمناً لخذلانها وخيانة مبادئها ، واستدعى هذا الرئيس إلى روما ، ولكن القلعة قاومت خصومها عشر سنوات طوال ، سقطت بعدها ، وخر أعضاؤها صرعى من عناء الجهاد ، فاضطهد «بوريلى» وحورب فى رزقه حتى أضطر إلى التسول وأكره «أوليفا» Oliva على أن ينتحر فراراً من عذاب محكمة التفتيش[1] .

وقبل هذا أُعدم برونو عام ١٦٠٠ لإيمانه بمذهب كوبرونيكوس الذى قاومه الكاثوليك والبروتستانت ، وكان أول من مهد للرأى السديمى الحديث . **ولما كان حكم المحكمة يقضى بقتله دون أن تراق قطرة من دمه ، فقد أحرق ،** وفى فلورنسا أُعدم سافونارولا . وبدأ مع ظهور الطباعة نشاط الكنيسة فى مراقبة المطبوعات فأصدر البابا اسكندر الخامس أمراً بابوياً عام ١٥٠١ ينذر فيه بعقاب من يقدم على طبع شىء لم يصرح بطبعه ، وقرر الملك هنرى الثامن فى فرنسا عقوبة الإعدام جزاء الطبع من غير إذن رسمى ، وأدخلت ألمانيا الرقابة على المطبوعات منذ عام ١٥٢٩ ، وكانت الكتب لاتطبع فى إنجلترا –

(١) المرجع السابق ص ١٤٧ – ١٤٨

فى عهد اليصابات . من غير ترخيص ، ولايرخص بوجود مطابع إلا فى لندن واكسفورد وكمبريدج ، وتتولى الإشراف على شئون المطبوعات محكمة النجمة Star Champer ولم تتخلص الطباعة من هذه القيود إلا فى القرن الماضى[١] .

وبدأت مع ظهور الأبحاث الحديثة فى علم الفلك جولة جديدة من الإضطهاد باضطهاد كوبر نيكوس ، ومحاكمة جاليليو ، وتمسكت الكنيسة لأسباب لايمكن أن تبرر إلا بالتعصب ، والغباء ، وضيق الأفق بما جاء فى العهد القديم عن تكوين الله للأرض بصورة معينة تفهم أنها مبسوطة ثابتة ، وانها مركز الكون وخلق آدم وأبنائه إبناً إبناً حتى موسى وبقية الأسباط ، وهى أمور ليست من صميم العقيدة ، أو على الأقل ليست مما جاء به المسيح أو الحواريون . وكانت هذه القضايا هى محور اكبر حركة اضطهاد للعلم والعقل ، ولاشىء يمثل عناد الكنيسة مثل مانقل عن أحد آباء الكنيسة «إن ثبات الأرض أمر مقدس ثلاثاً thrice sacred وان التدليل على فناء النفس وإنكار الله وعدم تجسيده ، يمكن أن يلقى تسامحاً قبل أن يظفر بهذا التسامح التدليل على أن الأرض تدور[٢]» وحدد آخرون تاريخ خلق العالم ، بأنه بدء فى التاسعة من صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر اكتوبر عام ٤٠٠٤ ق . م[٣] .

وكان إصرار بعض آباء الكنيسة على هذه القضايا فى الوقت الذى تفتحت آفاق المعرفة فى الجيولوجيا ، وفى الفلك ، وفى الطبيعة وظهور نظرية التطور والإنتخاب الطبيعى ، التى يصعب تفنيدها ، وأدت نتائجها إلى ما يخالف دعوى الكنيسة ، هو مما انتهى بهزيمة الكنيسة وإقصائها عن المجتمع بحيث لايكون لها وجود إلا ساعة واحدة يوم الأحد ، أو فى المناسبات الإجتماعية ، وفقدت دورها باعتبارها الموجهة السياسية والإجتماعية والعلمية للمجتمع . واعتبر ذلك وضعاً طبيعياً ، بل أعتبر الشرط الأول للتقدم الحديث وظهور الدولة العلمانية التى تميز العصر الحديث .

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٣ .
(٣) المرجع السابق ص ١٩٧ .

وانسحبت هذه الفكرة ذات الأصل الكنيسى - الأوربى الضارب فى القرون الوسطى على كل الأديان كقاعدة مقررة ، مع أن المفروض أن المسيحية شىء ، والكنيسة شىء آخر ، وان المسيحية نفسها شىء ، وبقية الأديان شىء آخر ، وان أصول القياس تتطلب شروطاً لم يلحظها الذين أطلقوا الأحكام وعمموها على الأديان الأخرى بما فيها الإسلام ، ونقلها دون وعى المفكرون الأسلاميون الذين استلهموا الفكر الأوربى على علاته ، فى حين أن هذه القضية بالنسبة للاسلام ليست ذات موضوع .

العقل فى الفكر الإسلامى

مع أن الاسلام كبقية الأديان يعترف بالوحى ، فإن الإسلام يتميز بالتحرر من الخصائص الثلاث التى أوجدت هوة مابين الدين والعقل ، وأشرنا إليها فى الفصل السابق . فلم ينشأ تصوره للألوهية عن «لاهوت» ولا اعترف بنظام كنيسة ، ولا أقام الإيمان على أساس معجزة ، ومن هنا فلم تكن لدى الفقهاء المسلمين الأوائل حساسية بالنسبة لمضمون العقل ووجد من قال «**كل ماحكم به العقل حكم به الشرع . والعقل رسول فى الباطن ، والشرع عقل فى الظاهر» . وقد اتفق المسلمون تقريباً على أن الإعتقاد بالله متقدم على الإعتقاد بالنبوات . فلايمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله . فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل ، ولامن الكتب المنزلة . فإنه لايعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله ، وبأنه يجوز أن ينزل كتاباً ويرسل رسلاً ومن أجل هذا قال علماء الكلام أن أول واجب يلزم المكلف ان يأتى به هو النظر والذكر لتحصيل الاعتقاد بالله لينتقل منه إلى تحصيل الإيمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتب - فمن قضايا الدين مالايمكن الإعتقاد به إلا عن طريق العقل كالعلم بوجوب الله وقدرته على إرسال الرسل ، فأول أساس وضع عليه الاسلام هو النظر العقلى**[1] .

---

(١) أنظر مقالاً عن «مصادر التشريع الإسلامى» بقلم الشيخ عبدالله مصطفى المراغى المفتش بالأزهر - نشر فى مجلة منبر الشرق فى ٤ شعبان ١٣٧٥ هـ ، ١٦ مارس ١٩٥٦ ، ص ٣ .

وقال الشيخ محمد عبده «لايصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسول ، أو من الكتب المنزلة ، وإنما لابد أن يصل الإنسان إلى معرفة الله أولاً بعقله ثم يصل إليه فى الإيمان بالرسل» . وقال الشيخ مصطفى المراغى «لايجوز الإستناد إلى التقليد فى أصول العقائد . وأن إيمان المقلد لايعبأ الله به ، وهو إيمان لاعمل لصاحبه فيه» . ومن المعروف والمقرر أن العقل هو الشرط المسبق للإيمان ، وأن التكاليف الشرعية تسقط عن المجنون ، ولاتلزم الطفل **الذى لم يبلغ الحلم وقيل ان سلطان العقل هو ميزان الله فى أرضه .**

ولقد ألف أبن تيمية فى موضوع العقل والنقل كتابين من أفضل الكتب . هما «درأ تعارض العقل والنقل» و «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» . أثبت فيهما أنه لايوجد مطلقاً تعارض مابين صحيح المعقول وصحيح المنقول ، وأن الخلاف إنما يكون بين الظنيين منهما ، وهذا أمر مفهوم وتسمح به الإجتهادات .

وكل المذاهب الإسلامية تضع العقل هذا الموضع ، بيد أن أشدها إقراراً وأكثرها إعترافاً بمنزلة العقل هو المذهب الزيدى الذى وضع أصوله الأمام زيد بن على «زين العابدين» بن الحسين بن على بن أبى طالب . وهو المذهب الذى جنت عليه شبهات الشيعة ، فعزف عنه أهل السنة ، وكان جديراً بالتقدير .

ففى المذهب الزيدى تقدم قضية العقل المبتوتة على القرآن الكريم .

وجاء فى «الفصول اللؤلؤية للأصول الزيدية لصارم الدين الوزير» ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية :

وكيفية الإجتهاد فى الحادثة أن يقدم المجتهد عند استدلاله قضية العقل المبتوتة ، ثم الإجماع المعلوم ، ثم نصوص الكتاب والسنة المعلومة ، ثم ظواهرها كعمومها ، ثم نصوص أخبارالآحاد ، ثم ظواهرها كعمومها ، ثم مفهومات الكتاب والسنة على مراتبها ، ثم مفهومات أخبار الآحاد ، ثم الأفعال

والتقديرات كذلك ، ثم القياس على مراتبه ، ثم ضروب الإجتهاد الاخرى ، ثم البراءة الأصلية ونحوها .

ويبدد الشيخ أبو زهرة فى كتابه «الأمام زيد» ما قد يعلق بالذهن من شكوك ، لعدم وضوح هذا الإجمال فيقول :

«وإن هذا الكلام يستفاد منه أن قضايا العقل القطعية ، هى في المرتبة الأولى ، كما أن الإجماع المتواتر المعلوم به مقدم على نصوص القرآن الكريم والسنة المتواترة والمعلومة وقد يبدو الأمران غريبان ، ولابد أن نزيل الغرابة فيهما .

فالعقل الذى يقدم على النصوص هو القضايا العقلية المقطوع بها ، من حيث معرفة الله تعالى وإثبات نبوة محمد ﷺ وكون القرآن من عند الله تعالى ، وأن محمداً جاء بهذا الدين ، وأن مايقوله عليه السلام ، هو من تبليغ رسالة ربه ، فإن ذلك مقدم من حيث الترتيب المنطقى على الاحتجاج بالقرآن والسنة ، لأنه يقوم عليه إثبات صحة الإحتجاج بهما .

فالعقل يرجع إليه فى الشرع إذا لم يكن ثمة أى طريق شرعى يرجع إليها . وليس هذا داخلاً فى قضية العقل المقدمة على النصوص والفرق بين حكم العقل فى الموضعين من ثلاث نواح . أولاها أن قضية العقل المقدمة على النصوص هى : قضية العقل المبتوتة ، أى المقطوع بها التى لاتقبل نقضاً ، وحكم العقل بحل أو تحريم ، إنما هو أمر ظنى وليس بأمر قطعى .

الثانية – أن قضية العقل المقدمة ، هى ما يقوم عليه أساس الخطاب الإسلامى ، وهو الإيمان بالله ورسوله النبى الأمى ، الذى جاء بهذا الكتاب والإيمان بالمعجزة ، وأما حكم العقل فى التكليف ، فهو متأخر عن الخطاب بشرع الإسلام ، إذ هو بناء على ماجاء به الشرع ، فحكم العقل عندئذ غير خارج على ماجاءت النصوص ، بحيث لايكون غريبا عنها – فمثلاً إذا رأى بعقله أن فى أمر فساداً ، ولم يجىء نص بالتحريم أو بالتحليل ، كان العقل حاكماً

بتحريم لأن الله تعالى لايجيز الفساد ولايرضاه لعباده ، وإذا رأى العقل فى أمر مصلحة ولانص عليها ، فإنه يحكم بأن الله تعالى ، يطالب بها لأن الله تعالى رحيم بعباده ، وكل مصلحة فيها رحمة مادامت خالية من الفساد ، ولايترتب عليها فساد ، ولاموضع فيها لنهى .

الثالثة – أن موضوع قضية العقل المقدمة هى مايقوم عليه شرع الشرائع عامة ، أما حكم المتأخر فهو حكم العقل فى الوقائع الجزئية»

كما يفند المؤلف ماقد يظنه البعض من شكوك حول تقديم الإجماع على مايقضى به القرآن الكريم والسنة النبوية فيقول :

«لقد ذكر صاحب (الفصول اللؤلؤية) أن الاجماع الذى يبتدأ به هو الإجماع المعلوم ، وهو الإجماع الذى ثبت فى حقائق الإسلام الأولى ، التى ثبتت بالتواتر من النبى ﷺ تواتر عليها إجماع المؤمنين فى عهد الصحابة ، لأنهم تلقوا ذلك عن النبى ﷺ ، وإجماع التابعين من بعدهم لم يشذ أحد فى العصر الأول الصحابى ، ولا أحد فى العصر التابعى ، كإجماعهم على أن الصلوات خمس ، وكإجماعهم على أن صلاة الفجر ركعتان والظهر أربع والعصر والعشاء كذلك والمغرب ثلاث ، وإجماعهم على أن الصلاة المفروضة هى على هذه الهيئة التى وردت عن النبى ﷺ ، وكإجماعهم على الصوم وأشكاله وإجماعهم على الزكوات وعلى مناسك الحج ، وغير ذلك من الأمور التى تلقاها الصحابة بالإجماع ، فإن هذه موضع تسليم لاموضع إجتهاد ، وهى الحقائق التى لايصح لمجتهد أن يخالفها ، معتمداً على ظاهر نص أو متعلقاً بظاهر أثر .

وليس تقديم الأخذ بهذه المسلمات على الإجتهاد فى القرآن والسنة تقديماً للإجماع فى حد ذاته على القرآن والسنة ، بل هو تقديم لأمر ثابت عن النبى ﷺ ، بطريق ليس لأحد أن يشك فى نسبتها ، فهو أخذ بأقوى سنة ، وأخذ بأحكم مايدل عليه القرآن من أحكام(١) .

---

(١) الإمام زيد للشيخ محمد أبو زهرة ص ٣٣١ – ٣٣٥ بتصرف .

ولاحظ مؤلف «الزيدية» عندما كان يصدد الحديث عن القاسم الرسى «مامن مفكر – فيما أعلم – قدم العقل على الكتاب ، بحجة أن الكتاب والرسول يعرفان بالعقل ، بينما لايعرف العقل بهما – وقد أصبح تقديم العقل نهج الزيدية فى أصول الفقه ، ومع أن النزعة العقلية نهج المعتزلة ، إلا أنى لا أعرف معتزلياً قدم العقل على هذا النحو من الصراحة ، حقيقة لقد قالوا : إن صدق الرسول إنما يعرف بالعقل إذ به يتميز النبى الصادق عن المتنبىء الكاذب ، ومن ثم فالعقل مقدم على الرسول وعلى ما جاء به النبى من كتاب منزل ، وحقيقة لقد ذهب المعتزلة بل وبعض الأشاعرة كالرازى ، إلى ترجيح العقل على النقل ، ولكن لاأظن أن مذهباً فقهياً سواء الحنفى ، مذهب معظم المعتزلة ، أو الشافعى ، مذهب كثير من الأشاعرة ، قد قدم العقل على الكتاب ، كمصدر للتشريع ، وإنما ذلك عند الزيدية إبتداء من القاسم الرسى(١)» .

وقال القاسم الرسى فى وصف العقل «العقل آمن أمين وأفضل قرين فاستأمنه على أحوالك وجميع خلالك» .

ومع أن المذهب الزيدى هو اكثر المذاهب الإسلامية صراحة فى تقديم العقل على النقل حتى لو كان هذا النقل هو القرآن الكريم نفسه ، فإن مضمون المذاهب الإسلامية الاخرى لايختلف عنه كثيراً . وقد ظهر ذلك فى معالجة قضية احتمال وجود تعارض بين العقل والنقل . واستشهد كاتب معاصر هو الشيخ محمد سعاد جلال بكلام الرازى فقال :

وإنما يكون الإشكال إذا تعارض حكم قطعى من العلم بنص قطعى من القرآن .

فذهب الرازى إلى الجزم بتأويل نص القرآن حينئذ – كما فى قوله تعالى «حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئه» وتأويله إن ذلك يكون

---

(١) الزيدية بقلم الدكتور احمد محمود صبحى – الزهراء للاعلام – ص ١٣٧ .

بحسب رأى العين – **لأن العقل أصل والشرع فرع عنه . فلو غلبنا العمل بالشرع على العمل بالعقل لعاد الفرع على أصله بالنقض ، وذلك باطل** ، وإنما يفهم ذلك مما قرره علماؤنا أن العقل يستقل بإثبات وجود الله ووحدانيته واتصافه بالحياة والعلم والإرادة والقدرة وجواز إرسال الرسل عليه ، ثم يعزل العقل نفسه – فلا يتوقف العقل على الشرع فى مثل هذه الأمور لأن الشرع متوقف عليه فيها ، فلو توقف عليه العقل لزم «الدور» والدور باطل .

ويشرح الشيخ محمد سعاد جلال حكاية «الدور» وتوضيحه ببساطة «لايصح أن تقول علم ثبوت القرآن متوقف على وجود الله وعلم وجود الله متوقف على علم ثبوت القرآن . لان هذا دور باطل لايؤدى الى صحة ثبوت القرآن ولا الى صحة وجود الله وانما نكسر هذا الدور بان نقول علم ثبوت القرآن متوقف على علم وجود الله ، لكن علم وجود الله ثابت بالعقل وحده لا بالشرع . فمن هذا يصح الشرع من حيث صحة إثباته على دليل العقل وحده»(١) .

الفكر الاسلامى والفلسفة

ولكن من المؤسف أن معظم المفكرين الإسلاميين استثمروا تشجيع الإسلام للفكر العلمى ، وإعمال العقل اكثر ما استثمروه فى المجال الوحيد الذى نهى الإسلام عن إعمال العقل فيه ، لأن العقل يعجز عن إستيعابه وهو صفات الله تعالى ومايتعلق بذاته – ففى هذا المجال بالذات انصبت معظم أبحاث العلماء المسلمين ، بحيث أنهم أوجدوا علماً جديداً ، هو الذى يطلق عليه «علم الكلام» الذى يقوم على أصول الفلسفة اليونانية .

كما استعارو لعلم الأصول ، أو أصول الفقه من المنطق الأرسطى مقدمات كمباحث الدلالات اللفظية واقسامها وانقسام اللفظ إلى نسق وتصديق ، والحاجة إلى الكلام بناء على ذلك على مبادىء التصورات من الأقوال الشارحة ،

---

(١) مجلة الهلال – عدد يناير سنة ١٩٨٠ ص ٤٣ – ٤٤ .

والتعريفات وانقسامها إلى حدود ورسوم ومبادىء التصديقات ، والكلام على البرهان وكيفية إستخدامه فى إثبات دعوى المستدل ونقض الكلام المعارض ونحو ذلك[1] .

وقد نلحظ فى كتاب مبسط لعلم الأصول آثار المناطقة «وشرط مايلزم من عدمه العدم ولايلزم من وجوده وجود وعدم لذاته . كالطهارة بالنسبة للصلاة ، لأن مجرد الوضوء ليس كافياً فى تحقق الصلاة ولا فى عدمها الخ ..» .

ولما كان الخط السلفى قد تبنى علم الكلام وتقريراته - فقد تسلل الأسلوب الفلسفى ، المنطقى إلى عقر العقيدة ، وسلم بذلك معظم علماء السلف ، وليس بن رشد أو بن سينا ، أو المعتزلة وحدهم .

وقد بدأ ذلك من أبى الحسن الأشعرى نفسه ، الذى حاول أن يجمع مابين النص ومذهب أهل العقل وعلماء الكلام وتقصى أحد المؤلفين تطور تسلل علم الكلام إلى الفكر الإسلامى فقال : «ومن بعد الأشعرى فى بناء مدرسته واتجاهه كان القاضى أبو بكر الباقلانى . وينسب إليه وضع المقدمات العقلية (الفلسفية) ، كالجوهر الفرد ، فى تأليف علم الكلام الأشعرى .

ومن بعده كان إمام الحرمين ؛ أبو المعالى عبد الملك الجوينى النيسابورى الملقب ضياء الدين (ولد سنة ٤٢٠ هـ - وتوفى سنة ٤٧٨ هـ) . درس فى المدرسة النظامية بنيسابور علوم التوحيد والفقه والمنطق ثلاثين سنة ، وله كتاب (نهاية المطلوب) ، مخطوط بدار الكتب المصرية . وهو صاحب كتاب (الشامل) وتلخيصه (كتاب الإرشاد) . وينسب إليه زيادة عن سلفيه . استخدام المنطق الإغريقى فى تأليف علم الكلام الأشعرى .

---

(١) أنظر بحث أصول الفقه منهج بحث ومعرفة الفقه الاسلامى - الدكتور جابر العلوانى جاء فى : Islam : Source and Purpose of Knowledge P. 216

ومن بعد إمام الحرمين كان تلميذه الغزالى حجة الإسلام المتوفى سنة ٥٠٥ هـ . وينسب إليه فى بناء المدرسة الأشعرية أنه فى التأليف على طريقتها أدخل الفلاسفة للرد عليهم ، بعد أن كان الرد قبله من أئمة هذه المدرسة قاصراً على المعتزلة وحدهم .

والإمام ابن الخطيب تابع الغزالى فى نهجه فى الرد على الفلاسفة والمعتزلة فى التأليف على النمط الأشعرى . والبيضاوى صاحب (الطوالع) زاد من خلط مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة . وعلماء الأعاجم : كسعد الدين التفتازانى والإيجى ، تابعوا البيضاوى فى نمطه فى التأليف[1] .

ويمكن القول إن تجربة الفكر الإسلامى فى هذا المجال لم تكن موفقة ، وإن النقل فى هذه النقطة كان أجدى من العقل ، لأن العلماء المسلمين الذين درسوا الفلسفة اليونانية على أساس إستخدامها فى إثبات وجود الله وتنزيهه ، أخذوا بها ودفعهم ذلك إلى عالم من التفريعات والإفتراضات ، لم يكن لهم بها عهد . وبعد فترة تحولت أهدافهم إلى محاولة التوفيق بين العقيدة والفلسفة ورأوا **أن الحكمة مولدة الديانة ... والديانة متممة للحكمة . وقال أخوان الصفا إن الشريعة قد دنست بالجهال ، واختلطت بالضلالات ، ولاسبيل إلى غسلها إلا بالفلسفة** ، كما قال السجستانى . وماذا يجدى للفكر الإسلامى كتاب (الجمع بين رأيى الحكيمين) للفارابى والذى قال فيه «ولولا ما أنقذ الله أهل العقول والأذهان ، بهذين الحكيمين - افلاطون وأرسطو ، ومن سلك سبيلهما ممن وضحوا أمر الإبداع بحجج واضحة مقنعة ، وإنه إيجاد الشيء لا عن شيء ، وإن كل ما يتكون من شيء ما ، فإنه يفسد لاستحالته إلى ذلك الشيء ، والعالم مبدع من غير شيء فمآله إلى غير شيء .. فيما شاكل ذلك من الدلائل ، والحجج والبراهين ، التى توجد كتبهما مملوءه منها ، وخصوصاً مالهما فى الربوبية ، وفى مبادىء الطبيعة - لكان الناس فى حيرة ولبس ..» فأين الإسلام

---

(١) د . محمد البهى - الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى جـ ٢ ص ٤ .

هنا ، وأين رسالة محمد ، وأين نور القرآن وبراهينه التى غرس بها الإيمان غرساً يفوق غرس الفلسفة بمراحل .

ان كلام الفارابى ، ومن ذهب مذهبه ، يصدق تماماً على المجتمع اليونانى ايام افلاطون وارسطو ، هذا المجتمع الذى لم يعرف قرآنا ، ولم يحظ برسالة ، وقام الفلاسفة فيه بدور الانبياء . ولكنه لم يعد ذا موضوع بعد رسالة الرسول ونزول القرآن بأسلوب جديد وببراهين تتمشى مع الرسالة الدائمة والعامة للبشرية ولكن أصولهم الاعجمية ، وغربتهم عن المنطق القرآنى . وغلبة الرواسب القديمة ، أعلت المنطق الارسطى . ولو تعمق الفارابى وابن سينا وامثالهما فى القرآن ، كما تعمقوا فى فلسفة «الحكيمين» لما اشتروا الذى هو ادنى بالذى هو خير . ولكن قد يلتمس لهم عذر بهيمنة الفقهاء التقليديين على الفكر الاسلامى وقتئذ - وحيلولتهم دون اى تأصيل .

وعرض الدكتور محمد البهى لتفسير بن سينا للآية ﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى ، يوقد من شجرة مباركة زيتونة ، لاشرقية ولاغربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء . ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم ﴾ . فقال .

«... فالنور إما ذاتى أو حقيقى ، أو مستعار ، والمستعار إما الخير وإما السبب الموصل إلى الخير . وفسر السموات والأرض بانها الكل . والمشكاة هى العقل الهيولانى ومفتاح العقل المستعار والزجاجة بالواسطة ، وشجرة مباركة بالقوة الفكرية ، والنار بالعقل الكلى المدبر للعالم المشاهد . وهو النفس الكلية عند أفلاطون[1]» .

ولاجدال فى أن هذا التفسير أبعد مايكون عما أراده القرآن ، وتصوير القرآن لله تعالى تتشربه النفوس ويعطى الأثر المطلوب دون تكلف أو إغراب . فى

(١) مرجع سابق ص ٢٠ .

حين لايقدم تفسير إبن سينا الذى تعلم على ارسطو وأفلاطون إلا خبطاً فى عالم غريب . ومثل هذه المحاولات هى «تلغيز» وليس تفسير القرآن . فالقرآن واضح مؤثر مقنع بذاته ، بلفظه وجرسه ونظمه .

أوخذ مثلاً هذه الصفحة من كتاب الطبيعة لأرسطو الذى ترجموه :

« .. فإن كان الذى هو الموجود ليس هو مما يعرض لشىء أصلا ، بل إنما له بالحرى يعرض مايعرض ، فالموجود إنما يدل على الذى هو الموجود ، أو يكون يدل على غير الموجود . وذلك أنه إن كان الذى هو الموجود أبيض ، فلأن معنى أبيض ليس هو الذى هو موجود ، لأنه ليس يمكن أن يكون الموجود يعرض له ، من قبل أنه ليس موجوداً إلا الذى هو الموجود ، فليس الأبيض إذا بموجود لاعلى أنه ليس هو الذى هو الموجود ، بل على أنه غير موجود أصلاً . فيجب إذن أن يكون الذى هو الموجود غير موجود ، وذلك أن القول فيه بأنه أبيض حق ، فقد وجب من ذلك أن الأبيض أيضاً يدل على الموجود ، فالموجود إذن يدل على معان شتى» !؟

ويقول مؤلف (رأى فى الفكر الإسلامى) : ولنا أن نتصور أى جهد تبدد فى هذا الهراء ، وأى ضرر لحق بالأمة عندما أعرض علماؤها عن كتاب ربهم الواضح ، وسنة نبيهم السهلة ليتفرغوا لشرح النص السابق لأرسطو على النحو التالى :

« ... إن الموجود إن لم يدل على معان شتى حتى يدل على الشىء العارض على الموضوع وعلى الشىء الذى هو الموجود ، يعنى الذى هو أولى بالوجود ، وهو الموجود على الحقيقة لايعرض وجوده على غيره وهو الجوهر وهو الواحد على الحقيقة لأنه الواحد بالعدد . بل ان كان الموجود هو الشىء العارض على الجوهر فإنه يلزم منه أن يكون الجوهر موجوداً ، لأن الموجود قد عرض له . ولايجوز أن يعرض الموجود لما ليس بموجود[1] !!

---

(١) سعيد محمد حسن – رأى فى الفكر الإسلامى – القاهرة ١٩٧٦ ص ٤٣ ، ٤٤ (دار ممفيس للطباعة ١٩٧٦) ومن المؤسف ان الكاتب فيما نظن لم يتابع كتاباته – التى أشار إليها فى المقدمة فقد كان يرجى منها خير كثير .

وأسوأ من هذا أنهم زجوا فى مجال الفقه الاسلامى بمشكلات للأديان والعقائد الأخرى . لم توجد فى الإسلام ، أو آثر الإسلام أن يتجاهلها . وجعلوا هذه القضايا مدار بحثهم .ومحور دراستهم وألفوا فيها المجلدات التى لوثت صفاء الفكر الإسلامى وطريقته السهلة السائغة التى تعتمد على الفطرة والبديهة والملكة.

وفى نهاية كتابه (الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى) عرض الدكتور البهى مأساة المفكرين المسلمين الذين أرادوا أن يتخذوا من الفلسفة وبالذات الفلسفة اليونانية دليلاً على وجود الله .

«إن ما أفاده فلاسفة المسلمين المشائيون فى الشرق من الاستدلال على وجود الله من «الوجود» نفسه ، جانب مافى الدين من دليل عليه مشتق من العالم الواقعى – نتيجة قبولهم فكرة واجب الوجود الأغريقى ، لايتكافأ مع مجهودهم العقلى فى التوفيق بين الاسلام والفلسفة فيما أثاره واجب الوجود فى هذه الفلسفة من إشكالات ، وعلى الأخص فى وصف الله بصفاته التى وردت له فى القرآن الكريم ، وفى علمه لما يجرى فى ملكوته .

ثم بعد هذا كله لايصلح تفلسفهم أن يكون أساس توجيه دينى ، لأنه لايلتئم مع طبيعة الدين كدين ، كما لايصلح أن يكون أساساً لتوجيه عقلى لما فيه من كثرة التعاريج والإلتواءات ، نتيجة الخلط من عدة مذاهب وآراء .

ولو درى فلاسفة المسلمين المشائيون قيمة الفكر الإغريقى ، وأنه لم يخلص تماماً من الشعر والخيال ، لآثروا أن يكون لهم منطق خاص بهم .

ولو علموا نتائج قبولهم آراء أفلاطون وأرسطو فى شرح العقيدة ، على العقيدة من حيث هى عقيدة ، لتركوا للقرآن الكريم

وحده كما هو الطريق إلى قلوب المصدقين وعقول الخاصة من الناس[1]» .

ولو أن هذه العقول العبقرية ركزت بحثها فى العلوم الطبيعية كما فعل ابن الهيثم ، والبيرونى ، والخوارزمى .. الخ ، لتحقق فى بغداد ماتحقق فى أوربا عهد الأحياء . ولكسبت المعرفة عشرة قرون ولجاءت من مصدر قد يلحظ فى استخدامها ، او يضع لها أدبيات الإسلام ، أو لو أن المعتزلة الذين عالجوا قضية العدل بالنسبة لله تعالى ، عالجوها بالنسبة للخليفة أو طبقوها على أنفسهم عندما سنحت لهم فرصة الحكم ، لحال ذلك دون تدهور النظام السياسى ولظفر أدب الحوار بنماذج أفضل من نماذج إجبار الناس على القول برأى واحد دون تقدير لآرائهم الخاصة .

ومامعنى قضية الصفات التى أصبحت محوراً من محاور الصراع فى الفكر الاسلامى ودارت حولها معارك وأدت إلى إنقسامات .. سوى جدل لايخطر لرجل سليم القلب سوىِّ الطوية آمن بآيات القرآن الكريم ، كما آمن الصحابة ، فلم يخطر له أن يسأل أو يستقصى .. لأن المعنى المطلوب وصل قلبه فأدفأه بالإيمان وأسعده باليقين ، وأصبح كل ماعدا هذا فضولاً ، بل افتياتاً وتلويثاً ، إننا فى هذا الإتجاه نتفق مع الذين رفضوا أصلاً الحديث فى هذه القضية ورأوا إنها من محدثات الأمور ، ونتفق مع مايقوله ابن الجوزى فى كتابه «فضل علم السلف على الخلف» وإن كنا نختلف معه فى قضايا أخرى . وقد قال ابن الجوزى فى كتابه هذا (ص ١٧ دار الطباعة المنيرية – القاهرة) .

«ومن ذلك أعنى محدثات الأمور – ماأحدثه المعتزلة ، ومن حذا حذوهم من الكلام فى ذات الله تعالى وصفاته بأدلة العقول وهو أشد خطراً من الكلام فى القدر . لأن الكلام فى القدر كلام فى أفعاله ، وهذا كلام فى ذاته وصفاته» .

★ ★ ★

(١) د . محمد البهى – مرجع سابق ص ٢٦٠ .

وكان رد فعل تجربة الفكر الإسلامى مع الفلسفة اليونانية وماتورط فيه المعتزلة وعلماء الكلام من سخف وجدل ، أن اندفع الفكر الاسلامى إلى التصوف . كما انتهى إلى ذلك الغزالى ، أو إلى السُنة وبالذات الحديث . ولم يكن فى هذين مايشجع العقل بوجه خاص . ومن هنا تهيأ المناخ لحدوث المأساة التى انتصر فيها النقل على العقل ، والتى توضحها الفقرة التالية .

بين المتن والسند :

كان الملاذ الأول للفكر الإسلامى بعد أن ظهر عقم تجربته مع الفلسفة هو الحديث . وقد يصور ذلك تصويراً رمزياً إنتصار أحمد بن حنبل على المعتزلة . والحديث هو أكثر المواضيع نقلية لأن محور البحث يكون عادة السند لا المتن . فمع أن المحدثين أقروا أن سلامة السند لايمكن أن تكون مبرراً لقبول متن معلول . وأن من سمات الوضع فى الحديث أن يكون المتن مخالفاً لصريح العقل . الا أنهم عملياً ركزوا الاهتمام على السند دون المتن وعلم الحديث شاهد على ذلك . فإن كل فروعه تقريباً تدور على السند ، وأبرزها علوم الرجال من جرح أو تعديل وثقات وضعفاء . والأسماء والكنى . ثم علم أصول الرواية الذى يطلق عليه مصطلح الحديث . وهو يبحث عن حقيقة الرواية وشروحها . وأنواعها وأحكامها وحال الرواة وشروطهم وأصناف الروايات ومايتعلق بها .

ولابد أن نشهد لهم وهم أجيال تلو أجيال أنهم أوفوا على الغاية وحاولوا أن يسدوا كل المنافذ ويلموا بكل الطوارىء ، ولهم فى هذا أفانين واصطلاحات وضوابط وحدود يضيق عنها المجال . ولكنها كلها فى مجال السند والرجال ، وليس المتن والمعنى . وأبسط ما يمكن أن يقدم هنا كمثال هو ما اشترطوه فى الحديث الصحيح الذى تبنى عليه الأحكام :

١ - إتصال الاسناد ، وبهذا يخرج المنقطع والمفصل والمدلس .

٢ - أن يكون رواته عدولاً ، والعدل من استقام دينه وحسن خلقه وسلم من الفسق وخوارم المروءة .

٣ - أن يكون رواته ضابطين .

٤ - أن لايكون المروى شاذاً ، والشذوذ هو مخالفة الثقة مع من هو أرجح منه .

٥ - أن يسلم المروى من علة قادحة كإرسال موصول أو وصل منقطع أو رفع موقوف .

والخلاصة :

أن الحديث الصحيح يجب أن تتحقق فيه هذه الشروط الخمسة :

١ - عدالة رواته من أول السند إلى منتهاه .

٢ - تمام ضبطهم من أول السند إلى منتهاه .

٣ - إتصال السند .

٤ - سلامته عن الشذوذ .

٥ - سلامته من العلة(١) .

وكأن علماء الحديث وقد أستغرقوا الجهد فى التثبت من صحة السند والرواية بمختلف الضمانات ، لم يجدوا حاجة حتى لإلقاء نظرة على المتن وفاتتهم عشرات الاسباب يمكن أن تطرأ على الحديث ، مع وجود ضماناتهم تلك ، وتكون مبرراً لعدم الأخذ به .

وكانت نتيجة هذا التركيز على السند إهمال المتن ، فلم يروا أن مجافاة المتن للعقل أو الطبع السليم ، أو حتى ما ينبغى للقرآن الكريم ولرسوله من قداسة ، مبرراً لنبذه ، وهكذا أقروا أن النبى ﷺ قد سحر سحره يهودى ، وأن الرسول

(١) المختصر فى علوم الحديث . عبد المنعم المبارك حسن ص ٢٢ دار الفكر - الخرطوم .

قال بعد تلاوته «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» . «تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى» .

ومعالجتهم للروايات التى نقلت هذا الزعم الأثيم توضح هيمنة الإسناد . فمع أن الروايات التي رويت كلها ضعيفة أو منقطعة ، سوى رواية لسعيد بن جبير ، فقد قال الحافظ بن حجر « .. ولكن كثرة الروايات تدل على أن للقصة أصلاً ، على أنها لها طريقين صحيحين أخرجهما ابن جرير . أحدهما عن طريق الزهرى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام . والآخر عن طريق هند عن أبى العالية ، ولاعبرة بما يقول ابن العربى . وعياض إن هذه الروايات لا أصل لها» .

ولاشىء كهذا يمثل استعباد السند للمحدثين ، فلا نكر قطعاً للمتن ، ومدى إتفاقه ، أو إختلافه للمبادىء أو للمعقولية التى يفترض أن تكون هى المعيار فى الحكم .

وبالاضافة إلى إستخذاء المحدثين أمام السند ، وعدم محاولاتهم إعمال العقل فى متن الحديث ، فإنهم قدموا ألوف الأحاديث التى تغطى ليس فحسب كل المجالات ، بل كل التصرفات الشخصية والحركات والسكنات التى يمكن لأى فرد أن يقوم بها .

وتلقف الفقهاء هذه الأحاديث وصنفوها فى خانات تصنيفاتهم ، التى لم تدع عملاً دون أن تودعه إحداها ، مابين حلال أو حرام مباح أو مندوب أو مكروه ، وأصبح هذا كله جزءاً من الشريعة التى تتبع . وبذلك فرضوا على المسلم التقليد والإتباع فى أى عمل حتى وإن كان خارجاً تماماً عن إطار العبادة او الشريعة ، وأصبحت عقلية المسلم المعاصر عقلية «نقلية» وحيل بينه وبين ان يفكر أو يختار أو يقوم بمبادأة وأصبح «التقليد» «والإتباع» سياسة عامة وموقفاً مقرراً ، وتعطلت بقدر ذلك ملكة التفكير .. وعلاها الصدأ . بحيث أصبح المسلم نوعاً من الروبوت يسير تبعاً لروموت كونترول هو «السند» ، وهذه فى الحقيقة هى مأساة

العقل الإسلامى الذى غلبه النقل والتقليد ، رغم أن توجيهات القرآن الكريم صريحة تماماً فى مناقضتها لهذا المسلك ، ومقاومتها لجعل الأحبار والرهبان آلهة يحللون ويحرمون ، وتنديده بالذين يسيرون تبعاً لما سار عليه الآباء والأجداد . وبالمخالفة الصريحة أيضاً لتوجيه الرسول الذى كان يؤثر للناس العافية . وان يكونوا فى حل وأن لايسألوا ، بل وأمره الصريح «ذرونى ماتركتكم» فإن المحدثين لم يتركوا شارده او وارده حركة أو سكنه للرسول إلا سجلوها وأوردها على سبيل الاسترشاد أو الالزام ، وفاتتهم حكمة الرسول ﷺ فى توجيهه .. ان من الخير أن يُعمل الناس عقولهم وأفكارهم . فإن صادفوا الصواب فهو المطلوب ونالوا حسنتين وإن أخطأوا نالوا حسنة إعمال الفكر ، دون حسنة التوفيق إلى الصواب .. أما التقليد فى كل شىء حتى لو كان للرسول فإنه يخالف ماأراده الرسول للناس عندما قال «ذرونى ماتركتكم» وما أراده الله عندما استحث المسلمين على الفكر وإعمال العقل وحذرهم من الرهبان والكهان .. والآباء والأجداد .

★ ★ ★

وغنى عن الذكر ان الملاذ الثانى الذى لاذ به الفكر الاسلامى بعد فشل تجربته مع الفلسفة اليونانية . وهو التصوف . لم يكن ليضيف شيئاً إلى العقل . وعلى نقيض هذا . فإن التصوف الذى تنعدم فيه الضوابط يشطح ويبعد ويتوغل فى متاهات عاطفية وقد صدر عنه معظم خرافات الأولياء وأحاديث قدراتهم الخارقة من السير على الماء أو الطير فى الهواء أو طى المسافات .. الخ . ومواعظ القصاص فى المساجد والزوايا ، وإقامة الأضرحة للمشايخ والأولياء وشيوخ الطرق . وتكوين هيئات منظمة لكنها تقوم على الطاعة العمياء للشيخ . وتقديسه وان يكون المريد منه كالميت بين يدى المغسل .. فكانت جناية التصوف مضاعفة لأنه استعان بالطرق التربوية والتنظيمية . ولكن لتحقيق غايات تقوم كلها على غرس الطاعة العمياء ، وتعميق التقليد وسلب الإرادة وطمس الشخصية واستبعاد التفكير .

★ ★ ★

أخذت الموازنة مابين المتن والسند صورة أعم فى الموازنة مابين التقليد والإجتهاد ، وغلبة التقليد وسيادته طوال عشرة قرون مستمرة . وقد أغلق باب الإجتهاد أساساً ، لأن فتح بابه دون وجود وسائل تنظيمية أدى إلى الفوضى والتضارب . وعندما يتعلق الأمر بأحكام تطبق على المصالح وشئون الحياة ، فإن هذا مما لايمكن أن يحتمل . وكان المفروض أن توجد أداة أو وسيلة تنظيمية كمجلس أعلى ، أو محكمة .. الخ . ولكن مثل هذه الأجهزة لم تكن مألوفة فى المجتمع العربى الإسلامى ، فلما لم يوجد التنظيم لم يعد مناص من اغلاق باب الإجتهاد والإقتصار على المذاهب التى أثبتت سلامتها على مر السنين . كما كان هناك أسباب أخرى تقوم على مصالح مكتسبة أدت إلى غلبة مذهب مالك على الأندلس والشمال الأفريقي ، ومذهب أبى حنيفة على العراق بفضل نفوذ «أبى يوسف» وفيما بعد الدولة العثمانية .. الخ .

ما يهمنا هو أن الأمر استقر على التقليد ، والتقليد هو كما قالوا «قبول قول الغير من دون مطالبة بحجة» فحاصل التقليد أن المقلد لايسئل عن كتاب الله ، ولا عن سنة رسولهِ . بل يسئل عن مذهب إمامه فقط . ووصل الإيمان بالتقليد أن المذهب الذى حرم التقليد ، وتميز بفتح باب الإجتهاد ، وهو المذهب الزيدى أستسلم المعتنقون له (أو بعض دعاته) لدعوى التقليد . قال الشوكانى فى رسالته «القول المفيد فى أدلة الإجتهاد والتقليد» «ومانكرنا فيما سبق من أنه كان فى الزيدية والهادوية فى الديار اليمنية إنصاف فى هذه المسألة بفتح باب الإجتهاد ، فذلك إنما هو فى الأزمنة السابقة . كما قررناه فيما سبق ، وأما فى هذه الأزمنة فقد أدركنا منهم من هو أشد تعصباً من غيرهم ، فإنهم إذا سمعوا برجل يدعى الإجتهاد ويأخذ دينه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قاموا عليه قياماً تبكى عليه عيون الإسلام ، واستحلو منه مالا يستحلونه من أهل الذمة من الطعن واللعن والتفسيق والتنكير والهجم عليه إلى دياره ورجمه

بالأحجار الخ» . فإذا كان هذا يحدث بالنسبة لأتباع المذهب الذى يقرر الإجتهاد ، فما بالك ببقية المذاهب التى أنس شيوخها إلى التقليد وسلموا به تسليماً ..

وكانت نتيجة إغلاق باب الإجتهاد هى إغلاق باب العقل والأخذ بأقوال الشيوخ ، ونبذ كتاب الله وسنة رسوله ، وإيثار الآباء والأجداد عليها ، فكيف يمكن أن ينهض المسلمون ، وقد نبذوا سر قوتهم ورمز هدايتهم . القرآن .. وآثروا عليه أقوال الكهنة والمتكسبين بالدين او تقليد آبائهم واجدادهم .

★ ★ ★

ومن الانصاف الاشارة إلى أحد الأسباب التى أدت إلى هذه الظاهرة ولايقتصر على الاسلام وحده ، ولكنه يوجد فى كل الأديان ان الاديان لما كانت موغلة فى القدم . ولما كانت قد ظهرت قبل أن يبلغ العقل البشرى نضجه ، وتعرضت لصور عديدة وعميقة من سوء الفهم والاستغلال فقد علقت بها رواسب قوية وكادت أن تصبح جزءاً لا يتجزأ منها . ومع أن الأديان السماوية مانزلت إلا لتخلص الناس من هذه الإنحرافات والتشويهات ، إلا أن هذه الرواسب فى كثير من الحالات كانت أغلب، أوعلى أقل تقدير ، احتفظت بقدر كبير من الوجود داخل الدين السماوى . وهذا ظاهر فى اليهودية والمسيحية والإسلام ، وقد نراه فى «الكاثوليكية» اكثر منه فى «البروتستانتية» ولكنه على كل حال موجود، والذى قلل من أثره السيء بالنسبة للمسيحية أن المجتمع الأوربى لم يأخذ المسيحية مأخذاً جاداً ، ولم يعض عليها بالنواجز ، ولهذا ضعف أثر المسيحية :الأثر الأصيل أو الأثر المشوه . أما بالنسبة للإسلام ، فإن المسلمين يرون فى إسلامهم المقوم الأول لهم ولايفرطون فيه . ومن أجل هذا ظهرت آثار الإسلام الحق ، وآثار ما علق به من غشاوات على المسلمين فى شكل قوى . وعندما قال القرآن «ان الدين عند الله الإسلام» فكأنه أراد أن يجعل من الإسلام نموذجاً فريداً يتحرر مما يعلق عادة بالدين وان يوجد نمطا جديداً من الدين هو الاسلام . ولكن المسلمين عكسوا الآية فجعلوا الاسلام هو الدين ،

ودخل إلى الإسلام من هذا المدخل الرواسب العديدة للخرافة التى اصطحبت بالدين طوال العصور القديمة ، وقبل ان يحرره الاسلام .

وقد رأينا كيف أن الاسلام ، أكثر من أى دين آخر حارب الوثنية وحارب التقليد ، وحارب الخرافة والخوارق . وجاء برسالة العلم والعدل ، ومع هذا تغلبت شرعة الآباء والأجداد ، وحذا المسلمون حذو غيرهم وتطلب الأمر أن يوجد على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة دينها بنسب متفاوتة من النجاح تبعاً للملابسات والظروف .

مناطق الإختصاص :

ليس معنى كل ماقدمنا أن العقل وحده هو الأداة الحاكمة فى مجال الدين ، فالدين يتميز بان واسطة العقد فيه ، وهى الألوهية ، تأتى عن طريق الوحى عن الله ، وهو - اى الوحى - قضية .. لايستطيع العقل أن يثبتها بوسائله الخاصة كما لايستطيع أن ينفيها أولا : لأن وجود الله هو بديهية عقلية ، إذ هو القصد والغائية والحكمة . وهى مكونات العقل . فليس مستغرباً إذن أن يوحى الله تعالى إلى بعض البشر فليس فى هذا الوحى مايمس اتفاق صفات الله تعالى مع العقل ، بل إن ذلك هو مايجعل الصلة بين الله والناس تؤدى عن طريق الوحى ، لأن الإتصال المباشر قد يوحى برؤيته تعالى ، وقد استبعد القرآن هذا وقال «لاتدركه الأبصار» وثانيا : لأن بعض صفات الله تعالى وما يتعلق بذاته لايمكن للعقل أن يصل إليها ، ولابد أن يكشف الله تعالى بعض مايشاء منها . وهذا أيضاً أمر لايخالف العقل ، بل إنه يتفق معه . فكل محاولات الفلاسفة للوصول إلى ذات الله تعالى كانت خطوطاً عريضة لم تستطع أن تتعداها ، كما لم تستطع أن تصل إلى هذا العالم الغامض ، المجهول ، المستتر ، عالم مابعد الموت ، فجاء الوحى ليكمل هذا للعقل .

وعجز العقل عن الوصول إلى ذلك لايعنى ان يستسلم لمعطيات تناقض أصوله ، لأن الاتفاق على العقل ، أو على الأقل عدم مخالفته ، هو أصل لايمكن

التنازل عنه . ومن ثم فيفترض أن لايكون فيما يأتي به الوحى مايصادم العقل وقد عرضنا فيما سبق لموقف الإسلام فى هذه القضية وأن إفتراض مخالفة الوحى للعقل هو بالنسبة للاسلام فرض جدلى ، لأن ماجاء به الوحى الإسلامى يتفق مع أصول العقل ، وليس أدل على ذلك من أن تكييفه للألوهية يوافق تكييف ديكارت وبقية العلماء والمفكرين والأوربيين الذين حاولوا أن يتوصلوا إلى بعض صفات الله تعالى .

ولايجوز للعقل أن ينكر قضية لأنه لايوجد دليل «عقلانى» جازم يثبتها به . إذ حسبه أنها لاتتناقض معه . وقضايا وجود الله ، والبعث والحساب والعقاب الخ[1] .. لاتتناقض مع أصول العقل . بل إنها تتفق مع أفضلية مبدأ الوجود على العدم .. والعدل على الظلم .. ولكنها وبوجه خاص «البعث بعد الموت» والثواب والعقاب فى جنة أو نار – تبدو شديدة الغرابة ، ومخالفة «للحسية» التى تسيطر على بعض العقلانيين . ولكن الغرابة والإبتعاد عن المحسوس لايمكن أن يكون دليل بطلان . فلوتنبأ أحد منذ مائتى سنة أنه سيمكن صنع مركبات تحمل مئات الناس وتطير بهم فوق السحاب بسرعة ٨٠٠ كم فى الساعة ، أو أنه سيمكن صنع صندوق من معادن واسلاك وزجاج بنقل الأخبار من أقصى الأرض إلى أقصاها لحظة وقوعها .. أو أنه سيمكن للناس التحدث بعضهم لبعض من أقصى الشمال لأقصى الجنوب .. لقيل إنه مجنون فإن شيئاً من هذا كان يبدو مستحيلاً ، ومخالفاً كل المخالفة لما ألف الناس وما تصوروا أنه «عقلانى» وقتئذ . وأقصى مايمكن للعقلانية أن تدعيه بالنسبة لهذه القضايا هو «اللا أدرية» وأفضل منها أن ترى أن الدين يكشف لها جوانب تعجز عن الالمام بها بوسائلها الخاصة . وبهذا يشترك معها فى كشف أبعاد الحقيقة .

وكما لايجوز للعقلانية الافتيات على الدين أو رفض الوحى لمجرد أنها تعجز عن التدليل عليه بوسائلها الخاصة ، فكذلك لايجوز للدين أن يفتات على العقل بأن يفرض وقائع تتناقض مع أصول العقل والعلم ، وقد كان تضمن العهد القديم لوقائع محددة عن خلق الأرض ، وعن خلق آدم وأبنائه تتناقض مع المعطيات المؤكدة للعلم الحديث ، هو اكبر أسباب الصراع بين العقلانية

---

(١) سيكون هذا موضوع فصول الباب الثالث من الكتاب .

والمسيحية . فإذا تضمنت الكتب السماوية شيئا أقل صراحة عن هذا فى مخالفته لمقتضيات العقل فيجب تأويله .

وهذا لايستتبع امتناع الدين عن أن يتناول بطريقته الخاصة مشاهد الطبيعة وظواهرها من رياح وأمطار وشموس وأقمار .. الخ .. أو المجتمع البشرى أو النفس الإنسانية مادام لايخالف ذلك الأساسيات العقلية ، لأن من الممكن أنه يكشف عن أبعاد لايصل إليها العلم . ويمكن أن يعد هذا تعزيزاً من الدين لمنزلة العلم وليس افتياتاً عليه ، ويكون مستحقا للشكر من العقلانية . وخير ما يمثل هذا هو إشارات القرآن إلى كثير من ظواهر الطبيعة والنفس الانسانية ، ومايعرض للمجتمع الإنسانى من عوامل القوة والضعف .. فإنها فتحت لكثير من العلماء آفاقا جديدة بالمرة .

حقاً ان القرآن تضمن إشارات إلى خلق الأرض فى ستة أيام ، ولكن القرآن يذكر أن أيام الله تختلف عن أيام الناس ، وان منها مايقدر بألف عام ومنها مايقدر بخمسين ألف عام . وذكر أعداداً أخرى ، ثم ذكر أن هذه الأعداد ليست إلا فتنة للذين كفروا ، وتحدث عن «العرش» ، و «الكرسى» ، وهذه كلها ليست إلا رموزاً لتقريب معنى معين أراد القرآن ان يقربه للناس بما يألفون . والنظم القرآنى نظم فنى يختلف عن «السرد» الذى يتسم به إسلوب «التوراة» ، ولايدع للإنسان سبيلاً للتأويل ، على حين أن النظم الفنى للقرآن يسمح بالتأويل ، بل يوجبه إيجابا فيما يتعلق بصفات الله تعالى . لأن الله تعالى – كما قرر القرآن – ليس كمثله شيء ، وهذا يستتبع أن تكون إشارات القرآن إلى اليد والوجه ، والإستواء بالنسبة لله غيرها بالنسبة للناس ، وهذا لايعنى سوى التأويل ونحن لانقبل أن يحملنا الورع أو الخوف على تجاهل الحقيقة والأحجام عنها .

وعلى كل حال فيمكن القول ان لكل من الدين والعلم مجال إختصاصه الذى يفترض ان لايتعداه ، إلا على سبيل الاستثناء ، أو الاستئناس .

فكل ما يتعلق بالله تعالى ، وعالم ماوراء الموت ، فهو مجال إختصاص

الدين ولايجوز للعلم أن ينكره ، لأن العلم مهما بلغ من تقدم فإنه يعجز عن أن يحيط بأطراف الكون وماوراء عالم المشاهدة .

وكل مايتعلق بالعلوم الرياضية والحسابية والهندسة والطبيعة فهو مجال العقل يصول ويجول فيه ويقدم لنا هذه الصور الرائعة عن التقدم المادى .

وهذا التخصص الأصولى فى الموضوعات يرتكز على تخصص أصولى آخر فى الملكات ذلك أن منبع الفكر الدينى يمكن أن ينبع من العقل والقلب معاً فى حين أن منبع الفكر العلمى المجرد هو العقل أصلاً ولكل واحد منهما طبيعته الخاصة التى تجعله أقرب إلى مجاله بحيث يمكن له أن يعالجه بوسائله وينتهى فيه إلى النتائج . وهذه النقطة سنشير إليها فى الفصل القادم بنوع من التفصيل ..

يبقى بعد هذا أمران :

الأول : أن الإسلام يلحق العلوم الإنسانية بنطاق إختصاصه ، فالإقتصاد والإجتماع والسياسة هى مجالات يمكن أن تعالج على أسس علمية ، ولكن بأهداف «دينية» فالمعالجة العلمية محايدة ، وهذه الصفة تسمح بإستغلال المعالجة والنتائج لغير مصلحة الناس ، أو بغير ماتتطلبه المثل والقيم ، ومن ثم يتعين أن تستهدف المعالجة العلمية العقلية للموضوعات الإقتصادية أو السياسية أو الإجتماعية الأهداف الإسلامية . أى العدالة ، والخير ، والصلاحية .. الخ. مما تتميز به العقلانية الإسلامية ، على العقلانية المجردة ، وماسنشير إليه فى الباب الثانى من ابواب هذا الكتاب .

الثانى : أن هناك مجالاً عريضاً بجانب العلم والدين هو الفنون والآداب . وهذا المجال أقرب إلى الدين منه إلى العلم ، لأن قاعدته هى القلب الذى يمثل نبعاً مشتركاً للأديان وللفنون والآداب ... ولكن له طبيعته الخاصة ، فهو دين بلا وحى ، ومن ثم يهيم فى أودية الخيال ويُفترض أن يُسمح له بهذا وان لاتوضع الكوابح .. بقدر ما يمكن – عليه ، لأن ضبطه بالكوابح يفقده طبيعته الخاصة دون أن يعطيه طبيعة الدين . وكما لاينبغى للدين أن يكون فنا ، فكذلك لايفترض فى الفن ان يكون دينا .

الفصل الثالث

أثر القلب على العقل

مما يلفت إنتباه كل واحد يقرأ القرآن ، أنه يستخدم كلمة «القلب» كأداة للفكر والفقه فهو لايحصر ملكة الفكر فى العقل ، ولكنه يُشرك به القلب ، ولايورد هذه الظاهرة مرة واحدة ، ولكن مرات عديدة :

- ﴿لهم **قلوب لايفقهون** بها ، ولهم أعين لايبصرون بها﴾ . (١٧٩ الأعراف)

- ﴿أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم **قلوب يعقلون بها**﴾ . (٤٦ الحج)

- ﴿فإنها لاتعمى الأبصار ، ولكن **تعمى القلوب التى** فى الصدور﴾ . (٤٦ الحج)

- ﴿أفلا يتدبرون القرآن .. أم على **قلوب أقفالها**﴾ . (٢٤ محمد)

- ﴿وطبع على **قلوبهم فهم لايفقهون**﴾ . (٨٧ التوبة)

- ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع الله على **قلوبهم فهم لايعلمون**﴾ . (٩٣ التوبة)

- ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة **أن يفقهوه وفى** آذانهم وقرا﴾ . (٤٦ الإسراء)

ففى هذه الآيات كلها جعل « **الفقه** » و « **العلم** » من خصائص القلب .. وجعلت القلوب التى لاتفقه كالعيون التى لا تبصر .

كما يصف القرآن القلوب بأنها أوعية الإيمان والتقوى والسكينة .. والزيغ والشك والمرض .

- ﴿هو الذى أنزل السكينة **فى قلوب** المؤمنين ليزدادوا ايماناً﴾ . (٤ الفتح)

- ﴿وجعلنا **فى قلوب** الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾ . (٢٧ الحديد)

- **﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان .. وزينه فى قلوبكم﴾** . (٧ الحجرات)

- ﴿ ... ولكن قولوا أسلمنا . ولما يدخل **الإيمان فى قلوبهم**﴾ . (١٤ الحجرات)

- ﴿وقالوا **قلوبنا فى أكنه** مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقرأ﴾ . (٥ فصلت)

- ﴿قالوا سمعنا وعصينا . **وأشربوا فى قلوبهم** العجل بكفرهم﴾ . (٩٣ البقرة)

- ﴿فأما الذين **فى قلوبهم زيغ** فيتبعون ماتشابه منه﴾ (٧ آل عمران)

- ﴿إذ يقول المنافقون **والذين فى قلوبهم مرض** .. غر هؤلاء دينهم﴾ . (٤٩ الأنفال)

- ﴿وارتابت قلوبهم . فهم فى ريبهم يترددون﴾ (٤٥ التوبة)

- ﴿وأما الذين **فى قلوبهم مرض** فزادتهم رجساً على رجسهم﴾ . (١٢٥ التوبة)

- **﴿ليجعل مايلقى الشيطان فتنه للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم﴾** (٥٣ الحج)

- ﴿**أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان** ، وأيدهم بروح منه﴾ (٢٢ المجادلة)

- ﴿كلا بل **ران على قلوبهم** ماكانوا يكسبون﴾ (١٤ المطففين)

وهذه الإشارات العديدة لوظائف القلوب فى الفقه والعلم والإيمان والكفر ، تثير التساؤل عن مدى خلوص عقلانية الإسلام من المؤثرات التى تنال من نقائها

وموضوعيتها ، إذ هى تثبت أن للقلوب نصيباً فى عملية الفهم ، والفقه .. التى عادة ما تنسب إلى العقل وحده ؛

لقد خلص بعض المفسرين من هذا التساؤل بالقول إن مقصود القرآن من كلمة «القلب» هو العقل ، وبهذا لايكون هناك إشكال ، ولكننا لانسيغ هذا ، فلو أن القرآن يريد العقل لما كان هناك مبرر للتعبير عنه بالقلب(١) . والقرآن الكريم لايستخدم الكلمات إعتباطاً . بل إن المترادفات فيه يكون لكل منها معنى خاص ، فما بالك إذا كان مفهوم كلمة ما يختلف صراحة عن مفهوم كلمة أخرى ؟ إن الخلط بينهما لايجوز .

فى نظرنا أن القرآن أراد أن يفصل فى قضية تفاوتت فيها الآراء ، تلك هى **الإختلاف مابين العاطفة التى جرى العرف أنها تستقر فى القلب ، وبين العقل الذى يتصل بالمخ ، والصراع بين «العاطفيين» و «العقليين» ومايذهب إليه كل** منهما من سبق معتقده . «وقد ذهب بعض الكتاب إلى أن العاطفة هى أساس الحضارة» . فأراد القرآن أن يوضح أن لكل من العاطفة والعقل مجاله وأنهما فى الاسلام يتكاملان لايتناقضان ، فالعقل يتجاوب مع الصواب والخطأ الذى تبنى عليه العلوم ، والعاطفة تتجاوب مع منطق الخير والشر ، الجمال والقبح ، الرحمة والقسوة .. الخ وأن العاطفة (القلوب) عندما يتولاها الدين بالتوجيه والضوابط فلا يكون هناك بأس أو خطر من تفاعلها مع طبيعتها ، لأن الدين الذى تتفاعل معه العاطفة ، بحكم تنزيله من الله يتعالى على أهواء العاطفة ، وما يمكن أن تنتهى إليه ما لم يوجد ما يكبح جماحها ويستخدم زخمها وتفاعلاتها فى سبيل الخير والجمال ، وليس الشر والقبح وبهذا تتلاقى مع العقل ، حتى وإن جاءت من منطلقها الخاص . وقدمت إضافتها المتميزة . ويمكن بالتالى القول إن القلوب «تفقه» «وتعقل» حتى وإن كان فقهها لايستخدم أداة العقل ، ولكن حس القلب - ويمكن القول ان الانسان يستشعر ويتجاوب بحكم وجدانه أولاً

(١) على أنه قد يكون لهذا التفسير - الذى ذهب إليه ابن عباس - بعض الوجاهة اذا أريد به الفص الأمامى من المخ الذى يضم التفكير والادراك والاحساس والعاطفة معاً .

ثم يأتي دور العقل لكي يمحص هذه المشاعر ، فيُقر بعضها ، ويرفض البعض الآخر ويقف عاجزا امام قسم ثالث . وفي كثير من الحالات يكون الوجدان اهدى سبيلاً وارهف حساً من العقل ، خاصة اذا خضع هذا العقل لمران وتعسف اتجاهات فكرية معينة . ومع ان القلب – عضويا – ليس الا مضخة للدم . فإنه اكثر من اى عضواً آخر يرتبط بالدم . وقد يكون في الدم من أسرار التأثير على الانسان . وتصرفاته وسلوكه – مالم يكتشفه العلم بعد .

والانسان أشبه بقارب – القلب منه هو الشراع ما ان يمتلأ بالعواطف والأحاسيس حتى ينتفخ ويندفع القارب على صفحة الماء بقوة وسرعة أو بهدوء واتزان طبقا لدرجة انفعال القلب بالعواطف ، ، العقل هو «الدفة» في هذا القارب التي تحول دون ان يتجه نحو الصخور ويتحطم عليها أو يتيه وسط خضم الماء دون ان يهتدى الى شاطىء النجاة .

وقد يستغرب بعض العقلانيين أن يكون للقلب دخلاً في عملية الفهم والعلم . وان كان آخرون قد استشعروها دون أن يفهموا سرها أو يحلوا مغاليقها . ولعل خير من يحدثنا عن هذا هو أحد أعلام الطبيعة الحديثة ، وصاحب نظرية «الكوانتم» العالم الألماني «ماكس بلانك» في كتابه «الى أين يذهب العلم» الذى عالج فيه مبدأ «السببية» العريق بعد نظرية «الكوانتم» وكان البعض قد ذهب إلى أن هذه النظرية عطلت مضى «السببية» ودارت فكرة ماكس بلانك حول ضرورة فهم مضمون «السببية» كما فرق بين نشاط نفسي .. ونشاط علمي . وأن الحقائق التى تسود عالم العلم ليست إلا جانباً من جوانب المجال الكبير الذى يغطيه الفكر الإنساني . ولاحظ أن الخيال الإنساني ، وإن كان يبدأ من حقيقة ، إلا أنه كثيراً ما يجاوزها . وأن هذه الحقيقة هي الأصل في الفنون والموسيقى ، وقال إن العلوم نفسها تحتاج إلى دفعة من الخيال ، وإن هذا شرط لازم لإقامة الفروض والتنسيق بينها . وإن المخيلة تضع فرضاً ثم يأتي دور التجريب لإختبارها . وقد يثير هذا الاختبار رؤية أخرى ، أو ينتهى إلى فرض معين .

ومرة أخرى قال إن الخطوة الأولى التى يأخذها كل فرع متخصص من العلوم تتكون من قفزة إلى عالم الميتافيزيك[١] . «ماوراء الطبيعة» .

وفى القيام بهذه القفزة ، فإن الباحث يكون واثقاً فى الأساس الذى يقوم عليه الفرض الذى انتهى إليه . إن أى تفكير عقلانى مجرد ماكان يمكن أن يهديه لذلك . خاصة وإن الإكتشافات الكبرى اتصفت بالتجرد التام من أى غرض نفعى ، أو هدف تطبيقى . وبعبارة أخرى فإن المبادىء الأساسية والفروض التى لاغناء عنها فى كل فرع من الفروع المثمرة للعلم لم توضع على أساس منطق خالص ولكن على افتراض ميتافيزيقى لايمكن لأى منطق أن يفنده . هو أنه يوجد عالم خارجى مستقل عنه تماماً[٢] وعبر وعينا فحسب نعرف إن هذا العالم موجود . وهذا الوعى يمكن أن يسمى . إلى حد ما «حاسة خاصة» . ويمكن للمرء أن يذهب حتى إلى درجة القول إن وجود العالم الخارجى يطرق وعى كل واحد بطريقة خاصة . وأن علينا أن نضع هذا فى الحسبان عندما نتعامل علمياً مع أى ظاهرة طبيعية . إن الصفة الأولى والأكثر أهمية لكل طرق التفكير العلمية هى التمييز بين الهدف الخارجى للملاحظة ، والطبيعة الداخلية للملاحظ .

ومن النقط التى يعرضها بلانك – ويعود إليها فى أكثر من موضع من كتابه هو ان الروح التى تدفع رجل العلم الحقيقى للبحث روح التجرد .. والتفانى والاستشفاف والشوق .. وهو بالطبع يفرق هنا مابين كبار المكتشفين وبين رجال الأبحاث فى المصانع والشركات الذين يقومون بأبحاث نفعية تطبيقية

---

(1) I have said that the first step which every specialized branch of science takes consists of a jump into the region of metaphysics. Where Is Science Going by Max Planck p 138

(2) In other words, the fundamental principles and indispensable postulates of every genuinely productive science are not based on pure logic but rather on the metaphysical hypothesis-which no rules of logic can refute-that there exists an outer world which is entirely independent of ourselves . Ibid p. 138 .

بحتة تخضع لمصالح الشركات– فالأولون يبحثون بروح البحث.. وفي أعماقهم احساس بالمطلق الذى يكافحون لا للوصول إليه – ولكن للاقتراب منه .

وكان من النتائج التى أشار إليها فى ثلاثة أو أربعة سطور قاطعة ، أن نظرية النسبية لاتهدم فكرة المطلق ، بل على العكس إنها تثبتها ، لأنه لايمكن أن تكون هناك نسبية إلا قياسا على المطلق[1] . كما أنه من ناحية أخرى أثبت إستحالة الوصول إلى المطلق ، لأنه مثال نضعه أمامنا دائماً ، وبالتالى لايمكن الوصول إليه ، ولكن هذا ليس مخيباً – لأنه كما قال ليسنج «ليس الحصول على الحق ، ولكن الكفاح للوصول إليه هو ما يضرم الفرح فى قلب الباحث» .

ونقد بلانك النظرية الوضعية التى لاترى مصدر المعرفة سوى الإدراك الحسى فقال إن هناك حقيقتين تدور عليهما كل علوم الرياضة . الأولى أن هناك عالماً حقيقياً خارجياً . مستقلاً عن مداركنا . والثانية أن هذا العالم غير معلوم مباشرة ، أو تماماً . وهاتان الحقيقتان تسمحان بدخول عنصر غير عقلانى ، أو صوفى يلتصق بعلم الطبيعة ، كما يلتصق بأى فرع آخر من فروع المعرفة البشرية . ان الحقائق المعروفة للطبيعة لايمكن أن تستكشف عن طريق أى فرع من فروع العلوم . وهذا يعنى أن العلم لن يكون فى وضع يستطيع معه أن يحل تماماً المشكلات أمامه ، وأن حل أى مشكلة إنما يعرض مشكلة أخرى .

وعند حديثه عن الحرية الفردية وعلاقتها بقانون السببية (الذى يعد رمزاً للعقل والعلم) رأى أن هناك نقطة تقف عندها السببية ولاتستطيع تجاوزها تلك هى الذات أو الأنا ego ، وهى مصدر آلامنا وآمالنا ، وهو يقول إنه من ناحية المبدأ فقد لايكون هناك مايمنع من أن نستكشف العلاقات السببية لتصرفاتنا وسلوكنا ، ولكنه لايحدث عمليا ، لأن الملاحظ ، وموضوع الملاحظة واحد ، وهذا مستحيل فالعين لاترى نفسها .

وقد يظن البعض أن هذا العجز يعود إلى نقص مداركنا ، ولكنه خطأ ،

---

1 - Ibid- p 195

وهو يشبه أن ننسب عجز رجل يجرى للحاق بظله إلى نقص قدرته فى العدو . وحقيقة أن التصرفات الحية والآنية لايمكن أن تخضع لقانون السببية تعود إلى أساس منطقى سليم تماماً ، مثل مبدأ أن الجزء لايمكن أن يكون أكبر من الكل . وحرية الذات بين حين وآخر واستقلالها عن قانون السببية هى حقيقة يمليها علينا الوعى الإنسانى .

ويستبعد بلانك فى أكثر من موضع من كتابه تماماً التعارض مابين العلم والدين ، لأن أحدهما يكمل الآخر ، فالعلم يضعنا على أبواب النفس - ليتلقفنا الدين ، وكل شخص جاد ومفكر يتبين أن العنصر الدينى فى طبيعته يجب الاعتراف به - وتهذيبه - إذ أريد لكل قوى النفس الإنسانية أن تعمل بتوازن وتناسق .. وليس من الصدفة إن كل المفكرين فى كل العصور كانوا مؤمنين .. حتى وإن لم يظهروا عاطفتهم الدينية .. وقد ظهرت أروع ثمار الفلسفة نتيجة تعاون الفهم مع الإرادة . أعنى بها القيم المعنوية .

وختم المؤلف كتابه بحوار أجراه مع بلانك وإينشتين وضعه تحت عنوان «حوار سقراطى» أشار فيه إلى الشك الذى يسود الناس فى العلم والدين ، فرد بلانك «لقد عجزت الكنيسة عن أن تقدم الملاذ الروحى ولهذا إتجه الناس إتجاهات أخرى» . فسأله -"هل تعتقد أن العلم يمكن أن يكون بديلاً عن الدين ؟ فقال : كلا ليس بالنسبة لعقل ثائر . إن العلم يتطلب روحاً مؤمنة . إن كل واحد يعمل بجدية فى مجال العلم . من أى فرع . يتبين أن على مدخل معبد العلم يعلو شعار «يجب أن يكون عندك إيمان» .. إنها صفة لايمكن للعالم أن يستغنى عنها .

إن الفرد الذى يتعامل مع مجموعة من النتائج حصل عليها من إحدى التجارب ، لابد أن يتوفر له رؤيا imaginative picture عن القانون الذى يتابعه ، وعليه إن يجسم ذلك فى إفتراض خيالى . إن الملكات العقلية وحدها لن تدفعه خطوة لأنه لايمكن أن يظهر أى نظام وسط فوضى التناحر ، مالم يكن هناك خاصية بناءة تقيم

النظام . بإبعاد عناصر الفوضى . وقد تتحطم الرؤية المتخيلة التى يراد اقامة المشروع عليها ويكون عليه أن يحاول مرة أخرى وهذه الرؤية المتخيلة ، والإيمان في الملاذ الأخير هى مما لايمكن الاستغناء عنه . إن العقلانى الخالص ليس له مكان هنا[1] .

ويضرب بلانك المثل على ماذهب إليه بحياه «كبلر» الذى عانى غصص الفاقة والظروف القاسية . وتوضح دراسة حياته أن العامل الذى أعطاه الصلابة والقوة ، وحال دون تسلل الوهن أو الضعف هو إيمانه ، فى وجود نظام مرسوم وراء الخلق وهذا الايمان أضاء حياته البائسة ، وجعله يضع أبحاثه فى إطار فسيح ، لا نهائى ، فإذا قارنت «كبلر» بتكوبراهى Tycho de Brahe الذى توفر له مالم يتوفر «لكبلر» ، وجدت أنه لم يرتفع عن مستوى الباحث ، لأنه لم يكن عنده إيمان فى وجود القوانين الخالدة وراء خلق الكون على حين أصبح «كبلر» خالق علم الفلك الحديث .

وسأله المؤلف : لقد كنت دائماً تقول إن تقدم العلم يتكون من إكتشاف سر جديد فى اللحظة التى يظن المرء فيها أنه قد حل سراً آخر .. وقد فتحت نظرية الكوانتم مشكلة أمام مبدأ «السببية» وتطلبت إعادة النظر فيه .

قال بلانك إن هذا صحيح . إن العلم لايستطيع أن يحل السر الكامل للطبيعة . وهذا يعود الى أننا في الملاذ الأخير جزء من الطبيعة . إن الفنون والآداب محاولتان للتفسير ، ونحن نجد أنفسنا دائماً فى مواجهة «اللاعقلانى» . وإلا لم يكن لدينا إيمان – وإذا لم يكن لدينا إيمان ، أو إذا استطعنا أن نحل كل مشكلة بإستخدام العقل البشرى . فما أثقل أعباء الحياة عندئذ إذ لن يكون لدينا فن ولاموسيقى . ولا دهشة ، ولن يكون لدينا أيضاً علم . ليس فحسب لأن العلم سيفقد جاذبيته العظمى أمام أتباعه – وأعنى بها ملاحقة المجهول – ولكن أيضاً

---

(1) This imaginative vision and faith in the ultimate success are indispensable . The pure rationolist has no place here . Ibid p. 215 .

لأن العلم سيفقد حجر الأساس فى بنائه . إلا وهو الإدراك المباشر للوعى بوجود الحقيقة الخارجية . وكما قال أينشتين فإنك لن تكون عالماً ما لم تعلم أن العالم الخارجى موجود حقيقة . وان المعرفة لاتكتسب بأى عملية من العمليات العقلية ، ولكنه استبصار مباشر – ولهذا فإن طبيعتها قريبة مما نسميه «إيمان . انها عقيدة ميتافيزيقية(٢)» .

وكلام بلانك قريب جداً مما ذهب إليه القرآن الكريم فهو يرى أن العقلانية الجافة لم تكن نقطة البداية للمستكشفين والعلماء ، ولاهى تملك الصفة النظامية التى تجعل البحث يدور حول محور ولا القوة التى تجعل الباحثين يتابعون بحثهم رغم أن مايصلون إليه من حلول ، يعرض لهم فى الوقت نفسه مشاكل جديدة . وان الروح الرسالية ، والروح الإيمانية لابد أن تتملك الباحث أولاً ، وأن هذه الروح لكى تكتسب قوة الدفع ، والقدرة للتغلب على الصعاب لابد أن ترتبط بالكون كله . بالعالم الخارجى الرحب الفسيح المستقل عنا . فإذا لم يكن العقل المجرد، العقل الرياضى يملك هذه القوة ، فإن القلب الذى جعله القرآن وعاءً للايمان واداة للاحساس والشعور يملك هذه القوة .

ومع أن بلانك لم يذكر القلب صراحة فإن كل كلامه يؤدى إليه ويصب فيه .

وقد يكون مما يستحق الإشارة ان علماء الطبيعة هم أقرب العلماء إلى الدين ، لأن رجل الدين ورجل الطبيعة ينظران إلى السماء : الأول عبر القرآن الذى وصف السموات والأرض والشمس والقمر والرياح والأمطار والسحب ، وكلها دليل على وجود الله . والثانى عبر التلسكوب الذى يريه هذه كلها رأى العين وينتهى به الى اليقين الذى انتهى اليه رجل الدين وكلام اينشتين فى هذا لايختلف عما يقوله رجل الدين وهو خير ما يدلل به على أثر القلب على العقل

---

(2) As Einstein has said, you could not be a scientist if you did not know that the external world existed in reality; but that knowledge is not gained by any process of reasoning. It is a direct perception and therefore in its nature akin to what we call Faith. It is a metaphysical belief. Ibid p 218 .

وقد كان في اواخر عمره يقول «ان الافتراضات التى امكن التوصل اليها بالطرق المنطقية الخالصة كانت فارغة من الحقيقة تماما» واستطرد «اؤكد ان الاحساس الدينى الكونى هو اقوى وأنبل محفزات البحث العلمى»(١) .

وقبل بلانك وأينشتين أوصى جينه تلميذه ايكرمان «ان نفكر بالقلب .

وهناك رؤية أخرى ليست هذه المرة ، من أحد علماء الطبيعة ولكنها للمفكر البريطانى C.E.Joad الذى رزق خلال الخمسينات جانباً من الشهرة ، وأصدر عدداً كبيراً من الكتب عن الفلسفة ، ووجهة نظره تلك نشرتها له المجلة العقلانية Rational Review عام ١٩٤٦ تحت عنوان «لم أعد بعد عقلانيا» On Being No Longer a Rationalist قدم لها بأنه لم يكن عقلانيا بالمعنى الحاد ، فإنه لم يؤمن أبداً بأن المادة هى الصورة الوحيدة للوجود ، ولم يكن حتميا determinist أى يؤمن أن حالة العالم ، أو أى جزء منه ، فى لحظة ما ، إنما هى نتيجة توزيع وتفاعل القوى التى سبقت هذه اللحظة ، أو طبيعياً naturelist – بمعنى ان يؤمن بان كل ماهو موجود إنما يعود إلى النظام الطبيعى الذى يمكن ان يكتشف بالعلم . وحصيلة هذا أنه لم يكن يؤمن أن العلم وبالتالى العقل هو الصورة الوحيدة للمعرفة ، أو أنه المعيار الوحيد لمعرفة الحق .

ومع هذا فإن «جود» يعترف بقدرة العقل الإنسانى لان يصل بإعمال الفكر إلى النتائج التى تتفق مع الواقع ، مع تحفظ هام ، هو أنه يرى أن العقل ليس حراً ، أو مجرداً ، فهو لدى الماديين وظيفة جاءت من المخ . وطبقاً لهم فأفكارنا انعكاسات مخنا . والمخ ليس إلا عضواً يتكون من ملايين الخلايا . فأفكارنا التى يفرزها المخ لايمكن أن نقول إنها خطأ أو صواب ، ولكن يمكن القول إنها سليمة كيميائياً بقدر ما تكون عمليات المخ سليمة . فإذا كانت النظرية المادية هى وليدة فكر المخ ، فلا يمكن القول إنها حقيقية .

---

(1) Even Einstein toward the end of his life, claimed that propositions arrived at by purely logical means were completely empty of reality . He went on to say, It is very difficult to explain this feeling to anyone who is entirely without it . I maintain that cosmic religious feeling is the strongest and noblest incitement to scientific research . Quoted in Dancing in the Light by Shieley Mac Laine p. 353 .

ورأى Joad أنه من الضرورى وجود عنصر له نشاط مستقل أو قوى . وظن أنه وجد ذلك فى « الوعى الإنسانى» الذى يجمع الحياة والمادة ، ويمكن أن يكون قد بدأ فى صورة غير واعية ، ثم استكمل الوعى عبر الحياة العضوية ، والخبرات ، التى مرت بها الأجيال . خاصة وأن الخصائص المكتسبة لا تفقد بالموت ، ولكنها تنتقل للأجيال التالية .

وهذا الوعى لا يقتصر على العقلانية ولكنه يضم أيضا الحق والطبيعة ، والجمال ، باختصار القيم . وعند هذه النقطه وجد جود نفسه مدفوعاً لأن يقول إن هذه القيم مالم تكن موحدة فإنها تفقد الكثير من وزنها وأثرها وفعاليتها .

ويدفع Joad بعنصر جديد إلى الحلبة وهو «الشر» ، وهو يرى متأثراً بما حاق بالبشرية من ويلات الحرب العالمية الثانية وسوءات النظم الشمولية . أن الشر أصيل فى النفس الإنسانية . وأن هذا هو ركيزة فكرة الخطيئة فى المسيحية ، وكل الذين نبذوه أو عاملوه كعامل طارىء أو سطحى وقعوا ضحية المناخ العقلانى للتفاؤل الساذج ، وفكرة أن العالم سيدخل العهد الذهبى تحت لواء الشيوعية أو المحللين النفسيين ، وهو أمر يتناقض مع الوقائع والحقائق . وما لم يعالج معالجة حاسمة فإنه يهدد البشرية بالتدهور والإنحطاط .

وكلمة جود توضح مواقف كثير من المفكرين الأوربيين ، فلا يمكن أن يكون فى العقلانية وحدها ، وبالمعنى الضيق والمجرد أو فى الحتمية أو الطبيعة رضا ومقنع لأى مفكر يستوعب الحياة والفكر والكون ، إذ العقلانية وحدها فقيرة وجزئية وعاجزة تماماً عن الإشباع والإقناع .

والإضافة التى جاء بها جود هى إبراز قوة «الشر» أو الخطيئة وهذا أمر عنيت به كل الأديان بصور متفاوته . وقد أبرزه الاسلام بصورة متوازنة ، فإنه لم يقلل من أثر الشر ، ولكنه كذلك لم يتجاهل الخير ووضعهما متقابلين : اغراء الشياطين وهداية الأنبياء ، الضعف البشرى والمدد الإلهى ، وقد يكون إبراز جود لقوة الشر أمر أكثر جدوى فى إظهار نقص العقلانية ، وإنها تعجز عن

أن تقود العالم ، ولابد من قوة أخرى تقف للشر بالمرصاد . ولكن جود كمسيحى لم يعن كثيراً بأن يلحظ أن فكرة الفداء المسيحية قد تقلل من تقدير أثر الشر والخطيئة .

واستشهد جود فى كتابه «انتعاش الايمان» الذى نشر عام ١٩٥١ أى بعد خمس سنوات من تاريخ الفقرات السابقة بفقرة جاءت فى كتاب برتراند رسل «المنطق والإيمان» نصها :

« .. ان التعارض مابين العقل والملكات الغريزية هو فى الحقيقة تعارض وهمى . لأن هذه الملكات هى التى تؤدى إلى الأفكار والعقائد ، ويكون على العقل بعدئذ تفنيدها أو تأكيدها . وحتى هذا فإنه يتم بالتوفيق مابين أفكار وعقائد سابقة . فالعقل هو عنصر تنسيق وتواؤم أكثر مما هو عنصر خلق وإبداع . وحتى فى المجالات المنطقية الخالصة ، فإن البصيرة هى التى تصل أولاً إلى الجديد .

ومن رأى راسل أن التعارض مابين العقل والعقيدة انما يحدث لدى بعض الناس عندما يضعف العقل أو عندما تكتسب العقيدة قوة أحادية مفردة . لاتلحظ الجوانب الأخرى . فالتعارض ليس أصلاً بين العقل والعقيدة[1]» .

وبناء على هذه النتيجة ، انتهى جود إلى أن الدين ثمرة لإقتران العقل بالحدس أو البصيرة ، وان من الخطأ إعادة العلم إلى العقل وحده .. واعادة الدين إلى البصيرة وحدها .

★ ★ ★

واستعراض الآيات القرآنية للقلوب مع الاستئناس بما جاء بالاقوال السابقة

---

(1) The Recovery of Faith by C.E.Joad. Faber & Faber. London pp 114-115 .

التى بينت بعض ما كان غامضاً فى هذا الصدد ، يظهر لنا أن القرآن الكريم يخص القلوب أكثر من العقول بالجانب الإيمانى فى عملية الفكر ، بمعنى انه يفترض وجود إيمان يستلهم أصلاً من القلب ، لكل من يتصدى لمعالجة قضية فكرية وعلمية .. الخ ، حتى لو كان هذا الايمان هو الإيمان بالحقيقة الموضوعية .. والمجردة ، بل إن هذا الإيمان هو أرقى مستويات الإيمان . لأنه بقدر مايصّاعد ويرتقى ، بقدر مايقترب من فكرة «الله» وبهذا يتلاقى مع الدين فى أبرز معانيه . وهذا الإيمان هو ما يكفل للباحث العلمى استمرار دفعته لمواصلة البحث ، وما يحول دون تراخيه ، أو تغلب عوامل القصور والإنتهازية . وبدونه يصبح البحث العلمى عملاً روتينياً يتطرق إليه مايتطرق إلى الروتينية والوظيفية من نقص ، أو تتغلب النفعية وتفقد العقلانية موضوعيتها .

وتوضح إشارات القرآن إلى القلوب أنها أوعية للإيمان أو الكفر ، الخير أو الشر ، الرحمة أو القسوة . ومن ثم جاء تمثيل القرآن الكريم للإيمان والكفر بأربعة نسوة (أمرأة نوح وإمرأة لوط وأمرأة فرعون ومريم) وأنزل الله الأديان على القلوب ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المرسلين ﴾ ووكل حملها إلى الأنبياء ، وليس الفلاسفة ، وجعل حجتها التأمل والتفكير وهو صعيد مشترك يتلاقى عليه العقل والقلب ويتفاعلان . واعتبر المبرر الاكبر للنجاة يوم القيامة ، «القلب السليم» ﴿يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ (٨٨ - ٨٩ الشعراء)

وأكد هذا المعنى الرسول ﷺ فى كثير من الاحاديث «التقوى هاهنا يشير إلى صدره ثلاث مرات» جزء من حديث رواه مسلم «البر حسن الخلق ، والاثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس» وكذلك «استفت قلبك . وان أفتوك وإن افتوك» وكذلك «الا وان فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد ، وإذا فسدت فسد الجسد ، ألا وهى القلب» ويمكن تطبيقاً لهذا - ان يفهم ماروى عن الامام أحمد بن حنبل عندما أخبر عن شخص أفتاه فقيهان برأيين مختلفين فقال «لايجوز له العمل بأيهما شاء ، بل يعرض الآراء على قلبه ويتبع مايطمئن إليه قلبه» ففى كل هذه الشواهد جعل إطمئنان القلب دليل الإيمان .

وقد رأى الفقهاء أن النية هى شرط كل طاعة بها تصير كل عادة عبادة، والنية هى «قصد القلب إلى عمل» فقصد القلب وراء كل الأعمال ، وهذا هو الأصل فى الحديث «الاعمال بالنيات» فالنية هى روح الأعمال .

ولانكران ان العقل ووسيلته العلم ، نور يكشف الصواب والخطأ، الخير والشر ، الهدى والضلال ، ولكن النقطة الهامة هى أن العقل وحده لايجعل الإنسان يؤثر الخير على الشر والهدى على الضلالة .. والصواب على الخطأ . إن مايملك هذا هو القلب المؤمن . إن شحنة الإيمان هى وحدها التى تستطيع أن تغلب نوازع الشهوة والضعف وبدون هذا الإيمان ، فلا شك أن زينة الحياة الدنيا وجاذبيتها من جمال أو مال أو سلطة ، ستستحوز على النفس البشرية وستطمس نور العقل ، فالشهوات لها بريق ووهج أقوى من نور العقل الهادىء المستكن .

وهذا الجانب هو من خصائص العقلانية الإسلامية . إن الاسلام يفترض فى عقلانيته «الخيرية» فكل مايوحى به العقل إنسياقاً وراء الشر وخضوعاً للشهوة . فإن العقلانية الإسلامية لاتعتد به – كماسيلى فى الفصل السادس من هذا الكتاب.

وجَعْل القرآن القلوب أوعية للإيمان ، يجعلها بالتبعية أوعية للعاطفة وبالتالى مصادر الفنون والآداب . وتلك نقطة لم ترد بهذا التحديد فى القرآن ، ولكنها النتيجة المترتبة على جعل القلوب أوعية الإيمان وإشراكها فى الفكر ، فإنها لايمكن أن تحل معادلة رياضية ولكن أن تنظم قصيدة أو تلحن أغنية .. وهذا الجانب له وسيلة وهدف يختلفان عن وسيلة وهدف العقلانية ، ولكنه يوجد نوعاً من التوازن فى الحياة ويستكمل جانباً هاماً لايمكن للعقلانية الجافة أن تقوم به ، وبهذا يوجد المجتمع السوى الذى يجمع مابين علوم العقل وفنون القلب وهداية الإيمان ..

وخلاصة إشارة القرآن إلى القلوب ، ودفعها للإسهام فى عملية الفكر والفقه ثلاثة: أمور الأول ، إعطاء الفكر دفعة الإيمان والرسالية ، وبهذا يكفل له البقاء والإستمرارية ، والثانى الخيرية وعدم إتجاه العقلانية المحايدة للشر ، والثالث إثراء الحياة بصور من النشاط لاتنبثق عن العقل ، ولكن عن «فقه» القلب .. وهى الفنون والآداب .

الباب الثاني
مقومات العقلانية الاسلامية

الفصل الرابع : المقوم الاول . إعمال الفكر سبيل الايمان .
الفصل الخامس : المقوم الثانى . الموضوعية والسنن .
الفصل السادس : المقوم الثالث . الخيرية والصلاح .

قد يتساءل البعض هل هناك عقلانية إسلامية وهل تختلف هذه العقلانية الإسلامية عن عقلانية أخرى ، ان العقلانية لا تعنى بالضرورة العقلانية الرياضية والحسابية التى لا تختلف من مكان إلى مكان ، ومن زمان إلى زمان . فالعقلانية عندما تتصدى لعلاج المشكلات الكبرى بالنسبة للانسان والمجتمع والكون تتفاوت فيما تنهجه من طرق .. وما تسلكه من مداخل ، وما تنتهى إليه من نتائج . وقد لا يكون تعبير «اسلمة المعرفة» دقيقاً أو لا ينم عن طبيعة موضوعية ، ولكن هذا لا ينفى أن للعقلانية الاسلامية مقومات متميزه عن غيرها فالعقلانية فى مجتمع بورجوازى تضع أصول إقتصادية وسياسية ، وعلاقات تتلاءم مع الفكر البورجوازى ، ولا يمكن القول إنها تتنافى مع أصول العقلانية .

كما تقيم العقلانية فى مجتمع إشتراكى أوضاع الاقتصاد والسياسة فيها على مقدمات وأصول مختلفة ، ولها مع هذا حظها من العقلانية .

والعقلانية الإسلامية تختلف عن العقلانية البورجوازية والاشتراكية ، ولها مقومات تميزها وقد تتفق فى بعض هذه المقومات مع غيرها ، ولكنها تتميز بمقومات خاصة ، لعل أبرزها «غائية» العقلانية الإسلامية ، وأنها ليست «محايدة» أو «مجردة» إذ هى «خيرية» ، وهى ترفض أى شيء يؤدى إلى الشر .. وهى صفة أخذتها العقلانية الإسلامية من مبدأ المسئولية ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾.. فالعالم والمفكر المسلم يؤمن أنه مسئوول أمام الله عن ثمرة فكره وإبداع عقله .

وقد يقال إن «الالتزام» ليس مقصوراً على العقلانية الاسلامية ، إن العقلانية الاشتراكية أيضاً ملتزمة ، وهذا صحيح ، ولكن التزام العقلانية الاسلامية هو أمام الله تعالى وهو ينبع من الإيمان الخالص . دون أى مؤثر من ترغيب أو ترهيب ، ولكنها فى المجتمع الاشتراكى تلتزم بالسلطة وبالفكر الذى تمثله السلطة .. والفرق شاسع ..

ويعالج الباب مدخل الاسلام إلى العقلانية باعتبار إعمال الفكر سبيل الإيمان ، ثم يناقش فكرة الإسلام عن «الموضوعية» و «السنن» ويختمها بالصفة «الخيرية» للعقلانية الاسلامية .

الفصـــل الـرابـع

المقوم الاول : إعمال الفكر سبيل الايمان

لما كان الإسلام يؤذن بالعقل على ما أوضحنا ، ويستبعد المعجزة الحسية كوسيلة للتوصل إلى الإيمان ، ويتخذ من الكتاب آيته ، ومن «إقرأ» وسيلته ، فلا عجب إذا جعل إعمال الفكر سبيل الإيمان ، لأنه ليس من طريق آخر .

وسلك القرآن لإبراز هذا الأصل مداخل متعددة تؤدى فى النهاية إلى النتيجة المنشودة .

من هذه المداخـل :

أ – استثارة الفكر :

فهناك مثلا الدعوة للتفكير صراحة كأن يأتى الخطاب ﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة أن هو الا نذير مبين﴾ . (١٨٤ الاعراف)

﴿ او لم يتفكروا فى انفسهم ماخلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم يكفرون﴾ .
(٨ الروم)

أو تأتى الدعوة للتفكير ضمنية ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾ . (١٩١ عمران)

﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ . (٢٤ يونس)

﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تتفكرون﴾ . (٢١٩ البقرة)

﴿وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون﴾ . (٤٤ النحل)

﴿وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ . (٢١ الحشر)

وقد يستخدم القرآن تعبير (يفقهون) .

﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ (٦٥ الانعام)

أو يستخدم تعبير (يتدبرون) .. ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ . (٨٢ النساء)

﴿كتاب انزلناه اليك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب﴾ . (٢٩ ص)

أو يستخدم (اعتبروا) ﴿فاعتبروا يا أولى الابصار﴾ . (الحشر)

أو يستخدم كلمة (يتذكرون) على اساس ان التذكر نقيض الغفلة ﴿أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى انما يتذكر اولو الالباب﴾ . (١٩ الرعد) .

﴿فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾ . (٤٤ طه)

﴿ويبين الله آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾ . (٢٢١ البقرة)

﴿ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ . (٢٠ ابراهيم)

﴿بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون﴾ . (٤٣ القصص)

﴿ولقد وصَّلنا لهم القول لعلهم يتذكرون﴾ . (٥١ القصص)

﴿ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون﴾ . (٢٧ الزمر)

﴿ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا﴾ . (٤١ الاسراء)

﴿ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى اكثر الناس الا كفورا﴾ . (٥٠ الفرقان)

وقد يستخدم القرآن كلمة تذكرة .

﴿لنجعلها لكم تذكرة وتعيها اذن واعية﴾ . (٢٣ الحاقة)

﴿ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا﴾ . (١٩ المزمل)

﴿كلا انه تذكرة فمن شاء ذكره﴾ . (٥٣ المدثر)

وكما هو معروف فان من أسماء القرآن الذكر ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ . (٩ الحجر)

﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه **لكتاب عزيز**﴾ . (٤١ فصلت)

﴿وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ . (٦ الحجر)

وأهم من هذا كله الحاح القرآن صراحة على اللواذ بالعقل واستفهامه الانكارى على الذين يرفضون رسالات الانبياء دون تفكير «افلا تعقلون» وهو تعبير متكرر وروده فى القرآن . ويفهم سببه من ان الله تعالى انما أرسل رسله بالبينات ليكون ذلك حافزا لهم على استعمال عقولهم أو بتعبير القرآن المتكرر (لعلكم تعقلون) فرفضهم وعدم تجاوبهم دليل على اهمالهم هذه الاداة الثمينة فى الانسان وبالتالى اصرارهم على الكفر ﴿وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ماكنا فى أصحاب السعير﴾ . (١ الملك)

واكثر من استخدام مادة (العقل) استخدام القرآن لمادة (العلم) بدءا من تلك الآية ذات المغزى البعيد التى صور فيها القرآن حديث الملائكة الى الله عن آدم وصرح بأفضلية آدم على الملائكة وجعله خليفته رغم ما سيقوم به ابناؤه من سفك الدماء والافساد ، لعلمه الاسماء التى علمها الله إياه .

﴿واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم مالا تعلمون وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم قال يا آدم انبئهم باسمائهم فلما انبأهم باسمائهم قال الم اقل لكم انى اعلم غيب السماوات والارض واعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين﴾ .
(٣٠- ٣٤ البقرة)

وما من تسجيل لأهمية وقداسة العلم مثل هذه السطور لانها توضح كيف ان الله تعالى جعل آدم خليفته وامر الملائكة بالسجود له لانه (يعلم الاسماء)

وتقارب هذه الايات الآية ﴿شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائما بالقسط﴾ . (١٨ آل عمران)

فهنا نجد ان الله تعالى اشرك مع الملائكة اولى العلم فى الشهادة له بالقسط كما تدل الآية ﴿الم تر ان الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف الوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء وان الله عزيز غفور﴾ . إن القرآن خص العلماء بمعرفة ما فى خلق الطبيعة والجبال والنبات والحيوان ، والجبال من دلالة بخشية الله .

ويَمن الله تعالى على سيدنا محمد ﴿وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما﴾ . (١١٣ النساء)

كما مَّن من قبل على عيسى ﴿اذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل﴾ . (١١٠ المادة)

اما بالنسبة لعامة المؤمنين فانه تعالى ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكن والذين اوتوا العلم درجات﴾ . (١١ المجادلة)

وقد اقسم الله تعالى بالقلم ﴿والقلم .. وما يسطرون﴾ . (١ القلم)

﴿الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان﴾ . (١ – ٤ الرحمن)

وبالطبع فلا يمكن ان ننسى اولى آيات القرآن نزولا والتى دارت محاورها حول العلم والقلم والقراءة ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم﴾ . (١ – ٥ العلق)

ب – الشك مرحلة نحو اليقين :

ولان الفكر والنظر والتدبير .. الخ هى مداخل الايمان بالله فى القرآن الكريم كما اوضحنا **فان القرآن لم ير فى الشك نقيضا لليقين ولكن مرحلة نحوه .** **والقرآن بالطبع** يفرق بين شك يستهدف الوصول الى الحقيقة وتشكيك يراد به هدم الايمان أو يستخدم من قبل أعدائها للنيل منها . ويصفه القرآن عادة بانه .

مريب – والشك الاول بالطبع هو مالا يرفضه القرآن وقد ضرب امثلة له من النبيين انفسهم .

﴿وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين فلما جَن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفَل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدينى ربى كونن من القو الظالمين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا اكبر فلما افلَت قال ياقوم انى برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما انا من المشركين﴾ . (٧٥ – ٧٨ الانعام)

فهنا نرى كيف ان افول الكواكب والشمس والقمر جعل ابراهيم يكفر بها كاله ويتخذ الذى خلقها الهاً .

ولم يجد القرآن حرجا فى ان ينكر سؤال ابراهيم ﴿واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى . قال اولم تؤمن قال بلى . ولكن ليطمئن قلبى﴾ وقد استجاب الله تعالى له ولم ير فى سؤاله انحرافا أو ضعفا أو كفرا .

وكذلك لم يرفض القرآن طلب موسى أو يرى فيه مروقا . ﴿قال رب ارنى انظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صَعِقا فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا اول المؤمنين﴾ . (١٤٣ الاعراف)

ولم يرفض المسيح طلب الحواريين انزال مائدة وتعليلهم ذلك «تطمئن قلوبنا» .

﴿اذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ، قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين قالوا نريد ان نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين قال عيسى بن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ . (١٢ – ١١٣ المائدة) .

★ ★ ★

ولا نجد إشارات عديدة إلى الشك فى الكتابات الإسلامية . رغم تقبل القرآن

الكريم . ولكننا أيضاً لانجد منهجاً يجعل الشك مدخلاً للتوصل إلى النتائج قبل منهج ديكارت فى القرن السابع عشر . على إننا نجد نصين من أجمل وأكمل النصوص فى جعل الشك منطلقاً لليقين وضعهما عالمان من أكبر علماء المسلمين ، هما **الغزالى ، وابن الهيثم** .

ومعظم القراء يذكر ماقاله الغزالى فى «المنقذ من الضلال» عندما أراد أن يصف مسيرته الفكرية ..

«ولم أزل في عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ – قبل بلوغ العشرين إلى الآن . وقد أناف السن على الخمسين – اقتحم هذا البحر العميق وأخوض غمراته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، أتوغل فى كل مظلمة ، واتهجم على كل مشكلة . واقتحم كل ورطة ، واتفحص عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنياً إلا واحب أن أطلع على باطنيته ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته . ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا واجتهد فى الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى تعطله وزندقته .. الخ .

وقد انتهت مسيرة الغزالى بايثار التصوف بإعتباره صورة للصفاء الروحى ، وآثره على جدل علماء الكلام ، وحيل فقهاء السلاطين ، وهو الإختيار الجدير برجل يريد الحقيقة .. ويرفض الدنيا . لو لم تشب التصوف تلك اللوثات التى شانته ..

والنص الثانى أقل شهرة ، ولكنه أكثر دلالة فى المضمون ، وفى النتيجة ، وفى جعل الشك منطلقاً لليقين .

وقد جاء فى مذكرات ابن الهيثم الخاصة عام ٤١٧ هجرية ..

« .. إننى لم أزل منذ عهد الصبا مرتاباً فى إعتقادات هذه الناس المختلفة ، وتمسك كلَ فرقة منهم بما تعتقده من الرأى ، فكنت متشككا فى جميعه ، موقناً بأن الحق واحد ، وان الإختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه . فلما كملت لإدراك الأمور العقلية ، وانقطعت إلى طلب معدن الحق ووجهت رغبتى وحرصى إلى إدراك مابه تنكشف تمويهات الظنون وتنقشع غيابات المتشكك المفتون ، وبعثت عزيمتى إلى تحصيل الرأى القريب إلى الله جل ثناؤه المؤدى إلى رضاه الهادى لطاعته وتقواه ، فكنت كما قال جالينوس فى المقالة السابعة من كتابه «فى حيلة البرء» يخاطب تلميذه «لست أعلم كيف تهيأ لى منذ صباى إن شئت قلت بإتفاق عجيب ، وإن شئت قلت بإلهام من الله ، وإن شئت قلت بالجنون ، أو كيف شئت أن تنسب ذلك ، أنى أزدريت عوام الناس واستخففت بهم واشتهيت إيثار الحق وطلب العلم واستقر الرأى عندى ان ليس ينال الناس من الدنيا شيئاً أجود ولا أشد قربة إلى الله من هذين الأمرين» .

فخضت لذلك فى ضروب الآراء والإعتقادات وأنواع علوم الديانات ، فلم أحظ من شيء منها بطائل ، ولا عرفت منه للحق منهجاً ، ولا إلى الرأى اليقينى مسلكاً مجدداً ، فرأيت أنى لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية . فلم أجد ذلك إلا فيما قرره أرسطو طاليس من علوم المنطق والطبيعيات والإلهيات ، التى هى ذات الفلسفة وطبيعتها حين بدأ بتقدير الأمور الكلية والجزئية والعامية والخاصية ، ثم تلاه بتقدير الألفاظ المنطقية وتقسيمها إلى أجناسها الأوائل ، ثم أتبعه بذكر المعانى التى تتركب مع الألفاظ فيكون منها الكلام المفهوم المعلوم ، ثم أفرد من ذلك الأخبار التى هى عنصر القياس ومادته ،

فقسمها إلى أقسامها ، وذكر فصولها وخواصها التى تميزها بعضها من بعض ويلزم منه صدقها وكذبها ويعرض ومعه إتفاقها فأختلافها وتضادها وتناقضها ، ثم ذكر بعد ذلك القياس ، ثم ختم ذلك بذكر طبيعة البرهان وشرح مؤداه ، ثم أخذ بعد ذلك فى شرح الأمور الطبيعية ، فبدأ فى ذلك بكتابه فى السماع الطبيعى ، ثم أتبع ذلك بكتابه فى «الكون والفساد» ، ثم تلاه فى كتابه «فى الآثار العلوية» ، ثم أتبعه بكتابه «فى السماء والعالم» ، ثم والاه بكتابه «فى النفس» .

فلما تبينت ذلك أفرغت وسعى فى طلب علوم الفلسفة وهى ثلاثة علوم : رياضية وطبيعية والهية فتعلقت من هذه الأمور الثلاثة بالأصول والمبادىء التى ملكت بها فروعها ، ثم أنى لما رأيت طبيعة الإنسان قابله للفساد ، متهيئة إلى الفناء والنفاد ، شرحت ولخصت وأختصرت من هذه الأصول الثلاثة ما أحاط فكرى بتصوره ، ووقف تمييزى على تدبره ، وصنفت من فروعها ما جرى مجرى الإيضاح والإفصاح عن غوامض هذه الأمور الثلاثة إلى وقت قولى هذا وهو ذو الحجة سنه سبع عشرة وأربع مئة لهجرة النبى ﷺ» .(١) .

فهذه النصوص توضح كيف أن بعض علماء المسلمين لم يكونوا بعيدين عن منهج الشك وإتخاذه منطلقاً لليقين .

ج - الانبياء كمعلمين :

ومما يتفق مع جعل الفكر والعلم طريق الايمان ان يكون الانبياء والرسل «معلمين» ورغم ان المعجزة كانت موجودة واستخدمت فى حالات الانبياء السابقين على الاسلام الا ان هذا لا يحدث الا بعد المكابرة المتأتية من «**المصالح المكتسبة**» والاوضاع القائمة التى تريد الاديان تغييرها بالذات ويريد هؤلاء

---

(١) ابن ابى صبيعة عيون الانباء فى طبقات الأطباء ص ٥٥٢ - ٥٥٣ طبع بيروت . استشهد بها فى كتاب «القرآن ومعرفة الطبيعة» دكتور مهدى كلشنى - طهران ١٩٨٥ ص ٤٢ - ٤٣ .

الابقاء عليها .. أما المهمة التقليدية والدائمة والتى يحقق بها الانبياء رسالتهم فهى الدعوة والهداية طريق الاقناع والحوار والتعليم .. الخ وقبل أن تظهر المطبعة ووسائل الاتصال الاخرى ووسط الامية الضاربة اطنابها فان مهمة الرسول المعلم كانت هى ان «يتلو» عليهم الكتاب وما يصطحب بهذا ضرورة من ايضاح وبيان وأخذ ورد .. ﴿يتلو عليكم اياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ . (١٥١ البقرة) .

وهذه الآية تكررت بحروفها تقريبا فى الآية ١٢٩ البقرة والآية ١٦٤ آل عمران والآية ٢ الجمعة .

ومن أجمل الآيات واكثرها وقعا فى تصوير دور رسول الاسلام ﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾ .
(١٦٤ – آل عمران)

ففى هذه الايات كلها يبرز القرآن الانبياء كمعلمين يتلون الكتاب على الجماهير ويعلمونهم مالم يكونوا يعلمون ويستخدمون كبقية المعلمين الوسائل التعليمية والسيكلوجية المختلفة كاستثارة الفكر والاعتماد على العقل والمنطق السليم والرد – ردا مقنعا – على الاسئلة التى يتقدم بها الجماهير .. وهناك العديد من الايات التى تبدأ بكلمة (يسألونك) وتتضمن السؤال والرد – وهم تضم السؤال عن الأهلة ١٨٩ البقرة والشهر الحرام ٢١٧ البقرة والخمر والميسر ٢١٩ البقرة و«ماذا ينفقون» ٢١٩ البقرة واليتامى والمحيض ٢٢٢ البقرة والروح ٨٥ الاسراء والجبال ١٠٥ الكهف الخ ...

ويدخل فى دور الأنبياء التبيين والشرح والايضاح ﴿قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل﴾ . (١٩ المائدة)

﴿وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم﴾ . (٤ ابراهيم)

﴿يبين لهم الذى تختلفون فيه﴾ . (٣٩ النحل)

ويعرض القرآن فى آيات عديدة لا يمكن ان يتسع مجال البحث لايرادها[1] صورة للحوار ما بين الانبياء واقوامهم وكيف يدعونهم برفق . حتى فرعون الطاغى ﴿فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾ . (٤٤ طه)

وحتى يقول شعيب لقومه ﴿وما أريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه ، ان اريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى بالله عليه توكلت واليه أنيب﴾ (٨٨)

هود ويوجه القرآن النبى ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين﴾ . (١٢٥ النحل)

﴿ادفع بالتى هى احسن السيئة ، نحن اعلم بما يصفون﴾ (٩٦ المؤمنون)

﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم ومايلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم﴾ . (٣٣ - ٣٥ فصلت)

﴿خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ (١٩٩ الاعراف)

﴿واصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾ . (١٣٠ طه)

﴿فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ . (٦٠ الروم)

﴿واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور﴾ (١٢ لقمان) .

وبمثل تطبيق هذه التوجيهات ورحمة الله لهم استحق النبى ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين﴾ . (١٥٩ آل عمران)

وقد يُجمل القرآن دور الانبياء كمعلمين فى انهم ينقذون شعوبهم من الظلمات الى النور وهو مايرمز به الى الانتقال من الجهالة التى العلم والمعرفة . ففى

---

(١) انظر على سبيل المثال لا الحصر الايات من ٥٩ الى ٩٥ سورة الاعراف التى تتضمن حوارات نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب .

الظلمات لا يمكن ان نرى شيئاً ، ولكن النور يجعلنا نرى ، ونعرف ، وبقدر ما كان الأنبياء يعلمون ، بقدر ما كانوا يدعون النور يبدد الظلمات .

د - الخلق دليل وجود الخالق :

ومن ابرز المداخل التى يسلكها القرآن ويجعل بها التفكير طريق الايمان اعتباره الخلق اكبر الادلة على الخالق وقوته وكماله . وقد يسوق القرآن الخلق كمجرد ظاهرة أو آية تثير التفكير ضمنا وتبعث على انعام النظر ، وقد ينبه الى هذه الاثارة صراحة ويربط ما بينها وبين الخلق وان من المستحيل وجود هذه المخلوقات دون خالق ، وتتضمن هذه المخلوقات كل شىء من اكبرها حتى أصغرها من الشموس والسموات والاقمار الى النمل والنحل والذباب والبعوض .. وهكذا نقرأ ﴿ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابه وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون﴾ . (١٦٤ البقرة) .

كذلك نقرأ ..

﴿ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب﴾ . (١٩٠ آل عمران)

﴿الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ . (١ الانعام)

﴿ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فانى تؤفكون﴾ . (٩٥ الانعام)

﴿ومن آياته خلق السموات والارض ومابث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير﴾ . (٢٩ الشورى)

﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولاللقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم إياه تعبدون﴾ . (٧٧ فصلت)

﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون﴾ . (٢٠ الروم)

﴿ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم﴾ . (٢٢ الروم)

﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسنُ الخالقين﴾ . (١٢ – ١٤ المؤمنون)

﴿هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون﴾ . (٢٦ الحجر)

﴿هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة﴾ . (٦٧)

﴿أولم يرو انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما فهم لها مالكون﴾ .
(٧١ الصفات)

﴿سبح اسم ربك الاعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى﴾ . (٩ الاعلى)

وبالاضافة الى ان هذه الايات تثير الفكر وتدل على اعجاز الخالق فانها تورد الحل لاكبر المشكلات .. الحياة والموت .. خلق الكون والشمس والقمر .. خلق الانسان .. وتقصى مراحل هذا الخلق بدءا من صلصال من حمأ مسنون أو تراب أو سلالة من طين أو صلصال كالفخار أو طين لازب تُبَث فيه الحياة بنفثة من الله ليدخل بعد هذا فى مراحل التطور البيولوجية من نطفة فعلقة فمضغة ثم العظام ثم اللحم ، وهى إيضاحات تتفق تماما حتى مع الذين يرون نشأة الانسان من «مادة» ويتفوق عليهم فى انه يحل اللغز الذى لايزال قائما «من أين جاءت شرارة الحياة» ثم هو فى بعض مراحل الحمل يتفق مع آخر الاكتشافات العلمية مما اثار عجب اساتذة الاجنة ودفع ببعضهم الى الاسلام فتكرر بالنسبة لهم فى القرن العشرين وبفضل الكشف العلمى ما حدث للعرب الاميين فى القرن السابع .

ويوجه القرآن نظر المؤمنين الى روعة الشمس والقمر .. الليل والنهار .. الموت والحياة .. الظلمة والنور .. الذكر والانثى ، وتلك الدقة التى يسير بها كل الكون كل يجرى لاجل مسمى لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون وحديث القرآن عن هذه الآيات يفوق اشد كتب الشعر غراما بالطبيعة واعجازا فى وصفها فنظم القرآن فن وحكمة ..

﴿وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون﴾ ..
(٣٣ الانبياء)

﴿ذلك بان الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير﴾ .
(٦١ الحج)

﴿يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير﴾ .
(١٣ فاطر)

﴿سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون﴾ .
(٤٦ – ٤٠ يس)

ويتحدى القرآن المشركين والكافرين أن يخلقوا أو تخلق الهتهم المزعومة شيئا ..

﴿يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ .
(٧٣ الحج)

ومن النادر ان نجد صيغة مركزة مكثفة صادعة فى التحدى مثل هذه وهى مع هذا صادقة كل الصدق فالعلم الانسانى بأسره يعجز عن صنع ذبابة أو حتى طائرة فى حجم الذبابة وفى مرونة حركتها وطيرانها ، فضلاً عن نفخ شرارة الحياة فيها الذي يجعل طيرانها ذاتياً وارادياً .

هـ – استبعاد عبثية الحياة وتأكيد غائيتها :

ويتقدم القرآن ليعزز ويدعم بذرة الايمان التى لابد وان تنمو فى الانسان

نتيجة للتفكير فى مابين يديه من (آيات) و (مخلوقات) بما فيها وجوده نفسه باستبعاده عبثية الحياة وتأكيده أن هذه الحياة لم توجد عبثا أو تخلق سدى وانها انما وجدت لغاية وحكمة وبهذا يغرس القرآن فكرة الغائية ويفسح المجال للتفكير المنظم المنطقى المسئول قدر مايستبعد العبثية واللامسئولية والعشوائية .

﴿أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لاترجعون﴾ . (١١٥)

﴿أيحسب الانسان أن يترك سدى الم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى اليس ذلك بقادر على ان يحيى الموتى﴾ . (٣٦ - ٤٠ القيامة)

﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون﴾ . (١٦ التوبة)

﴿وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا﴾ . (٢٧ ص)

﴿الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم احسن عملا﴾ . (٢ الملك)

﴿وماخلقنا السماء والارض ومابينهما لاعبين﴾ . (١٦)

﴿وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى﴾ .
(٣ الاحقاف)

ففى هذه الآيات كلها يستبعد القرآن العبثية ، ويؤكد الغائية . والعبثية تعنى العشوائية ، والتلقائية والتخبط ، بإختصار الفوضى ، فى حين أن الغائية تعنى الإرادة والفكر والنظام والتسلسل المنطقى من وسيلة إلى غاية ، وقيام النتائج على مقدمات ، وإرتباط الأسباب بالمسببات . بإختصار «العقل» ، والشكل الكلى والأعظم والحى لهذا العقل يعود إلى الله تعالى ، الذى خلق ونظم هذا الكون طبقاً للسنن التى وضعها له .

و – استخدام درجة أولية من المنطق :

يستخدم القرآن درجة أولية من المنطق تعتمد على البداهة والفطرة السليمة دون التطرق الى صور من التعقيد المنطقى أو الترتيب الذى تقوم عليه طريقة المقدمات والنتائج .

ومن أمثلة (منطق القرآن) .

﴿اوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم﴾ .
(٨١ يس)

﴿اولم يروا أن الله الذى خلق السموات والارض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى﴾ . **(٣٣ الأحقاف)**

﴿ما خلقكم ولابعثكم الا كنفس واحدة ان الله سميع بصير﴾ . (٢٨ لقمان)

﴿وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ . **(٧٩ يس)**

﴿لو كان فيهما الهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ .
(٢٢ الأنبياء)

﴿ما أتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون﴾ . **(٩١ المؤمنون)**

ومقارنة هذا المنطق بمنطق الفلاسفة الذى أستخدمه العلماء المسلمون نقلاً عن اليونان لإثبات وجود الله ووحدانيته ، يوضح الإختلاف الكبير بين منهج القرآن ، ومنهج المناطقة التقليديين ، ويبرز مدى بساطة وإحكام منطق القرآن وأن كل النفوس تسيغه وتفهمه وتقتنع به دون أدنى صعوبة .

ز – ضرب الأمثلة :

وقريب من هذا أن يستخدم القرآن الأمثال ليصل إلى الأفهام وليقرب إليها

المعانى والأفكار بأشياء محسوسة وملموسة ﴿إن الله لا يستحى أن يضرب مثلاً مابعوضة فما فوقها﴾ . (٢٦ البقرة)

﴿ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ . (٨٩ الإسراء)

﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾ . (٥٤ الكهف)

ومن أمثلة القرآن :

﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء واسع عليم﴾ . (٢٦١ البقرة)

﴿الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى اكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار﴾ . (٢٤ - ٢٦ ابراهيم)

﴿الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . المصباح فى زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ . (٣٥ النور)

﴿ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلا رجلين احدهما ابكم لا يقدر على شيء وهو كَلّ على مولاه أينما يوجهه لايأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾ . (٧٤ - ٧٥ النحل)

﴿مثل الذين حملوا التوراه ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ . (٥ الجمعة)

ح – التنديد باتباع الآباء :

ومما يتفق مع دعوة القرآن لاستثارة الذهن واعمال الفكر تنديده باتباع الاباء والاجداد إما من باب التقليد والاستراحة من عناء التفكير وتحمل مسئولية أو اعتزازا ذاتيا بهؤلاء الاباء ..

﴿واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون﴾ . (١٧٠ البقرة)

﴿واذا قيل لهم تعالوا إلى ما انزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾ . (١٠٤ المائدة)

﴿واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله امرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء اتقولون على الله ما لاتعلمون﴾ . (٢٨ الاعراف)

﴿بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على أثارهم مهتدون ، وكذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على أثارهم مقتدون ، قل أو لو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما ارسلتم به كافرون﴾ . (٢٢ – ٢٤ الزخرف)

ط – توظيف الحواس لاستثارة الفكر :

ويدعو القرآن لتوظيف الحواس لاستثارة الفكر ويوجه الناس لاستخدام حواسهم لاستشفاف الحقيقة .. فالله تعالى خلق لهم هذه الحواس ليتعرفوا على الحقيقة وليتوصلو الى درجة من الفهم والمعرفة يستوى فى ذلك استخدام العيون أو الآذان أو الاقدام .. فهناك دائما توجيهات قرآنية انظروا .. استمعوا .. سيروا .. ويربط القرآن بين هذه التوجيهات والتوصل الى الحقيقة أو الى شاطىء الحقيقة .. وقد يأتى التوجيه القرآنى فى صيغة الاستفهام الانكارى «او لم يروا .. أولم ينظروا .. أو فى صيغة الامر للرسول «قل انظروا» ...

﴿أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شئ﴾ .
(١٨٥ الاعراف)

﴿قل انظروا ماذا فى السموات والارض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ . (١٠١ يونس)

﴿فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحى الموتى وهو على كل شىء قدير﴾ . (٥٠ الروم)

وقد يجمع فى آية واحدة النظر والسير ..

﴿قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ . (١١ الانعام)

﴿أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ . (١٠٩ يوسف)

﴿أو لم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها اكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ﴾ . (٩ الروم)

﴿قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله يُنشىء النشأة الاخرى إن الله على كل شىء قدير﴾ . (٢٠ العنكبوت)

والربط مابين «السير» و «النظر» و «السمع» وبين المعرفة والفكر أحد المناهج القرانية الاسلامية .. فالمعرفة المحمودة فى الاسلام هى المعرفة التى تفيد الناس اما اذا كان مجرد شقشقة من اللسان أو جدلا شكليا أو تفكيرا دون هدف فان الاسلام لا يحبذه تماما واسوأ منه ان تستخدم المعرفة فى المراء والجدل العقيم ، والاسلام يتفق فى هذا مع الدرجة الأولى والبدائية من العقلانية ، درجة إستخدام الحواس وتوظيفها للوصول للمعرفة .

ى - حرية الاعتقاد :

من القسمات التى يعنى القرآن بابرازها خلال استثارته للفكر حرية الاعتقاد ، ومن الغريب أن هذه الفكرة - رغم صراحة القرآن وتشديده وتكراره لها بعبارات قاطعة لم تجد تجاوبا ، بل نقول إنها نُبذت تماما لانها تخالف مخالفة

خادة مايدعو اليه السدنة وذوو المصالح الذين نصبوا انفسهم قضاة على الناس وحكاما فى شئون ايمانهم . ونجحوا فعلا فى ايجاد رأى عام يستبعد حرية الاعتقاد ، وانقلبت الاية فأصبح الحق باطلا والباطل حقا وبدلا من أن يثير أى قيد على حرية الاعتقاد العجب والاستنكار اصبحت حرية الاعتقاد شيئا يعاذ منه ويتعجب له »..

ذلك لان الاعتقاد مادام يقوم على الايمان القلبى فلابد أن ينشأ بفضل الحرية والمبادأة فى التفكير ولايمكن أن يؤمن الناس قسرا ، وأى ايمان قسرى لاقيمة له لانه يتجرد من النية وهى أصل فى الايمان والعبادات ولانه لايقوم على تفكير ولان صاحبه يكون مكرها فلا عقاب ولا ثواب .

من أجل هذا كله ، فان القرآن يقرر فى آيات لا يتسع المجال لحصرها حرية الاعتقاد وان الانبياء انفسهم لا سلطان لهم على قلوب الناس وانما ارسلهم الله مبشرين ومنذرين ومبلغين ﴿وما على الرسول الا البلاغ المبين﴾ .(٩٩ المائدة)

﴿وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت ان تبتغى نفقا فى الارض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ . (٣٥ الانعام)

﴿فان كذبوك فقل لى عملى ولكم اعمالكم أنتم بريئون مما اعمل وانا برىء مما تعملون﴾ . (٤١ يونس)

﴿قل يا ايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما انا عليكم بوكيل﴾ . (١٠٨ يونس)

﴿فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين﴾ . (٨٢ النحل)

﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ماجاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد﴾ . (٢٥٣ البقرة)

﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء﴾ . (٢٧٣ البقرة)

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملآن جهنم من الجنّة والناس أجمعين﴾ .
(١١٨ – ١١٩ هود)

﴿لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ . (٢٥٦ البقرة)

﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ . (٩٩ – ١٠٠ يونس)

﴿فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر الا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الاكبر ان الينا إيابهم ثم ان علينا حسابهم﴾ . (٢١ – ٢٦ الغاشية)

﴿قل يا أيها الكافرون لا اعبد ماتعبدون ولا انتم عابدون ما اعبد ولا انا عابد ماعبدتم ولا انتم عابدون ما اعبد لكم دينكم ولى دين﴾ . (١ – ٦ الكافرون)

كل هذه الايات وهى قليل من كثير تقرر حرية الاعتقاد وتقصر مهمة الرسل على التبليغ والتبيين وتكل الى الله تعالى يوم القيامة الفصل فيما يختلف فيه الناس وهذه الايات لا تدع الضالين فى ضلالتهم يعمهون لان تبليغ الانبياء رسالتهم وادائهم لاماناتهم وقيامهم بدور المعلمين فيه مايكفى لاقناع كل من ينشد الحقيقة ، ولكنها لاتستخدم وسائل القسر والاكراه فى هذا المجال فاذا كان ذلك سيخسر الايمان عددا من المصرين على الضلال فانه سيفسح المجال لكل ذوى القلوب السليمة والضمائر الطاهرة للايمان عن هدى وبصيرة واقتناع .

وكانت هذه التوجيهات ملحوظة فى الايام الاولى للاسلام وقد ذهب الرسول فى سماحته مع المنافقين والمخالفين حداً عاتبه القرآن عليه ولم تكن ردة المرتدين ردة عقيدة لان معظمهم كانوا يشهدون ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله ولكنهم ثاروا على حكم الخليفة الاول ومنعوا الزكاة وكانت ردتهم سياسية واقتصادية ولم يكن ثمة مناص من قتالهم وقد ذكر القرآن الردة اكثر

من مرة ولم يرتب عليها عقابا دنيويا وانما اوكل امرها الى الله كما سادت بيئة الحرية الفكرية اجتهاد الفقهاء والائمة حتى وصلت الفتاوى الى درجة التضارب .

أما ما يتصف به الفقهاء عادة من ضيق . بحرية الإعتقاد فهو داء كل الخبراء الذين يغلب التخصص والتعمق . فيهم رحابة الصدر وسعة الأفق ، وهو الداء الذى يصطحب ببلوغ العقيدة درجة «المؤسسة» بحيث تقترن الغيرة على الدين بالحرص على المصلحة ، والحفاظ على التصور التقليدى . وهى ظاهرة لاتمس الإسلام بالذات ولكنها تصور بعض المآزق التى تتعرض لها الأديان . والفرق بين الإسلام والأديان الأخرى فى هذا ، إن الإسلام عندما أستبعد الكنيسة التى تكون لها بحكم العقيدة سلطان على الإيمان ، وعندما ائتمن الفطرة فإنه أوجد صمامات الأمان التى تحول دون أن ينتهى تعرض الإسلام لهذا المأزق بالوقوع فيه ... كما حدث بالنسبة للأديان الأخرى .

الفصل الخامس

المقوم الثاني : الموضوعية والسنن

مع أن القرآن يتقبل الشك كمرحلة فى الطريق إلى اليقين ، ويعتبر أن التفكير مفتاح التوصل إلى عقيدة الألوهية وإستبعاد ما علق بها من شوائب وأوهام ، إلا أن القرآن يوجه الناس إلى أن هناك «سنناً» وضعها الله لقيام المجتمع وسيره وتطوره ، وأن هذه السنن ثابتة لا تتغير ، كما أنه يوجه الناس لأن يسلكوا مسلكاً موضوعياً وأن يبنوا أحكامهم علي أساس موضوعى يبعد كل البعد عن «الذاتية» ، وهو أمر طبيعى لأن القرآن ينبثق عن أصل ، وأعم ما يتصور عن موضوعية : «الله» تعالى ، **وليس شرطاً أن يتحدث القرآن عن الموضوعية بهذا اللفظ ، لأن للأديان لغتها الخاصة ومسمياتها التى تعطى المضمون نفسه باسم مختلف .**

أ - الموضوعية :

يعبر القرآن الكريم عن الموضوعية تعبيراً خاصاً به وهو «**الحق**» . وهو تعبير يفضل كثيراً تعبير الموضوعية للأسباب التى سترد . والقرآن يدعو المؤمنين للإيمان بالحق ، كل الحق ، ولا شىء غير الحق . وفى هذا السبيل يحرم القرآن كل صور الهوى والغرض والأنانية والذاتية كائنة ما كانت وفى كل المجالات .

﴿ولايجرمنكم شنئان قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا﴾ .
(٢ المائدة)

﴿يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنئان قوم على ان لاتعدلو اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون﴾ .
(٨ المائدة)

﴿يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والاقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله اولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلوا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا﴾ . (١٣٥ النساء)

وتطبيقا لهذا المبدأ فى عدم الاعتداد الا بالحقيقة وحدها واستبعاد العواطف والمشاعر التى تؤثر عليها أو تنقص منها أو تغيرها رفض الاسلام مبدأ التبنى وأن يعط الانسان اسمه لابن ليس له ﴿ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما اخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما﴾ . (٥ الاحزاب)

ورفض دعوى «الظهار» .

﴿إن الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم إن امهاتهم الا اللائى ولدنهم وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا وان الله لغفور رحيم﴾ .
(٢ المجادلة)

والتوجيه بالتزام هذا المسلك هو تطبيق لاصل عام عظيم هو (الحق) الذى نزل به الكتاب ودعا اليه الانبياء ويعد المحور الذى تدور عليه قضايا المجتمع قاطبة . وقد يستخدم القرآن كلمة «العدل» **والعدل هو الحق مطبقا لانه ليس الا اعطاء كل ذى حق حقه ووضع كل شىء موضعه ومن ثم جاء الربط بين - الوزن والحق ﴿والوزن يومئذ الحق﴾** (٨ الاعراف)

﴿يهتدون بالحق وبه يعدلون﴾ . (١٨١ الاعراف)

فالحق اعم من العدل ولهذا فان ذكره اكبر فى القرآن (٢٢٧ مرة على حين ذكر العدل على اهميته الكبرى ٢٧ مرة) .

وتعبير «الموضوعية» فقير ، مجرد ، متهافت ، امام التعبير القرآنى الحى القوى «الحق» ومن مثل هذه الاية ﴿ولاتلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون﴾ . (٤٢ البقرة) اشتقت الشهادة التقليدية «الحق وكل الحق ولا شيء الا الحق» لان الله تعالى هو أصل «الموضوعية الاسلامية» ، وهو الأصل الذى تتساقط امامه كل الذاتيات ..

وفى ايات عديدة جدا يكرر القرآن ان الغرض من انزال الكتاب هو ان يكون لدى الناس الحق الذى يحكمون به ويفصلون به فى خلافاتهم ﴿وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ . (٢١٣ البقرة)

﴿انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ . (١٠٥ النساء)

على ان القرآن يستخدم الكلمة ليعبر بها عما هو اكبر من المعيار للحكم . **ان خلق السموات والارض ما تم الا بالحق ﴿وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق﴾ . (٨٥ الحجر)**

﴿خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون﴾ (٣ النحل)

﴿ماخلق الله السموات والارض ومابينهما الا بالحق﴾ . (٨ الروم)

﴿ماخلقنا السموات والارض ومابينهما الا بالحق﴾ . (٣ الاحقاف)

وكلل هذا بان اطلق القرآن اسم الحق على الله تعالى

﴿ويعلمون ان الله هو الحق المبين﴾ . (٢٥ النور)

﴿فذلكم الله ربكم الحق﴾ . (٣٢ يونس)

﴿ذلك بان الله هو الحق وان مايدعون من دونه الباطل﴾ . (٣٠ لقمان)

﴿ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾ .
(٧١ العنكبوت)

وهذه الآية قمة الموضوعية ، فبالاضافة الى تسمية الله تعالى بالحق ، فانها أوضحت ان اتباع الاهواء – وهى رمز الذاتية – سيفسد ، ليس فحسب المجتمع الانسانى ولكن السموات والارض أيضاً .

وادى حرص القرآن على الحقيقة – كل الحقيقة وانه اخر الكتب السماوية المقدسة لان يعترف بهذه الكتب السابقة ولان يعترف بالانبياء السابقين ، ولا يحس القارىء اية حساسية في خفايا وغضون النظم القرانى عند إشاراته الى الانبياء السابقين والكتب السماوية لان القرآن من الله والله تعالى هو الذى انزل كل الكتب المقدسة وارسل كل الانبياء فليست هناك حساسية وانما تكون الحساسية لو ان الاسلام كان من عند غير الله اذن لنزع النزعة الذاتية وحتى لو اراد العدل والحق لكان عدله وحقه مشوبا بالحساسية ولظهر ذلك فى لحن القول وهو امر لا اثر له فى القرآن سواء بالنسبة للكتب السابقة أو الانبياء السابقين والقرآن يأمر المؤمنين أن يؤمنوا بها جميعا دون تفريق .

﴿قولوا امنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسحق ويعقوب والاسباط وما اوتى موسى وعيسى وما اوتى النبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون﴾ . (١٣٦ البقرة)

﴿قل أمنا بالله وما انزل علينا وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما اوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ . (٨٤ آل عمران)

﴿انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان واتينا داوود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما﴾ . (١٦٣ - ١٦٤ النساء)

﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين . انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾ .. **(٤٣ - ٤٤ المائدة)**

- ﴿وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ . **(٤٧ المائدة)**

- ﴿ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم منهم امة مقتصده وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ . **(٦٦ المائدة)**

- ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما انزل اليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما انزل اليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين . ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ . **(٦٨ - ٦٩ المائدة)**

- ﴿وقولوا آمنا بالذى انزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد﴾ . **(٤٦ العنكبوت)**

فهذه الآيات كلها وهى قليل من كثير لا تنم عن أثارة من التحيز أو الحساسية تجاه الانبياء السابقين على الاسلام أو الكتب التى انزلت قبله بل ان فيها اشادة بالتوراه والانجيل ودعوة للمسلمين لعدم التفريق بين انبياء الله وهو امر قلما نجده فى دين اخر بالنسبة للاديان السابقة عليه وانما اختص بها الاسلام لغلبة الموضوعية والحرص على الحقيقة .. كل الحقيقة .

وما يؤكد ان هذا المسلك جزء من طبيعة العقلانية الاسلامية أننا نجده فى كل المجالات كالشهادة على ماعرضنا . وعندما كان القرآن بصدد تحريم الخمر قال ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ . **(٢١٩ البقرة)** .

وهو مايصور حرص القرآن على إبراز كافة الأبعاد حتى ماصغر منها أو مايميل الناس عادة لإغفالها .

وأكدت السنة النبوية هذا المعنى عندما جعلت الحكمة ضالة المؤمن ، ينشدها أنا وجدها ، وحثت على طلب العلم «ولو فى الصين» وعندما أمر رسول الله ﷺ من حلف على يمين ، فوجد خيراً منها ان يأخذ بالتى هى خير ، ويكفر عن يمينه . ووجه عمر بن الخطاب قاضيه ابى موسى الاشعرى ان لا يستنكف من الرجوع عن حكم ، اذا استبان له ان الحق فى غيره ، «فان الحق قديم» .

ففى هذه الشواهد كلها نجد التوجيه هو نحو «الموضوع» ليس نحو الذات .. فالمهم هو الموضوع نفسه ، وليس أى عامل آخر .

ب - السنن :

وبالإضافة إلى التوجيه القرآن فى التزام «الحق» فإن القرآن يبرز «سنناً» وضعها الله لتطور المجتمع الإسلامى ، وأن هذه السنن ثابتة لا تتغير ، وأنها بمثابة «علامات» ومؤشرات وقوانين يمكن للفكر الإسلامى أن يهتدى بها ، وأن يستفيد منها ، ولكن لا يستطيع تغييرها أو القضاء عليها لأن الكون لابد له من قوانين تمسكه وآلية تحدد سيره . والمجتمع لابد له من ضوابط تحكمه وتربط مابين السبب والمسبب إن خيراً فخيراً ، وان شراً فشراً .

والقرآن يدعو المؤمنين لإحترام هذه السنن وملاحظتها ، والتعرف عليها والإفادة منها بطريقة لا تخل بها أو تسيء إليها .

﴿وإن يعودوا .. فقد مضت سنة الأولين﴾ . (٣٨ الانفال)

﴿لا يؤمنون به ، وقد خلت سنة الأولين﴾ . (١٣ الحجر)

﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولاتجد لسنتنا تحويلاً﴾ . (٧٧ الإسراء)

﴿سنة الله فى الذين خلوا من قبل . و كان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ .
(٣٨ الأحزاب)

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ .
(٦٢ الأحزاب)

﴿فهل ينظرون إلا سُنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ .(٤٣ فاطر)

﴿سُنة الله التى قد خلت فى عباده ، وخسر هنالك الكافرون﴾ . (٨٥ غافر)

﴿سُنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ . (٢٣ الفتح)

ومن السنن الإلهية أن كل شيء من ناحية القدر والحجم والكم «بقدر» مضبوط موزون . ومن ناحية الزمان بأجل . لايمكن أن يتغير ، وأى محاولة للإنسان للتغيير هى جهد ضائع ، أو إخلال بالموازين التى وضعها الله يبوء الإنسان بوزرها ، فالإنسان قد يستعجل وقد يستأخر ، وقد يستقلل وقد يستكثر ، ولكن الله تعالى وضع سنته على أساس قد لايلم الإنسان بحكمته ولكنه يتلائم مع أوضاع الكون والمجتمع ، وأقرأ إذا شئت .

﴿لكل أمة **أجل** ، فإذا جاء **أجلهم لا يستأخرون ساعة**﴾ . (٣٤ الاعراف)

﴿ويستعجلونك بالعذاب ، ولولا **أجل** مسمى لجاءهم العذاب﴾ .
(٥٣ العنكبوت)

﴿ماتسبق من أمة **أجلها وما يستأخرون**﴾ . (٥ الحجر)

﴿ما تسبق من أمة أجلها **وما يستأخرون**﴾ . (٤٣ المؤمنين)

﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ . (١١ المنافقون)

﴿فإذا جاء **أجلهم** لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ . (٦١ النحل)

﴿ماترك على ظهرها من دابة ولكن **يؤخرهم لأجل مسمى**﴾ . (٤٥ فاطر)

﴿إن **أجل** الله إذا جاء **لا يؤخر** لو كنتم تعلمون﴾ . (٤ نوح)

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى **أجل مسمى لقضى بينهم**﴾ . (١٤ الشورى)

﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم﴾ . (١١ يونس)

وكذلك .

- ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله **إلا بقدر معلوم**﴾ . (٢١ الحجر)

- ﴿وأنزلنا من السماء ماء **بقدر** فأسكناه في الأرض﴾ . (١٨ المؤمنون)

- ﴿إن كل شيء خلقناه **بقدر**﴾ . (٤٩ القمر)

- ﴿وكل شيء عنده **بمقدار**﴾ . (٨ الرعد)

- ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله **قدراً مقدوراً**﴾ . (٣٨ الأحزاب)

وهذه السنن تتناول الفرد الإنساني والحياة الدنيا كما تتناول الأسس التي يقوم عليها المجتمع والسنن التي تحكم الأكوان . والقرآن يضع خطوطاً عريضة لكل منها . فهذه السنن تعرض الإنسان ، كما جبله الله مخلوقاً خاصاً ليس بالملاك . ولا بالشيطان . وقد هداه الله النجدين ﴿فإما ما أعطي وأتقى وصدق بالحسنى **فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى**﴾ وهو ضعيف أمام المال والنساء والقناطير المقنطرةمن الذهب والفضة والخيل المسومه والأنعام والحرث . وهي تصوره عند السراء والضراء في الغنى والفاقة **﴿وإذا مس الإنسان الضُر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً . فلما كشفنا عنه** ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾ . (١٢ يونس)

- ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور﴾ . (٩ هود)

- ﴿ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولاً﴾ . (١١ الاسراء)

- ﴿وكان الإنسان اكثر شيء جدلاً﴾ . (٥٤ الكهف)

- ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ! وإن مسه الشر فيئوس قنوط ، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة﴾ . (٤٩ ، ٥٠ فصلت)

- ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ . (٥١ فصلت)

- ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً﴾ . (١٩ - ٢٠ المعارج)

- ﴿فأما الإنسان إذا ماأبتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه ربه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن﴾ . (١٥ ، ١٦ الفجر)

وهذه صورة دقيقة للإنسان وللطبيعة البشرية وكيف يحب المال حباً جماً ، ويأنس إلى الراحة والعافية وينفر من الفاقة والإبتلاء ، وينسى أيام الفاقة عندما يغتنى وتتمكله الأثرة والأنانية والحرص والشح . والشىء الوحيد الذى ينقذه من سيطرة هذه العوامل هو الإيمان . فبعد كل آية تصف إستسلام الإنسان لهذه القوى نجد الإستثناء «إلا المصلين أو «إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات» فالإنسان ليس ملاكاً طاهراً ولا هو شيطان أثيم ، ولكنه الكائن الذى تتوفر فيه ملكات القوة والضعف ، العفة والشهوة .. وتتيسر له هداية الأنبياء وغواية الشياطين .

ويتسق مع هذا التصور للإنسان التصور الذى يقدمه القرآن للحياة الدنيا .. فليست هى نسكاً وصلاة وابتعاداً عن مناشط الحياة الدنيا ، وليست أيضاً أستغراقاً فى الشهوات ، إنها إختيار دقيق فيمكن للإنسان أن يقبل التحدى وينتصر ، ويمكن أن يستسلم لضعفه وهواه . وهى مسابقة مابين الإخرة الآجلة . والدنيا العاجلة . الآدخار . والأستهلاك . وليس هناك قوه تحجر على الإنسان أو على حق خياراته .

﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين﴾ . (١٤٥ آل عمران)

﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً كُلا نمدُ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاءُ ربك محظوراً﴾ . (الاسراء من ١٨ – ٢٠)

﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب﴾ . (٢٠ الشورى)

وهذا تصوير منصف للحياة الدنيا لا يصدر إلا عن الإسلام فى تحريه الحقيقة الكاملة ، وهو يتفق مع تصوره للإنسان ، كما يتفق أيضاً مع ماسيورده من سنن المجتمع البشرى .

فالمجتمع البشرى كالفرد ، وكالحياة ، يمكن أن يكون مجتمعاً صالحاً ، متماسكاً ، إذا التزم بما وضعه الله من توجيهات .

﴿الذين إن مكناهم فى الأرض .. أقاموا الصلاة وآتو الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ . (٤١ الحج)

﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ .
(٢٢ محمد)

ويمكن لهذا المجتمع أن يسقط ويتحلل إذا سمح للمترفين بأن يحكموه ، ولابد أن يكون حكم هؤلاء المترفين نوعاً من الفسق أى الخروج عن الأصول . وعندئذ يحق عليها القول ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ .

ولئن كانت المسئولية الأولى فى هلاك هذا المجتمع تعود إلى الأمراء المترفين ، فإن جزءاً من المسئولية يقع على الجماهير ، لأنهم سلموا للأمراء ، وأطاعوهم ، ولم يعارضوهم بمختلف الوسائل .

﴿ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفون من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾ . (٧٥ النساء)

﴿قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ . (٩٧ النساء)

وصور القرآن الكريم حوار الجماهير والقادة .. الأتباع والمتبوعين ...

﴿وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ، قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص﴾ . (٢١ ابراهيم)

﴿وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار . قال الذين استكبروا إنا كلّ فيها إن الله قد حكم بين العباد﴾ . (٤٧ - ٤٨ غافر)

أما السنن التى وضعها الله تعالى لهذا الكون .. لكى يسير سيراً محكماً ومنظماً ... ولكى تؤدى دورها وتتماسك مع غيرها فإنها ذات أهمية خاصة فى كتاب عن عقلانية الإسلام ، لأنها بلغت الغاية من الإحكام الذى جعل كثيراً من كبار علماء الطبيعة يقفون ذاهلين أمامها ، ودفعت بعضهم لأعتناق الإسلام ، فالقرآن يتكلم عن الحركة المستمرة الدائمة «السباحة» التى تعم هذا الكون الذى يبدو جامداً دائماً . وكل شيء يسبح ويسبح ﴿كل فى فلك يسبحون﴾ .

﴿وآية لهم الليل نسلخُ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمسُ تجرى لمستقرلها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمَر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمسُ ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليلُ سابقُ النهار وكلّ فى فلك يسبحون﴾ . (٣٨ - ٤٠ يس)

فإذا قارنا هذه الآيات بما تضمنته الديانة المصرية القديمة أو الميثولوجيا اليونانية وضح الفرق بين عرض يقوم على الخرافة والتصورات الساذجة وعرض آخر موضوعى يستبعد الخرافة ويقوم على العقل . وهذه هى أهمية «السنن» التى عرضها القرآن إنها لا تتحدث بلغة العلم الأصطلاحى .. ولكنها تهيىء المناخ له بإستبعادها الخرافة من ناحية وقيامها على أصول

تتفق مع العلم حتى وإن لم تستخدم الأساليب العلمية الإصطلاحية فانها تصب في مجرى العقلانية .

★ ★ ★

ولقد كان مما داعب الفكر الإسلامى حيناً ما فكرة ان الله تعالى وهو خالق هذا الكون ، يستطيع بلا شك أن يفعل ما يشاء دون معقب ، فيمكن أن يجعل النهار ليلاً والليل نهاراً ، ويمكن أن يجعل الشمس تشرق من الغرب وتغرب من الشرق - الخ .. فظن البعض أن التركيز على السنن فيه نوع من الإنتقاص من القدرة الإلهية . وإن هذه السنن لا تؤدى عملها بحكم آليتها . فالنار لا تحرق والسكين لاتقطع إلا بإرادة الله ، وإننا إنما نقول تحرق وتقطع مجازاً . ولهم فى هذا عجائب وأفانين فأوقعوا الفكر الأسلامى فى مأزق كان لهم عنه غنى ، لولا التفيهق والتنطع وإيراد الأغاليط ، أو لولا التأثر برواسب الديانات السابقة التى تبرز الإله كما لو كان إنساناً فيه كل نزق الإنسان وإرادته وشهواته مع القوة التى تمكنه أن يفعل مايشاء . ان الإسلام لايبرز الله تعالى فى هذا الشكل ، بل هو يبعد عنه كل صور التجسيم ويراها وثنية . وفى الوقت نفسه يوضح لنا أنه خلق هذا الكون طبقاً لنواميس منحها صفة الثبات ، والحق والموضوعية . مما أشرنا إليه ، مما يستبعد أقل إثارة للعشوائية أو الهوائية ، وإن هذا لايمس قدرته الكاملة والمطلقة ، بل هو الأليق بها . وقد أورد القرآن العديد من الآيات التى تقرر هذا المعنى كما أشرنا إليه آنفاً ، وقد يورد تعبيراً مثل «كتب على نفسه» ﴿ كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ . (١٢ الانعام)

﴿سلام عليكم كتب على نفسه الرحمة﴾ ، أو يحيل التغيير إلى إرادة الناس بحيث يتجاوب التغير مع أعمالهم ، وكأنه يفوض ذلك إلى الناس أنفسهم ، وإلى ماوضعه الله من السنن دون أن يشير إلى إرادته الخاصة ، وإن كانت فى النهاية هى الحاكمة على كل شىء .

﴿إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ . (١١ الرعد)

﴿ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ماباأنفسهم﴾ . (٥٣ الأنفال)

﴿ولو شئنا لرفعناه بها .، ولكنه أخلد الى الأرض﴾ . (٣٥ الاعراف)

﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾ . (٥ - ١٠ الليل)

أو يربط إرادته تعالى بالأجل المحدد ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ .

وفي الحديث القدسى ان الله تعالى قال لشهيد (عبدالله بن عمرو بن حزام) شهيد أُحُد «ياعبدى تمن على أعطك» قال «يارب تحيينى .. فأقتل فيك ثانية ، قال «**إنه سبق منى القول**» انهم إليها لايرجعون قال يارب فأبلغ من ورائى ، فانزل الله عز وجل هذه الآية ﴿ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا﴾ . وكذلك ماجاء فى حديث قدسى آخر «ياعبدى أنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما .. الخ .» ومن ذلك أيضاً قوله ﷺ «إن الله لاينام ، ولا ينبغى له أن ينام» . لأن تعبير «لاينبغى له» قد يبدو مجافياً لما يليق بمقام الألوهية ، ولكن الرسول يقيس بعقل ومنطق البشر أمراً من أموره تعالى ، لأنه ليس من معيار آخر يمكن للأنسان أن يعبر به . والرسول فى هذا - ينسج على منوال الآيات التى جاءت فى القرآن مصدرة بتعبير «**وماكان الله**» **مثل** ﴿**وما كان الله** يضيع إيمانكم ، ان الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ . (١٤٣ البقرة).

﴿**وما كان الله** ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله ليعذبهم وهم يستغفرون﴾ . (٣٣ الأنفال)

﴿فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ . (٩ الروم)

فقد أوجب الله تعالى على نفسه هذا إتساقاً مع ما وضعه من أسس وسنن ومبادىء» .

فهذه كلها ارادات الهيه أرادها الله ليحقق مشيئته فى وضع الأمور فى هذه

الدنيا على نسق منتظم ، ومبادىء مقدرة ثابتة ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة ﴾ (٤٢ الانفال)

ويمكن للناس أن يقيموا تصرفاتهم وأعمالهم على أسس ، وليمكن ثوابهم وعقابهم .

★ ★ ★

وهكذا نرى أن الأصل الثانى للعقلانية الإسلامية هو الحرص على الموضوعية وملاحظتها . وأن هذا يكون بالإلتزام بالحق والإبتعاد عن كل المؤثرات الذاتية وعدم الأعتداد بها حتى لو كانت تمس الأقرباء أو الأعداء فمحبة القريب وعداوة الغريب يجب ان لا تحيف على الحقيقة .

والموضوعية الإسلامية تستقر على الحق الذى يمثل أعلى ما يمكن تصوره من موضوعية لأنه ليس فحسب منزل من الله ، بل هو يرمز إلى الله نفسه . إذ الحق من أسمائه تعالى ، وطبيعى أن يكون التلاعب فى مثل هذه الموضوعية أو الإنتقاص من موضوعيتها ، أقل مما هو بالنسبة لموضوعية أخرى يضعها الانسان نفسه أو القوانين التى يخطها وينفسح فيها المجال للتلاعب تبعاً للأغراض أو القصور البشرى .

كما يؤكد القرآن أن هناك «سنناً» وضعها الله لتطور المجتمع بمثابة القوانين التى تحكم تطوره وان هذه القوانين ثابتة وعلى الفكر الإنسانى أن يحترمها ويستثمرها دون أن يحاول تغييرها أو القضاء عليها .

ولا يتنافى مع هذا أن يكون لله تعالى قدرة وإرادة أبعد مما يمكن أن نفهمه ، وأعظم من أن نحكم عليه ، لأن كل منطقنا وعقلنا محكوم بقوانين الكوكب الأرضى . وكما ذكرنا فإن الأرض ليست إلا كوكباً صغيراً فى المنظومة الشمسية ، التى هى بدورها منظومة بجانب ألوف أو ملايين المنظومات الأخرى . ولم يرفض هكسلى ، وهو رائد العقلانية ، والعدو اللدود للكنيسة أن يوجد عالم لا تنطبق عليه القوانين التى تسرى على الأرض وقال .

.. وإن كنا على بينه تامة من إطراد النظام الطبيعى ، وإستمرارية الوضع الراهن للأمور ، فإن هذا لا يستتبع بالضرورة أن نجعل هذا تعميما لانهائياً ، أو أن ننكر على وجه الإطلاق أن يأتى وقت لا تتبع فيه الطبيعة النظام الموضوع ، وتكون العلاقة مابين السبب والأثر على غير النحو المحدد ، وتتدخل عوامل أعلى من الطبيعة فى السير العام لها . إن الحذر يحمل البعض لأن يروا أن عالماً يختلف عن عالمنا يمكن أن يوجد . ويمكن أن لايكون فيه ناتج جمع ٢ + ٢ هو أربعة ، ويمكن أن يتلاقى فيه خطان مستقيمان[١] .

ولم يستطع أينشتين أن يستوعب ما أثبتته رياضات الكوانتم ، ونتائج هيزنبرج من الخروج عن مبادىء الأنضباط الدقيق بقوانين عالم الذرات ، وما يعنيه هذا من تسلل عنصر من الخلل فى آليات النظام الطبيعى ، رغم أنه هو نفسه كان الذى وجه ضربة قاتله لفكرة «ميكانيكية» النظام الطبيعى التى جاء بها «نيوتن» ، ولكن عدم إستيعابه أو عدم ترحيبه بنتائج الكوانتم وهيزنبرج جاء لأنه يؤمن على حد تعبيره «**إن الله لا يقامر بالنرد**» كما جاء فى رسالته الى بورن بتاريخ ديسمبر سنة ١٩٢٦ ، وبالطبع فان الله تعالى لا يقامر بالنرد وقد وضع أسس النظام الطبيعى الراسخ الثابت الذى تمناه إينشتين ، ولكن إيمان إينشتين بالله هو إيمان عالم الطبيعة ، ويكاد يكون «بللورة» الطبيعة فى شكل الإله ، أو الإله فى الطبيعة – فهما واحد .. ومن ثم يكون كل خروج على آليات الطبيعة «مقامرة بالنرد» ولكنه لو آمن بالله كما يقدمه الإسلام ، لما رأى فى الأمر «مقامرة بالنرد » ولكن إشارة من الله تعالى ليرينا طرفاً من قدرة أعلى مما نتصور على سبيل الأستثناء ، وبغرض التذكر حتى لا يظن الناس إن المبادىء والسنن التى وضعها هو نفسه لتنظيم سر هذا الكون هى – وحدها دون أن تكون

---

(1) Huxley : Essays. Vol IV pp. 49 .

وراءها إرادة الله - التى تقوم بذلك ولهذا تظهر المعجزات قديماً .. أو يظهر فى صميم عالم الرياضة ما يجعل علماءها مبلسين . إن السموات والأرض مطويات بيمينه ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة فلا يمكن ان نقيد ارادة الله تعالى بمنطق بشرى ، وقد وضع للكون وللارض وللمجتمع الإنسانى سنناً وأوضاعاً تسير عليها ، ولكن يظل الامر من قبل ، ومن بعد ، لله رب العالمين .

الفصل السادس

المقوم الثالث : الخيرية والصلاح

تختلف العقلانية الإسلامية عن العقلانية التى تنبثق عن الحضارة الأوربية فى جانب هام ، هو أن العقلانية الإسلامية ملتزمة وليست طليقة ، فهى تتوخى الخير والصلاح ، وهى تربط مابين التوصل إلى المعرفة ، وحسن إستخدام هذه المعرفة ، فالإنسان القرآنى لا يقدح زناد فكره ، ولا يعمل ذهنه بنية سيئة أو لهدف ضار أو لكسب يستتبع أذى وضرراً للآخرين .

والعقلانية الإسلامية تعنى بالنية التى لا تحفل بها عقلانية المجتمع الأوربى ، وبوحدة الوسيلة والغاية ، وهى ترفض تماماً المبدأ الذى يبدو عقلانياً ، أو على الأقل يقوم على تبرير منطقى ، وهو «الغاية تبرر الوسيلة» .

وهذا طبيعى ليس فحسب بالنسبة للإسلام ، ولكن أيضاً بالنسبة لكل الأديان والكتب السماوية التى نجت من التحريف ، لأن الأديان كلها رسالات هداية وإنقاذ للبشرية من الضلال الذى يؤدى إليه إتباع الهوى والخضوع للإغراء .. إغراء الثروة وإغراء الشهوة وإغراء السلطة ، فلا يتصور أن تتضمن مسالكها للتوصل إلى الحقيقة سبلاً تؤدى إلى نقيض ماجاءت من أجله .

قد يقال إن هذا يمكن أن يكون قيداً على الفكر الذى لايزدهر إلا فى بيئة حرة تماماً .،، ولكن هذا ليس إلا خلطاً بين ما ينشده الإسلام ، ومايهدى الناس إليه .. وبين الحرية التى يسمح بها فى مجال الفكر ، فالإسلام لا يضع قيداً من أى نوع على الفكر ، وهو يدع كل الأفكار تنطلق ، لأن الفكر هو سبيل الإيمان فلا يمكن أن نسده ، ولأن الفكر هو معيار الدعوات فلا يمكن أن نجعلها معياره . وهو الذى يوضح الحق من الباطل . ويثبت أحقية الحق وبطلان الباطل . ومن هنا فإن الإسلام لايضع قيداً عليه ، وهو يتعامل مع الفكر بالفكر نفسه . فيدع الفكر السليم يفند الفكر السقيم ، ويضع الحق ليذهب بالباطل ، وهذا

هو مسلك القرآن الكريم مع دعاوى المشركين ، فإنه يوردها ، رغم أنها كفر مطلق ومساس بالله تعالى ، ثم لايعنى بتسفيه أحلامهم ، أو بتوقيع العقوبات عليهم ، ولكنه يضع الحجة فى مواجهة الحجة ، والدليل فى مواجهة الدليل .

ولكن الامر إذا خرج من نطاق الفكر إلى نطاق العمل ، فهنا يمكن للقانون ولوازع السلطان أن يتدخل ، وهذا أمر طبيعى ، فالفكر يجابه بالفكر . والعمل يجابه بالعمل . وإذا لم تتدخل السلطة لأدى ذلك إلى وقوع ضرر لايمكن اصلاحه ثم استشراء هذا الضرر مع عدم التدخل لدرئه .

والفكر ينتهى بنا إلى الوسائل التى يمكن أن تقوم عليها الصناعة أو الفنون . وهذا الفكر يكون حراً . ولكن عندما يراد تطبيق الوسيلة التى إنتهى إليها الفكر لإقامة صناعة خمور أو مخدرات أو استخدام تكنولوجيا الألوان فى عرض صور للحض على الفحشاء أو إشاعة القسوة والجريمة والإنحراف أو تمجيد الديكتاتورية والإستعلاء والأستغلال . فيجب بالطبع أن يتدخل المجتمع .

ومرة أخرى فإن الإسلام ليس وحيداً فى هذا المسلك فحتى أشد الدول تحرراً تجد نفسها مضطرة للتدخل لوضع الضوابط عندما تدفع الأهواء أو المكاسب الحرية بعيداً بحيث تهدد سلامة المجتمع وتهز الأسس التى يقوم عليها - فالفرق فى الدرجة .. وليس فى النوع .

والفرق الأعظم فى هذا الصدد مابين الإسلام وما بين المجتمعات العقلانية الأوربية أن الإسلام فى توجيهه وسياسته يعتمد على وازع القرآن اكثر مما يعتمد على وازع السلطان . وأنه يوجد «القلب السليم» الذى ينأى بطبعه عن الشر .. وأنه يربط المجتمع برباط من التكافل والأخوة ، بحيث يكون الإنحراف شذوذاً أو استثناءاً .. وإن كان فى المجتمع الأوربى - بدرجات متفاوتة ، قاعدة ودأباً .

وقد عجزت العقلانية الأوربية عن أن تلزم العقل الوقوف عند الخير ، وعدم تجاوزه للشر ، لأن الحضارة الأوربية حضارة وثنية طليقة جعلت الاهها

الإنسان ، وهدفها الأستمتاع ووسيلتها الحرية ، فلم تستطع بحكم هذه الطبيعة أن تخضع لقوة أعظم من الإنسان الاله .. ومن ناحية أخرى فلاحد لطُلعة الفكر البشرى وفهمه للمعرفة . وبحق قال الأثر إن طالب العلم كطالب المال ، منهوم لايشبع ولايقف عند حد . وقد بدأت مخايل العالم الأسطورى الذى يمكن للمعرفة أن تنتهى إليه . فيما أنتقل إلينا من الأساطير اليونانية ولكن العلم الحديث هو الذى كشف تلك العوالم التى استشفها الفكر اليونانى ، وبفضل هذه الطُلعه ، ظهرت الآلات والقوى المحركة ووسائل الإنتقال ، وتحقق للإنسان أن يطير كالطير ، ثم ظهر التليفزيون والكمبيوتر ... الخ .

وكانت هذه في مجملها مجالات خير ، وتقدم للبشرية ، ولكنها فى حالات أخرى جاوزت حدود الخير إلى الشر أو وقفت عند أبوابه ...

وفى أحدى الروايات السينمائية فى الخمسينات عن « القارة المفقودة » « أطلانتس » صور الفنان الأوربى المدى الذى وصلت إليه المعرفة فيها عندما جعلت حكيمها يمسخ الأسرى إلى وحوش ! فيجعل من واحد خنزيراً ويجعل من آخر ذئباً ومن ثالث نمراً ومن رابع حماراً .. ولم يتصور الفنان الأوربى وجود حاجز أخلاقى يحول دون هذا الفعل . ومع أن هذه المقدرة لحسن الحظ لم تتحقق حتى الآن ، إلا أن تقدم العلوم يمكن أن يفسح مجالاً لشىء يماثل مامارسه حكيم اتلانتس . فتوصل الإنسان إلى بعض أسرار الوراثه وشفرتها مكنه من أن يعربد ويعبث فى هذا الهيكل المقدس . ، وهو لم يدخل حتى الآن علنا جسم الإنسان ، ولكنه يجرى تجاربه على الحيوان ، وقد يمكنه ان يوجد حيوانات بخمسة أرجل أو ثلاثة عيون .. أو يمكنه مضاعفة قوة حيوان أو تعقيمه أو العبث ماشاء الهوى بخصائصه وملكاته ..

ونحن لانعلم على وجه التحقيق ما إذا كانت مثل هذه التجارب قد أجريت على آدميين . ولكن من المعروف أن الأطباء والعلماء مارسوا خلال الحرب العالمية الثانية وسواء فى ذلك أطباء الحلفاء أو المحور تجارب على الأسرى أو المحكوم عليهم بالموت . وقد يمكن القول إنها وصلت إلى آخر المدى بحكم

العداوات التى تحكمت فى الفريقين المتحاربين وقتئذ وأن الذين أجريت عليهم التجارب كان مقضياً عليهم بالموت على أى حال .

إن عالماً يمكن فيه للنزق الإنسانى أن يتحكم فى الطبيعة البشرية والقلب البشرى ، والجسم الإنسانى .. ويجعل كل هذه المقدسات فى خدمة الهوى والأغراض لهو العالَم الذى يمر فيه الحى بالميت فى قبره .. فيقول يا ليتنى كنت مكانك ...

ويماثل هذا ما يقال عن قنابل ميكروبات تعيد مرة أخرى عهد الكوليرا أو الجدرى وبقية الأوبئة التى كانت لعنة العالم القديم وتخلصت منها البشرية بفضل العلم الحديث ، ولكن العلم الحديث نفسه ، يعود مرة أخرى ، فيعيدها وينشرها .

ومع بداية القرن بدأ علم النفس يتلمس طريقه إلى أعماق النفس ، وفى أغوار «اللاشعور» وقدم «فرويد» تحليلات وآراء لا تخلو من وجاهه ، ولكنه كبقية أصحاب النظريات يمضى بأفكاره إلى ما يجاوز الإعتدال وأفسحت علوم النفس المجال للعالم الروسى «بافلوف» ليصل إلى صورة من تكييف طبع الحيوان ، وأستطاع زبانية ستالين الأستعانة بهذه الأبحاث لأفساد النفس البشرية والتأثير على معنويات الإنسان بحيث جعلوا من أبطال الثورة الشيوعية ، ورفاق لينين يعترفون على أنفسهم أنهم جواسيس فى محاكمات موسكو الشهيرة سنة ١٩٣٦ . والتى صورها بقلم الفنان الروائى المجرى الشيوعى المرتد «آرثر كوستلر» فى روايته «ظلام فى الظهيرة» وكان هذا مفتاحاً تلقفه النازى ، ثم تناوله صلاح نصر وأمثاله ، وبهذا عادوا بالبشرية إلى إحدى الوصمات التى ظُن إن البشرية (أو على الأقل المجتمع الأوربى) تخلص منها مع بداية القرن ، وهى وصمة التعذيب ، مع إضافة هى إستخدام العلم والمعرفة بأعماق النفس البشرية والجسم البشرى لزيادة التعذيب والوصول بالألم إلى أقصى حالاته ، أو إذلال النفس بحيث تفقد آدميتها وإنسانيتها ، وقد حدث هذا بالفعل فى هذا البلد عندما نكبت بصلاح نصر وأمثاله من مسوخ البشر والكتب العديدة التى

صدرت عن التعذيب فى السجن الحربى والتى كان ضحيتها الإخوان المسلمين والشيوعيين على السواء أكدت هذا المعنى على إختلاف مؤلفيها ..

ومادمنا بصدد إستعمال العلم لخدمة الخسة والنذالة فلا بأس من الإشارة إلى إستخدامه لإشاعة الفحشاء عن طريق الأفلام الجنسية التى توجد فى كل المجتمعات الأوربية والأمريكية ، وتتفاوت هذه الأفلام بحيث يصبح أشدها عهراً ما يؤشر عليها بثلاثة علامات من علامة الضرب (× × ×) ممارسات جنسية متصلة . والغريب ان هذا نفسه يزهد المشاهدين فيها ، فإنها مجردة تماماً من أقل إثارة فنية ، وإنما هى ممارسات حيوانية تثير بعد فترة «القرف» والإشمئزاز ، ولهذا فقلما يغشاها إلا أفراد معدودون على الأصابع معظمهم من كبار السن ، ولا يقاس روادها برواد السينما العادية . وقد حد هذا بالطبع من أثرها السيء . ولكن يحتمل أن تتطور الأمور ، وان يضفى المخرجون لهذه الأفلام طابعاً من الرومانتيكية على أفلامهم بحيث تجذب أعداداً أكبر دون أن تتخلى عن طابعها الجنسى .

وإذا كانت أفلام الجنس لاتزال محدودة الأثر فى الدول الأوربية ، وغير مسموح بها فى بقية دول العالم ، فإن القسوة تكاد تكون طابعاً دائماً لمعظم أفلام العالم . فالضرب والركل والصفع وإطلاق النار ، ومختلف صور العدوان هى نسيج الفيلم الأمريكى ولا مكان فيه لشيء اسمه «الحلم» أو «التغاضى» أو «التسامى» أو «العفو» ، ولا جدال فى أن هذا يغرس فى نفوس المشاهدين الذين يمكن أن يكونوا أطفالاً . الطبيعة العدوانية والجرأة على المقدسات والكرامات .. وسيادة حكم الباع والذراع واستخدام الأسلحة النارية .

وما يقال على السينما يقال على الصحافة التى كان يمكن ان تكون مدرسة الشعب ونافذته الحرة المفتوحة على الثقافة . إن انعدام عنصر «الخيريه» فتح الباب على مصراعيه لنوازع الربح ، أو الشهرة أو السبق **فظهرت الصحافة الصفراء** ، **وصحافة الجنس** ، **وصحافة الابتزاز وصحافة الاستثارة وحازت على اكبر نسبة فى التوزيع وأعلى عدد من القراء** . وقد يصور اتجاه

وسياسة هذه الصحافة ما نشرته جريدة اخبار اليوم القاهرية يوم ٨٧/٩/٢٦ عن «ملكات الفضائح الأمريكية لعام ٨٧» وقدمت ثلاث عشيقات «انهالت العروض عليهن من السينما والتليفزيون والناشرين والصحف» الاولى هى فاون هول سكرتيرة وعشيقة الكلونيل أوليفر نورث بطل فضيحة «ايران جيت» . التى عرض عليها ٥٠٠ الف دولار لكتابة قصة علاقتها بنورث بالاضافة الى ٥٠٠ الف اخرى لقاء نشر صورة عارية لها ! و الثانية هى دونا رايس عشيقة السناتور جارى هارت التى اودت فضيحتها معه بمستقبله السياسى وعرض عليها المبلغ نفسه لقاء نشر قصتها وصوره عارية لها ! والثانية جيسكا هان عشيقة القس الدعىّ جيم باركر الذى جمع ثروة طائلة بدجله ، وطالما ندد بالاسلام والمسلمين ، حتى افتضحت علاقته بعشيقته - فجرد من رتبته الكنسية وقبلت عشيقته أن تروى قصتها معه ، وان تصور عارية لقاء مائة الف دولار .

فهذا الحرص على إشاعة الفحشاء واشباع الفضول في أسوأ أشكاله بالكلمة والصورة .. يدل على جريرة الصحافة ومدى ما يمكن ان تنتهى اليه عندما تتجرد من عنصر «الخيرية» .

وأخيراً فإن انطلاقة العقلانية الأوربية التى لا تحد ولا تجد ضابطاً أو هادياً . عاثت فساداً فى الكون نفسه ، فى الأرض والسماء .. البحار والأنهار والأشجار . بحيث أصبحت الكرة الأرضية كوكباً موبوءاً ، سممت أرضه وأنهاره وبحاره ، ثم تصاعد الأفساد حتى جاوز طبقات الجو وأفسدت طبقة الأوزون ، فأصبحت الأرض معرضة لأشعاعات خطرة ..

لقد ثبت بمالا يقبل شكاً ، وما نشاهده بعيوننا كل يوم أن انطلاقة العقل البشرى في مجالات النفس البشرية والجسم البشرى ، وفى مجالات الموارد الطبيعية ، وإضرام العنان لأحط نزعتين فى الإنسان : القسوة والشهوة .. كل هذا أصبح يهدد المجتمع الإنسانى ، بل وكوكب الأرض نفسها وما عليها من أحياء وما يحيط بها من أجواء .. بالفساد والتدهور وما أصبح المشكلة المستعصية للحضارة الأوربية .

ومما لا يكاد يصدق أن تنفق الدول الكبرى على وسائل الحرب والخراب وإشاعة التعاسة والشقاء أضعاف ما تنفقه على وسائل السلام والبناء وإشاعة السعادة والهناء ، وأن تدمر الطيبات من الرزق ، فتقذف بها إلى البحر ، أو تطعمها الحيوانات ، بينما يموت الملايين فى آسيا وأفريقيا جوعاً .

إن من المستحيل تبرير مثل هذه الحماقات فى عالم عقلانى إلا بسيطرة الشر وسلطان الظلام . ولو تحلت العقلانية الأوربية بضوابط الإسلام وهداياته أو توخت الخيرية كما توختها العقلانية الإسلامية ، لتغيرت صورة العالم ، ولأصبح عالماً سعيداً يعمه الرخاء ، لأن كل ما ينفق على التخريب والتدمير ، وإشاعة القبح والدمامة والفُجْر والشهوات سينفق على البناء وإشاعة الخير والسلام والجمال ..

إن الفصل مابين السياسة والدين الذى دعا إليه نيقولا ميكافيللى فى القرن الخامس عشر ثم الفصل مابين الإقتصاد والدين الذى دعا إليه آدم سميث فى القرن السابع عشر ، ومن خَلَف هذين المفكرين من مفكرين عمقوا هذه المفاهيم أدى فى النهاية إلى إعتبار الخير أو الطيبة فى مجالى السياسة والإقتصاد نوعاً من السذاجة أو الغفلة ، أو البلاهة – وأعتبرت «العاطفية» فى دوائر الفكر الشيوعى سبة وضعفاً يستبعد صاحبها من القيادة ، وأصبحت كلمة «يوتوبيا» التى أريد بها التوصل إلى دولة مثلى ترادف الخيال العقيم . ووضعها ماركس فى مواجهة «الإشتراكية العلمية» التى وإن أسهمت فى تقدم الفكر السياسى ، إلا أنها جرت الويلات ، وأدت إلى ظهور الحكم المطلق فى روسيا ثم ألمانيا وإيطاليا وفى النهاية أوقعت بالبشرية اكبر مجزرة فى التاريخ ، أى الحرب العالمية الثانية ، وأخيراً اعلنت إفلاسها .

إن هذا كله قد لا يكون من العقلانية بالضرورة ، وأى عقلانية تستبعد الطيبة والخير من ضوابطها لابد أن تلقى بأيديها إلى التهلكة ، وأن تضع نفسها تحت رحمة سلطان الظلام ، ولن تهنأ بما تحققه من فتوح وإنجازات فى المجالات الآخرى .

الصلاح .. والبعد عن الفساد :

يوضح تقصى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مدى الأهمية التى تعلقانها على توفر عنصر «الخير» و «الصلاح» و«الصالحات» و «الطيبات» فى كل ما يصدر عن الإنسان من أعمال أو ما تتسم به السياسات والخطط والنظم . وفى حقيقة الحال فإن الإسلام يقرن ما بين الإيمان والعمل الصالح ويعتبرهما وجهان لعملة واحدة . فلا يذكر الذين آمنوا ، وما اكثر ما ترد فى القرآن ، إلا ويورد معها «وعملوا الصالحات» . فالعمل الصالح ثمرة للإيمان ، ومن ثم لابد وأن يكون «صالحاً «طيبا» «طاهراً» .. وفى الوقت نفسه فإن هذا العمل نفسه هو مصداق للأيمان ودليل على حرية إيمان المؤمن . وهذه العلاقة تكفى وحدها لجعل «الخيرية» والصلاحية أحد مقومات العقلانية الاسلامية بصفة عامة ومطلقة .

وتعد كلمة الصلاح ومشتقاتها من الكلمات القرآنية وقد وردت بمعنى الإصلاح والصلح والصالحات والمصلح والمصلحين ، وهى فى أصلها اللغوى تعنى الكفاية واللياقة والصحة .. وجاء القرآن فأضفى عليها طابع الخيرية .. ويقابل ذلك كلمة الفساد ومشتقاتها .

ولا يتسع المجال لإيراد نصوص القرآن عن ذلك لأنها بضع مئات - وقد ذكرت الصالحات ٦٢ مرة ، بينما ذكرت الصلاة ٦٧ مرة ، والصالحات ليست إلا أحدى مشتقات مادة الصلاحية والصلاح .

ولكن قد يوضح مقصد القرآن وفكرته عن هذا المقوم من مقومات منهجيته إشارات مثل ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾ أو ﴿اخلفنى فى قومى ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ ، ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون منها بغير حساب﴾ ﴿ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور﴾ ﴿ أم حسب الذين أجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم﴾ ..

وكذلك :

- ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويُشهدُ الله على مافى قلبه ، وهو أَلدُّ الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض **ليفسدَ فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد** ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ . **(٢٠٤ - ٢٠٦ البقرة)**

- ﴿إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لايحب الفرحين ، وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك **ولاتبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين**﴾ . ٧٦ - ٧٧ القصص)

وقد يتحدث القرآن عن الخير مرادفاً للصالح والصالحات .

﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ماتكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير﴾ . **(١٤٨ البقرة)**

- ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون **فى الخيرات وأولئك** من الصالحين﴾ . **(١١٤ آل عمران)**

- ﴿ولتكن منكم أمة **يدعون إلى الخير** ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ . **١٠٤ آل عمران**

- **﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات** وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾ . **(٧٣ الأنبياء)**

- ﴿أولئك يسارعون فى **الخيرات وهم لها سابقون**﴾ . **(٦١ المؤمنون)**

إن أهمية هذه الضوابط ازدادت فى العصر الحديث بقدر ازدياد قوة العلم المحايدة والتى يمكن أن توضع فى خدمة الخير كما يمكن أن توضع فى خدمة الشر .

الباب الثالث

القضايا الأربع التى تطرحها العقلانية على الأديان

الفصل السابع : وجود الله تعالى . وذاته

الفصل الثامن : خلود الروح . والبعث بعد الموت

الفصل الثامن : خلود الروح . والبعث بعد الموت

الفصل التاسع : الدار الآخرة . والثواب والعقاب

الفصل العاشر : النبوات وقيامها على الوحى

القضايا الأربع التى تطرحها العقلانية على الأديان كانت موضوعات لكتب مستقلة مسهبة . سواء فى ذلك وجود الله تعالى أو عالم الروح .. أو الدار الآخرة .

من أجل ذلك حَذِرَ الباب أن يغرق فى محيطات التفاصيل والجزئيات التى لا يتسع لها المجال ، والتى تؤثر على شمول الصورة الكلية لكل قضية . وفى الوقت نفسه فإنه تصدى لجوانب عديدة فيها أغفلتها معظم الكتب أو آثرت لدواعي الأمان أن تسلك المسلك التقليدى ، ومن ثم يمكن القول إن طريقة معالجته لهذه القضايا فريدة من نوعها . وقد تعرض الباب الأول لقضية وجود الله تعالى وأبرز أنها كانت مغروسة فى النفس البشرية ، والمجتمعات الإنسانية وأن الخلاف كان حول « الذات الإلهية» التى لابد وأن تضل فيها الأفهام ، وأورد وجهات نظر ديكارت ووليم جيمس وبعض النظريات الحديثة ، ثم تحدث عن دليل الجمال ، ودليل القرآن وفند وجهة نظر الشكاكين مثل « رسل » وفرويد وغيرهما .. .

وفى القضية الثانية الموت - وخلود الروح حلل الفصل عملية الموت .. ثم عرض لوجهة نظر علم الأحياء من الخلية إلى الروح وأورد دليلاً على أن العقل البشرى والإرادة البشرية ليس لها أعضاء جسدية . وأن البحث عن العقل فى المخ هو كتصور المبرمج نفسه جزءاً من الحاسبة الألكترونية . وإذا كان العقل والإرادة غير ماديين فإنهما لا يخضعان بالموت للتحلل الذى يطرأ على الجسم والدماغ .

وانتقل الفصل إلى الأرواح فعرض لبعض التجارب فى هذا المجال . وبعث صفحات مطوية منها محاولة « أديسن » وضع آلة بالغة الدقة يمكن أن تنقل ما قد تريد الأرواح الإدلاء به . كما تحدث عن تجربة « شيرلى ماكلين » .

ومع أن معالجة القضية الثالثة الدار الآخرة والثواب والعقاب .. والجنة والنار لم تكن مسهبة كالفصلين السابقين ، إلا إنها تميزت بطابع من الجدة والأصالة وأوردت تصورات لم تذكر من قبل ، ولم يتردد أمام نقاط يعرضها المستشرقون أو تخطر للبعض دون أن يفصحوا عنها دون أن يجدوا لها تفسيراً مقنعاً مثل النعيم « الحسى » فى الجنة والعذاب « الوحشى » فى النار ...

أما بالنسبة للقضية الرابعة . إنكار النبوات ، فلم يكن هناك إشكال فالأنبياء بلغوا من الامتياز على القادة والفلاسفة والحكام - كما امتازت الأديان على بقية الدعوات والأفكار - بما لا يمكن تفسيره إلا وجود « وحى » خاصة وأن هذا لا يتنافى مع العقلانية وإن كان جديداً عليها ، ومما لا يدخل فى أدواتها ووسائلها ... .

ويتميز الباب عن الأبواب السابقة بتمهيد مسهب له هو الذى يتلو هذه الكلمة

★ ★ ★

تمهيد :

أربع قضايا رئيسية جعلت العقلانية تنعزل عن الأديان وتتخذ منها موقفاً يتفاوت ما بين العزوف .. والهجوم هى :

أ - وجود الله تعالى ، وما يتصل بهذه القضية من صفات الله وذاته الخ ...

ب - خلود الروح .. والبعث بعد الموت ..

جـ - وجود دار آخرة .. ثواب وعقاب .. جنة ونار .

د - النبوات . وقيامها على « الوحى » .

وهذه القضايا الأربع توجد فى كل الأديان السماوية على سواء وإن اختلفت درجة التركيز والعناية بقضية منها دون الأخرى أو طريقة معالجة إحداها .. وتصويرها ..

أسباب هذا الموقف من العقلانية :

هناك أسباب عديدة لهذا الموقف من العقلانية تختلف فى طبيعتها وتتفاوت فى دواعيها منها :

١ – أن العقلانية ترتبط بطريقة معينة فى الإستدلال أبرز خصائصها أنها حسية – مادية تعتمد على الحقيقة العملية التى يمكن لمسها باليد ، أو رؤيتها بالعين أو سماعها بالأذن ، أو ترتكز على بدائه لا خلاف عليها ، كما هو الحال فى الحساب أو الهندسة . ولاتتعدى وسائل العقلانية فى الإستدلال ثلاث : الأولى الحواس . والثانية النظر الرياضى / الحسابى والثالثة التجريب فى المختبرات والمعامل . وبهذا يمكن لها أن تنتهى إلى نتائج محددة ومبادىء ثابتة . كان يكون مجموع ١ + ١ = ٢ أو أن المعادن تتمدد بالحرارة ... وأن الماء يتجمد بالبرودة الخ ...

ولا يجدى شيئاً القول إن العقلانيين أنفسهم قد استبانوا قصور الحواس وخداع النظر ، وأن وسائلهم العلمية والرياضية تنتهى إلى نتائج تختلف أو تتناقض مع ما تظهره الحواس ، لأن المنهج العقلانى ارتبط بالمحسوس منذ نشأته . وأصبح عنصراً مطبوعاً به . ورد الفعل التلقائى لديها هو رفض كل ما وراء ذلك . وعندما عرض مكتشف الفرملة الهوائية إختراعه هذا على « الكومدور » « فاندربلت » قطب صناعة السكك الحديدية صاح به « هل تريد أن تقول إن الهواء يستطيع أن يوقف قاطرة بخارية تسير بسرعة ثلاثين كيلو متر ؟ ومن قبل طلب فرعون من وزيره أن يبنى له برجاً يبلغ به أسباب السماوات ليطلع على

إله موسى ، وبهذا المنطق نفسه قال رائد الفضاء الروسي إنه لم يجد الله ... ولو كان لديه فكرة عن « الجنة » لقال إنه لم يجدها في أي مكان من السماوات العلا .

وما دام « الله » و « الروح » وعالم ما بعد الموت ... ليس محسوساً أو مما يمكن أن يوزن أو يقاس أو يقبض باليد أو يبرهن عليه بمعادلة رياضية ، فسترفض العقلانية التقليدية الإعتراف به . وعندما تلتزم الدقة فإنها تقف موقف « اللاأدرية » . لأنها لا تستطيع أن تنفي وجوده على سبيل القطع . وسيغلب عليها المقولة التي نقلها القرآن عن أشباه لهم . ﴿ وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا .. نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ... ﴾ .

٢ – كانت أوربا التي انبثقت منها العقلانية الحديثة – « وثنية » فلم تعرف من أيام اليونان والرومان « الله » الذي تنزلت به الأديان السماوية ... وإنما كان آلهتها أناساً ... وأبطالها آلهة . وهي نزعة تتفق مع اتجاه التجسيم الحسي . قدر ما تبتعد عن التجريد المطلق وكانت هذه النزعة في أصل الإضافة التي قدمتها الحضارة الأوربية ألا وهي الحرية لأن تأليه الإنسان يفسح المجال أمام إرادته ... ويجعلها قانوناً ويبعد كل الضوابط أو التوجيهات التي يوجبها الإيمان بالله ، والحرية إحدى متطلبات العقلانية التي تحققها الوثنية – بمعنى تأليه الإنسان – أكثر مما يحققها أي دين سماوي .

ويقترن بهذا ، ولو في اللاشعور الخفي ، إحساس الإنسان الأوربي بأن الدين قيد على حريته في الإنطلاق على أهوائه سواء كانت الأهواء استمتاعاً بالشهوات أو الإستخدام الطليق للقوة وهذه وتلك من أبرز سمات الحضارة الأوربية المعاصرة التي تجد جذورها في الحقبة اليونانية / الرومانية للحضارة الأوربية وتظلل فروعها المجتمع الأوربي في الحديث .

وهذا العامل وإن لم يكن موضوعياً إلا أنه كان عظيم التأثير على العقلانية – وكاد أن يكون عاملاً وراثياً في النفسية الأوربية ، ينعكس على تصرفاتها وتوجهاتها – ولا تستطيع التحرر منه .

٣ – إن ما تضمنته الكتب السماوية لدى الأوروبيين ، أعنى التوراة والإنجيل من تحريفات وادعاءات وقصص كانت كافية وزيادة لكى ينفض العقلانيون الأيدى منها . وتكفى نظرة سريعة على ما تضمنته بعض صفحات « العهد القديم » من مخاز نسبت إلى إله إسرائيل ... أو أنبيائهم للحكم بأنها لا يمكن أن تكون قد صدرت عن إله حكيم ، أو حتى إنسان سوى لديه أقل إحساس بالشرف مما جعل أحد الكتاب يقول عن داود إنه رجل « ترفض أن تصافحه » . أما ما جاء خاصاً بالتاريخ أو الجغرافيا ، فقد يبرر ما قاله فولتير عن أن الله لم يكن قوياً فى الجغرافيا !!

حقاً إننا لا نجد هذه المخازى الجنسية والسياسية والخرافات التاريخية والجغرافية فى الإنجيل الذى يدور حول أفكار سامية . ولكن العقلانية اصطدمت بعقبة كؤود لم تسغها . وجعلتها فى النهاية تنفض منه اليدين ، تلك هى فكرة الآله الشخصى وما وضعته من لاهوت غامض مبهم لا يمكن معاملته عقلانياً لتبرير وجود أو للبرهنة على هذا الإله . ولو قدمت الأناجيل المسيح كرسول ونبى لما كان للعقلانية ما تعترض عليه – حتى وإن لم تستطع أن تثبته بوسائلها . والكنيسة – بعد – اعتبرت أن العهد القديم يعد أصلاً فى العقيدة المسيحية .

وعندما قضت الكنيسة على المذاهب المسيحية التى كانت ترى فى المسيح رسولاً وليس إلهاً . فإنها قطعت العلاقة ما بينها وبين العقلانية ... فضلاً عن أن الذين أرادوا الإصلاح مثل « مارتن لوثر » و « كالفين » لم يتعرضا لهذه النقطة وشنا حرباً على المخالفين . فبسط كالفين جو الإرهاب على جنيف ، ووقف مارتن لوثر مع النبلاء ضد الفلاحين فى ثورة الفلاحين واستخدمت الكنيسة أتباع الراهب المتصوف المتجرد صاحب الشفافية والإنسانية « فرانسيس الازيسى » ليقوموا بمجازر ضد الفئات التى انشقت على المذهب البابوى المقرر ...

ولا يقل من هذا أثراً فيما يتعلق بموقف العقلانية موقف الكنيسة فى قضية دوران الأرض . وإصرارها على خطأ ذلك وتمسكها بأن الأرض ثابتة . واضطهاد كل العلماء والمفكرين الذين آمنوا بدوران الأرض طوال ثلاثة قرون . وقصة دوران الأرض أو ثباتها ليست من الدين فى شىء ، ولا يعنى تمسك الكنيسة بها إلا الغباء الذى كان لابد وأن ينال ازدراء العقلانية .

أضف إلى ذلك محاكم التفتيش البابوية الرهيبة - والأحكام بالموت حرقاً على الألوف المؤلفة بدعوى الهرطقة أو السحر ، وما مارسته الكنيسة من وسائل التعذيب المروعة وإقناعها الرهبان بأنهم يؤدون مهمة مقدسة إلى الدرجة التى جعلت أحدهم يشعر بتأنيب الضمير لأنه أعفى بعض الأطفال الصغار من التعذيب وما مارسته الكنيسة على الفكر والبحث وتأليف الكتب من رقابة حديدية .

إن المحرقة التى نصبتها الكنيسة لعشرات الألوف من المخالفين وفنون التعذيب المروعة فى سجون محاكم التفتيش وقفت سداً بين العقلانيين - والإيمان بدين تمارس مؤسسته هذه الجرائم ، وأصبح هذا العداء تقليداً تتوارثه أجيال العقلانية جيلاً بعد جيل ، وكان من العمق بحيث استحال أن ينسى أو يُغتفر .

٤ - لم تجد العقلانية فى دراساتها للأديان الأخرى - خلاف اليهودية والمسيحية - ما يمكن أن يصحح فكرتها عن الدين . فالديانة المصرية القديمة وديانة الآشوريين وديانة اليونان والرومان ... كلها تقدم الله فى صورة الأجداد أو الحيوانات المقدسة أو القوى الطبيعية أو تنسب إليه كل النزق الإنسانى والضعف البشرى .

ولم تكن الديانات الهندية التى ظفرت ببعض العناية بأفضل من سابقاتها ففيها طبقية قاتلة أو صوفية مغرقة وربطت دراسات أخرى مابين الدين و« الفولكلور » فى المجتمعات البدائية فأكدت لهم هذه الدراسة ما وجدوا أنفسهم مدفوعين للإيمان به من أن الأديان كلها أقرب إلى الخرافة .. منها إلى الحقيقة .

ومن نكد الدنيا ان الدين الوحيد الذى كان يمكن أن يصحح لهم المفاهيم .. وهو الإسلام - كان مجهولاً لديهم - فقد نجحت الكنيسة من أيام الحروب الصليبيه فى أن تسدل ستاراً كثيفا عليه وأن تحجبه عن الفكر الأوربى ، وتلاقت السياسة والكنيسة والأطماع الاستعمارية والغرور الأوربى الذى يعتبر الحضارة إرثاً أوروبياً بدأ مع اليونان ثم الرومان ثم « الرينسانس » فالقوميات والفترة المعاصرة وأدت فى النهاية لحصر الوعى الحضارى لدى الاوروبيين فى أنفسهم وفى الحضارة الاوروبية وحدها :

وبهذا لم ير العقلانيون الاوربيون دينا دون كنيسة أو صورة لله تجمع بين التجريد والحياة والكمال والأطلاق . ولم يسمعوا بمواقف محمد إزاء المخالفين له فى العقيدة أو حتى المحاربين له . ولم يخطر ببالهم نظام كالبيعة أو سياسات كسياسات الخلفاء الراشدين أو « ديمقراطية الجامع » فى المدينة المنورة التى فاقت « ديمقراطية السوق » فى أثينا . لأنها ضمت الرقيق والنساء . وعندما سمحت ظروف العصر الحديث للأوربيين بالتعرف على الإسلام - كانت المجتمعات الإسلامية قد وصلت إلى درك الانحطاط والتخلف فكانت أسوأ دعاية للإسلام . وأعطت الفكر الأوربى - مع قلة المراجع والكتابات أو ندرتها - انطباعاً سيئاً - لم ينج منه إلا القلة التى تحررت من التحيزات وتحملت مشقة البحث عن الحقيقة وبادر بعض هؤلاء إلى إعلان إسلامهم بينما صرح آخرون أنهم - وإن آمنوا بالإسلام فإن القطار قد فاتهم أو أنهم لا يستطيعوا إعلان ذلك لأسباب تتعلق بالظروف العامة أو الأوضاع الخاصة .

★ ★ ★

إن هذه العوامل كلها - أعنى :

أ - إرتباط العقلانية بالنزعة الحسية أو الرياضية التى تبعدها عن عالم الله .. والروح .. وما وراء الموت .

ب - التحريفات والمخازى والمخالفات الفاحشة ، فيما يتعلق بالخلق والتاريخ والجغرافيا التى تضمنها « العهد القديم » والتعقيد اللاهوتى فى فكرة الثالوث والإله الشخصى .

جـ - ما حفلت به الأديان الوثنية القديمة من خرافات وترهات ، وجهل العقلانية الأوربية بالدين الذى كان يمكن أن يصحح لها الصورة - وهو الإسلام .

د - المحرقة التى نصبتها الكنيسة للمخالفين ، وصور التعذيب المروعة فى محاكم التفتيش وما فرضته الكنيسة على الفكر من إرهاب وموقفها من قضية دوران الأرض وما حفلت به من فساد فى بعض فترات تاريخها .

هذه الأسباب كلها أبعدت العقلانية الأوربية عن الدين وأوجدت كراهة عميقة تتزايد بقدر إيمان بعض العقلانيين بجدية الفكر وبلغت هذه الكراهية درجة أبعدت بعضهم ليس فحسب عن الحياد - أو الموضوعية - ولكن عن المنطق العقلانى نفسه .

وعندما يقول جوليان هكسلى ..

« .. وفى النهاية .. فإننا نجد المفارقة المجيدة . إن تلك الآلية غير القصدية ، بعد ألف مليون سنة من عملياتها العمياء والآلية ولدت « القصد » كأحد الصفات الخاصة التى تنسب إلى نوعنا - وبأدائها لهذا ، كأنها جاوزت نفسها » [1] .

---

(١) أنظر مقالاً فى مجلة the Rationalist Annual بقلم جوليان هكسلى بعنوان « تبرئة الداروينية The Vindication of Darwinsm ص ٨٧ عدد ١٩٤٦ .

فإن هذا الكلام – يلقى حكماً على عواهنه خلال « ألف مليون سنة » دون أى إثبات ، بل باعترافه هو بأنها « مفارقة مجيدة » و« جاوزت نفسها » .

وأسوأ من هذا .. وأبعد .

« لو جلست ستة من القردة على الآلة الكاتبة ، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين – فلا نستبعد أن نجد فى بعض الأوراق الأخيرة التى كتبوها قصيدة من قصائد شيكسبير . فكذلك كان الكون الموجود نتيجة لعمليات عمياء تدور حول المادة لملايين السنين » .

فهذا الإفتراض الذى تكذبه كل قوانين الإحتمالات ما كان يمكن أن يتقدم به هكسلى ، لولا أن الصورة التى قدمتها الكنيسة ، وما حفل به العهد القديم من مخاز كانت أسوأ ، وأن جوليان هكسلى هنا يكرر ما فعله جده « توماس هكسلى » ١٨٢٥ – ١٨٩٥ . صديق داروين ونصيره فى المناظرة الشهيرة التى جرت بينه وبين ويلبر فورس ممثل الكنيسة عندما سأله « إلى أى فصيلة من القرود ينتمى ؟ فقال هكسلى : « إنه يفضل أن يكون سليلاً لأى فصيلة من القرود على أن يكون دجالاً يستخدم ذكاءه فى التضليل والخداع » .

وكان الحفيد وهو رأس من رؤوس العقلانية فى غنى عن افتراض المستحيل ، كما كان الجد فى غنى عن أن يتقبل أن يكون سليلاً للقرود لو انفسح المجال لمعالجة القضية معالجة موضوعية ، ولكن وجود الكنيسة ومواقفها نقلت الموضوع نقلة ذاتية أصبح النكران فيه أفضل الأمرين .

ولم يقتصر هذا المسلك على هكسلى ، إذ أصبح التحيز ضد الدين صفة لصيقة بالعلماء فى فترة ما ... لأن مواقف الكنيسة أصبحت فى حكم الأمر المقرر والدائم ، ولأن الكنيسة هى صوت الدين والممثلة له ، وبالتالى لم يجد

العلماء خياراً ولم تستطع أن تتحرر من هذا المسلك إلا قلة تحملت عناء ومشقة البحث عن الحقيقة ، فلما بلغتها اعترفت بتحيزها السابق « التقليدى » ضد الدين .

وقد قال أحد هؤلاء وهو إدوارد لوثر كيل أستاذ علم الأحياء بجامعة سان فرنسيسكو « » لو أن جميع المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيز الذى ينظرون به إلى نتائج بحوثهم ، ولو أنهم حرروا عقولهم من سلطان التأثير بعواطفهم وانفعالاتهم فانهم سوف يسلمون دون شك بوجود الله . وهذا هو الحل الوحيد الذى يفسر الحقائق فدراسة العلوم بعقل متفتح سوف تقودنا دون شك إلى إدراك وجود السبب الأول الذى هو « الله » .

وسنرى فى تفصيل مناقشة كل قضية من القضايا الأربع كيف أن العقلانية المزعومة تأثرت بعوامل ذاتية ولم تكن « عقلانية تماماً » .

الفصل السابع

القضية الاولى : وجود الله تعالى وذاته

القضية الأولى والرئيسية هي ما يتعلق بالله تعالى . وهي بدورها تنقسم إلى شقين : الأول وجود الله تعالى والثاني ذاته وصفاته ومع أن هذه القضية بشقيها **هي القضية الرئيسية بين القضايا الأربع التي تطرحها العقلانية على الأديان .** فإن التدليل عليها أسهل من التدليل على القضيتين التاليتين ، لأن وجود الله ، عندما يتجرد من الغشاوات التي ألحقت بها دون أن تكون في صلب الدين المنزل . وعندما تتحرر من سيطرة المؤسسة « المؤسسة الدينية » المنتفعة . **تصبح قضية عقلانية بل يصبح الله تعالى هو – بتعبير بعض المفكرين – العقل الكوني .**

ومن ناحية أخرى فإن القضية كانت – ولا تزال – من الأهمية بحيث فرضت نفسها على المجتمع الإنساني من نشأته الأولى حتى الآن ويصعب الزعم أن موضوعاً له هذه الصفة لا يكون له أصل حقيقي ، إذ ما الداعي ، إذا لم يكن له أصل ، أن يفرض نفسه على الإنسان البدائي وعلى الفيلسوف المعاصر ... وبأي تفسير نبرر تسليم الثالوث الفلسفي القديم سقراط وأفلاطون وأرسطو . والثالوث الفلسفي الحديث – ديكارت وكانت وهيجل .

لقد ظن بعض الكتاب أن هذه النقطة نفسها يمكن أن تكون أساساً للإدعاء **بأن الله « مخلوق إنساني » . إذ نجد أن صورة الله لدى الإنسان البدائي تتلاءم**

مع مستوى فكره وأن الصور التى نجدها فى الحضارات القديمة - كالحضارة المصرية - والحضارة اليونانية حتى الحضارة الرومانية ، بما فى ذلك الحضارة الهندية ... كلها صور وثنية تتجسم فى حيوانات أو أجداد أو طبيعة (شمس - بحر الخ ...) ولكن هذا الظن يخلط بين شِقّي القضية - أى وجود الله تعالى ... وتصور ذاته وصفاته. فكل المجتمعات توصلت إلى وجود الله واهتدت إلى فكرة وجود خالق ، واستبعدت ، على سذاجتها ، فكرة الوجود التلقائي أو الوجود مصادفة ولكنها أخطأت فى تصوير ذات الله . وكان لابد أن تخطيء في هذا إذ لم يكن ممكناً أن تتوصل إلى تصور أعلا من مداركها ... فضلاً عن أن العقل الإنساني وإن رفض - في مرحلة نضجه - هذه التصورات البدائية ، إلا انه يعجز عن التصور « الإيجابى » الكامل لذات الله . وكان لابد من « وحى » ينقل الى الإنسان شعاعاً من شمس الألوهية الباهرة التى لا يستطيع الإنسان التوصل إليها .

ولو جاز أن يتوصل العقل الإنسانى إلى ذات الله ، لما كان هناك حاجة إلى الأديان السماوية ... أوالى الرسل .. أو الوحى ولأصبح من الممكن أن يقوم الفلاسفة بهذا - ولكن الفلاسفة عجزوا من سقراط حتى هيجل عن تقديم صورة تماثل ما جاء به الوحى حتى وإن اقتربت كثيراً منه .

وهكذا تتضح القضية - فإن فكرة وجود الله كانت ولا تزال مغروسة فى الفطرة الإنسانية - وقد صاحبت الإنسان من ظهوره - وتضمنتها كل الحضارات منذ ظهور المجتمع الإنسانى وعلى اختلاف أوضاعها ومواقعها ونظمها وطرق إنتاجها ... الخ . ولا يمكن تعليل هذه الظاهرة إلا بأن لها أصلاً - وما اخطأته هذه الحضارات هو تصور ذات الله تعالى وصفاته . وهو أمر لا نجادل فيه . بل نسلم به ونرى أنه المبرر لظهور الديانات السماوية التى تقدم ما يمكن للعقل البشرى استيعابه من تصور لذات الله . فإذا قيل إن السذاجة أو حتى الخرافة قد صاحبت تصور ذات الله فى بعض الأديان السماوية .

كاليهودية أو المسيحية قلنا إن هذا ليس من حقيقة اليهودية أو المسيحية ، ولكنه التحريف الذى زحف عليها . وهو تحريف ثبت يقيناً بما لا يمكن الشك فيه واعترف به كل الدارسين للتوراة والأناجيل . فضلاً عن أنه الأمر الطبيعى فى أى دين يوجد به « المؤسسة الدينية المنتفعة » وهو ما ينطبق على المسيحية واليهودية . ونحن هنا لا نقول إلا ما أكده الباحثون الأوربيون أنفسهم – وما تقضى به طبائع الأشياء – إذ ليس من المعقول أن يحتفظ نص بحروفه ومضمونه الدقيق على مدار ثلاثة آلاف سنة أو يكون ما كان عليه عندما يتعرض للترجمة لا مرة واحدة ، ولكن عدة مرات . وقد اتهمت الكنيسة الكاثوليكية لوثر بأنه أجرى قرابة ثلاثين تحريفاً فى نصوص الكتاب المقدس ليتفق مع مذهبه .

الفلاسفة يثبتون وجود الله :

كانت نقطة انطلاق الفلاسفة التى أدت بهم إلى التسليم بوجود الله هى الخلق واستبعادهم أن يوجد هذا الكون تلقائياً أو مصادفة ومن ثم عليهم أن يسلموا بوجود « علة أولى » بلغة المناطقة أو « قوة خفية » بتعبير هربرت سبنسر ، أو « التطور الخالق » كما يقول برجسون . ولم يسمح لهم منطقهم أو فلسفتهم بأن يذهبوا إلى ما وراء ذلك .

وفى الوقت نفسه فقد شذ بعض المفكرين ، وظنوا أن الإيمان بالله عند عامة الناس إنما يعود إلى جهالتهم بالأسباب فينسبون إلى الله الإصابة بالأمراض أو إسقاط المطر أو إحداث الرعد والبرق والصواعق ... فإذا أثبت العلم أن الأمراض تعود إلى « ميكروبات » وأن الأمطار والرعد والبرق والصواعق لها أسبابها التى كشف عنها علم الفلك انتفت الحاجة إلى « إيجاد » إله يعزى إليه القيام بها .

وعبر عن هذا المعنى أوجست كونت عندما قال .

« إن الإعتقاد فى إرادات أو ذوات عاقلة لم يكن إلا تصوراً باطلاً نخفى وراءه جهلنا بالأسباب الطبيعية . أما الآن وكل المتعلمين من أبناء المدنية الحديثة يعتقدون بأن كل الحوادث العالمية والظاهرات الطبيعية لابد أن تعود إلى سبب طبيعى وأنه من المستطاع تعليلها تعليلاً مبناه العلم الطبيعى - فلم يبق من فراغ يسده الإعتقاد بوجود الله - ولم يبق سبب يشوقنا إلى الإيمان به ... » (١) .

وهو المعنى الذى صوره « الزهاوى » فترة إلحاده .

لما جهلت من الطبيعة أمرها وأقمت نفسك فى مقام معلل
أثبت ربا تبتغى حلاً بـه للمشكلات - فكان أكبر مشكل!

ولكن اكتشاف الأسباب الطبيعية لا يغلق الكتاب ولا يحل المشكلة كما تصور أوجست كونت - لأن العقل البشرى سيسأل عن السر وراء هذا التصرف من الطبيعة - فضلاً عن أن كلمة « الطبيعة » تجريد - فيه من الإبهام ما لا يمكن تعليق الأحكام . وكما قال أحد الكتاب فى تعليق على كلام أوجست كنت إن موضع الضعف فيه .

« ينحصر فى الإعتقاد بأنه لا يوجد فى الكون من شيء يحتاج إلى تعليل أكثر من وصل الحلقات المتفرقة فى سلسلة الظاهرات الطبيعية التى يتألف منها الكون المادى فى مجموعة بعضها ببعض فى حين أن السلسلة فى مجموعها - باعتبارها كلا متواصل الأسباب لم يعرف سببها الأول (٢) » .

ولما كانت الأسباب الطبيعية قد عجزت عن تعليل ذلك . فإن الإحتمال

(١) أنظر بحثاً للأستاذ إسماعيل مظهر فى افتتاحية العدد الصادر فى ١٥ يوليو ١٩٤٧ عن مجلة المقتطف بعنوان « الله وفكرة الألوهية أو الربوبية » ص ٨٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٧ .

الوحيد أمام العقل هو وجود إرادة يعود إليها السبب . ولابد أن تكون هذه الإرادة من القوة والحكمة بحيث تكون قادرة على خلق هذه الظواهر – أى لابد من « الله » ، فألفة العقل » تقتضى وجود الألوهية .

ولا يمكن التساؤل عن السبب في وجود الله لأن هذا سيؤدى بنا إلى ما يسميه المناطقة « الدور » الذى لا ينتهى ولا يحل المشكل ويصبح أقرب إلى العبث لأنه يضحى بالواقع فى سبيل جدل منطقى مظنون .

لقد حاول أوجست كونت وضع أسس ديانة إنسانية تقوم على المعنويات والمحبة وتستهدف التقدم ولا تدين لكنيسة أو تؤمن بإله فوق البشر (١) . وحاول أن يطبق هذه الفكرة فى بريطانيا تلميذه المخلص فردريك هاريسون الذى ظل رئيساً للجمعية الوضعية فى بريطانيا طوال عشرين عاماً . وكان هاريسون شخصية بارزة فى المجتمع البريطانى المثقف . وناصر كل قضايا العدالة كالحركة النقابية البريطانية . وكان أحد الذين احتجوا على ضرب الأسطول البريطانى للإسكندرية فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وتبرع بالدفاع عن عرابى .

فماذا كانت نتيجة كفاح وجهاد هذين المفكرين البارزين ؟ لا شىء تقريباً ، وقد وصف هكسلى محاولة كونت بأنها « الكاثوليكية مطروحاً منها المسيحية ! » كما وضعت بياتريس وب ، صديقة فردريك هاريسون الحميمة ، والتى كانت نفسها تبحث عن عقيدة وإيمان الديانة الإنسانية بأنها « جهد باسل لإيجاد ديانة من لا شىء ، ومحاولة تستحق الرثاء والعطف من البشرية البائسة لتدير رأسها وتعبد ذيلها » .

وما حاوله أوجست كونت فى القرن الماضى دون توفيق يحاوله جوليان هكسلى فى هذا القرن ، دون توفيق أيضاً ، فهو يريد ديناً دون وحى ، ودون

---

(١) قيل إن أوجست كونت انتهى إلى أن الإسلام أقرب الديانات إلى العقلانية . ولم يكن لهذا مردود عملى ، لأن الجو الذى أحاط به لم يكن ليسمح بذلك ، وشأنه شأن ، بورجيه ، الذى ألم بامتياز الإسلام آخر عمره ، وبعد أن فاته القطار .

إله . وما من دين يمكن أن يكون دون وحى .أو دون إله ، إنه لا يكون ديناً . وإنما نظرية إنسانية ولابد - فى هذا المجال - أن يكون مصيرها الفشل .

وفى الإتحاد السوفيتى أيضاً وجدت مع أوائل القرن جماعة باسم « الباحثين عن الله » بذلت جهدها للتوفيق بين فكرة الله والماركسية ، ولكن الجماعة اختلفت وانبثقت عنها مجموعة جديدة لا تعمل للبحث عن الله .. ولكن لبناء الله ! .

والفرق بين الإتجاهين هو فى مفهوم الله فى كل اتجاه ، فالباحثون عن الله ظلوا مرتبطين بالفكرة المسيحية ، أما البناة فإن الله - فى نظرهم - لم يوجد بعد .. ولكن جهد الإنسانية الجماعى يجب أن يبنى إلهاً جماعياً إشتراكياً سامياً ، ووجدت هذه النظرية فى المفكر الإشتراكى « بوجدانوف » رفيق لينين القديم ظهيراً وفيلسوفاً ، كما فتنت عدداً آخر من الشيوعيون القدماء وأيدها الكاتب مكسيم جوركى « الذى كان قد آثر الإعتكاف فى كابرى عندما صدمه العنف الذى اتسمت به الثورة ، وكان تأييد جوركى لهذه النزعة من القوة بحيث أكسبها اسم « مدرسة كابرى » .

وباستعراض قائمة الفلاسفة من سقراط حتى الفترة المعاصرة ، نجد أنه لم يشذ عن الإيمان بالله إلا قلة وقفت حائرة ، تُرْجع البصر ليعود إليها البصر وهو حسير . أما الأغلبية فآمنت ، فقد آمن سقراط وأفلاطون وأرسطو ، كما آمن روسو ، بالله وخلود الروح والثواب والعقاب ، ولم يجد « لوك » تنافراً ما بين الوحى والعقل وارتأى أن التوفيق بين الدين والفلسفة أمر ميسور ، وكان « هوبز » مسيحياً ملتزماً . وكان كانت مؤمنا بالله ، ووضع دليله المشهور لذلك ، كما قامت فلسفة هيجل على أساس وجود الله . وسنعالج فى الفقرات التالية أفكار بعض الفلاسفة بالنسبة لقضية وجود الله .

مدخل ديكارت :

يستحق ديكارت اهتماماً خاصاً باعتباره المفكر الذى نهّج الوصول إلى الحقيقة نابذاً وراء ظهره كل الموزوثات ، وجاعلاً الشك طريق اليقين ورائداً للعقلانيين جميعاً .

وفى كتابه « التأملات » جاء ديكارت بمدخل جديد يقلب رأساً على عقب كل دعاوى العقلانيين المزعومة ، فقد ذهب إلى أن « **الميتافزيقيا » علم دقيق يمكن إثبات قضاياه بيقين رياضى وصرح فى الرسالة التى كتبها فى ١٥ إبريل سنة ١٦٣٠ إنه اهتدى إلى « السبيل إلى البرهنة على الحقائق الميتافيزقية ببراهين هى أكثر بداهة من براهين الهندسة » ويقول فى موضع آخر « ثق أنه ليس فى الميتافيزيقيا شىء إلا اعتقد أنه واضح كل الوضوح للنور الفطرى ويمكن أن يبرهن عليه برهنة دقيقة وإذن فالميتافيزيقيا علم يعادل فى يقينه علم الهندسة ، إن لم يزد عليه »** وهى أكثر يقيناً من الهندسة « لأن طائفة كبيرة من الحقائق الميتافيزيقية يمكن اكتشافها قبل أن يرفع الشك عن حقائق الرياضيات (١) .

إن الهدف الأعظم لديكارت كان الوصول إلى اليقين ولم يكن المقصود من الميتافيزيقيا الديكارتية إثبات وجود النفس والله أصلاً وإنما الاعداد للمعرفة . والمعرفة العلمية على وجه الخصوص ، ولهذا فإننا نرى فيما ذهب إليه منهجاً علمياً ثورياً يخالف كل المناهج السابقة التى كانت تستبعد « الميتافيزيقيا » من إطار الإستدلال العلمى . وإنما وصل ديكارت إلى هذا لأنه رأى أن الشك فى حقيقة الأشياء الحسية معناه العدول عن كل معرفة لا تكون قائمة على حدس من حدوس العقل . والحدس عند ديكارت عبارة عن الرؤية العقلية المباشرة التى يدرك بها الذهن بعض الحقائق فتذعن لها النفس – وتوقن بها يقيناً لا سبيل إلى دفعه .

فالحدس نظرة من نظرات العقل بلغت من الوضوح مبلغاً يزول معه كل شك . والحدس عقلى لا يتعلق بالحواس ولا بالخيال ، إنما يتعلق بالذهن – بل الذهن الصافى . وبهذا المنهج فإن ديكارت الرياضى وجد أن فكرة الله

---

(١) كتاب التأملات فى الفلسفة الأولى لديكارت – ترجمة الدكتور عثمان أمين – مكتبة الانجلو ص ١١ .

فى مثل وضوح قاعدة هندسية « مجموع زوايا المثلث يساوى قائمتين ، والله موجود – هما قضيتان متعادلتان فى اليقين » [1] .

وحدد ديكارت تصوره لله تعالى « أقصد بلفظ الله جوهراً لامتناهياً أزلياً – منزهاً عن التغيير – قائماً بذاته محيطاً بكل شيء قادراً على كل شيء ، خالداً – ثابتاً قد خلقنى أنا وجميع الأشياء » ويستطرد – وهذه الصورة قد بلغت من العلو قدراً يجعل من المستحيل أن أكون قد اكتسبت من نفسى الفكرة التى لدى عنها – ولذلك فإن هذه الفكرة لا يمكن أن يكون قد وضعها إلا جوهر لا متناه حقاً وإذن فالله موجود [2] .

ويرفض ديكارت فكرة « وحدة الوجود » لأن الله هو خالق لمخلوقاته لا متحد بها – ويتجلى حضوره فينا بما نستشعره من حاجة دائمة إلى بلوغ الكمال [3] .

إن كتاب التأملات « لديكارت » يمكن أن يكون أفضل إثبات لوجود الله يأت به فيلسوف العقلانية الحديثة وهو يفضل كثيراً الأسلوب الذى انتهجه فقهاء علم الكلام الإسلاميين الذى يعود إلى أصول المنطق الأرسطى ولهذا يصدق عليه ما قاله ديكارت على الكنيسة « لقد كان رأيى دائماً أن مسألة الله والنفس أهم المسائل التى من شأنها أن تبرهن بأدلة فلسفية خيراً مما تبرهن بأدلة اللاهوت » حتى وإن لم يكن علم الكلام « لاهوتاً » خالصاً كاللاهوت المسيحى ، وإنما يفضل المنهج الديكارتى غيره لأنه اتسم بالبساطة التى كثيراً ما تصطحب بالحقيقة عندما اعتبر الحدس العقلى والبداهة بالنسبة لوجود الله . فاقترب بذلك كثيراً من فكرة « الفطرة » التى اعتبرها الإسلام أصلاً من أصول الإعتقاد وسبيلاً للإيمان بالله .

---

(١) المرجع السابق ص٢٥

(٢) المرجع السابق ص١٢٤

(٣) المرجع السابق ص٢٢

منطق وليم جيمس :

وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) كما هو معروف مبدع نظرية « البراجماتيزم » أو « الذرائع » وهي تذهب إلى أن جدوى الأفكار والنظم إنما تقاس بمدى فعاليتها العملية . فما يثبت أنه مفيد وعملي فهو صالح والعكس بالعكس . وقد تعرضت هذه الفكرة لنقد قاسي - خاصة من أنصار « المبدئية » أي الذين لا يقيسون المبادىء بنفعيتها ، ولكن بأصالتها وحقيقتها . وقد يظن أن وليم جيمس سيكون آخر من يدافع عن الأديان ، وبالذات فكرة « الإعتقاد » و « الإيمان » ولكن الواقع غير ذلك . فإن منطقه العملي أدى به إلى التسليم **بأن الفائدة العملية للإعتقاد بصفة عامة والإعتقاد في الله بوجه خاص لابد وأن يكون وراءه أصل حقيقي لا مزعوم أو متخيل .**

فدخل الأديان من باب المنافع والمصالح - وبالنسبة للإسلام فإن هذا مدخل غير مرفوض - لأن من المسلم به أن المصلحة من مقاصد الشريعة ، وأن الإسلام لم يتجاهل المنافع بل أقرها حتى في شعيرة مثل الحج ، وأن الرسول أرسل للناس « ليحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » .

ولا ريب أن دفاع جيمس عن الدين حتى من هذا المدخل يعد دليلاً على صحة الأديان وسلامتها . لأنه عندما يقوم بذلك فإنه يستخدم أدلة قد يكون الناس أكثر استعداداً لقبولها وفهمها ، ليس فحسبب في اللغة ولكن في الهدف أيضاً . فهو يتكلم بلغة مفهومة ولهدف مطلوب .

وفي كتابه « إرادة الإعتقاد » انتقد وليم جيمس بقوة الماديين أصحاب العقول التي « لا تقبل من الحقائق إلا ما كان محسوساً » ويستطرد .

«والمعشوق الأوحد لهذا النوع من العقول هو ذلك البناء المسمى «بالعلم» وأقرب الطرق عندهم وأسهلها لقتل مالا يؤمنون به من

آراء هو أن توصف بأنها آراء « غير علمية ». ولكن لابد من الإعتراف بأنه ليس هناك اننى سبب لهذا . حقا لقد قفز العلم فى الثلثمائة عام الأخيرة قفزات عظمى يفخر بها . ومد من أفق معرفتنا بالطبيعة مدأ عظيماً فى مجموعها وفى تفاصيلها . ولقد سمعت عدة من الأساتذة يقولون إن العلم قد أوجد الأصول والقواعد النهائية للحقيقة . ولم يترك للمستقبل إلا النظر فى التفاصيل » .

ولكن وليم جيمس يرى مع هذا أن معرفتنا ليست إلا قطرة من بحر هو جهلنا . ومهما يكن من اليقين أو من عدمه حول كثير من الأشياء فإن هذا القدر على الأقل – يقينى – وهو أن عالم المشاهدة محاط بعالم آخر أكبر منه – ولكننا لا نعرف فى الوقت الحاضر شيئاً عما يتصف به من صفات إيمانية .

تعترف اللاأدرية الوضعية بهذا المنطق – ولكنها ترفض أن تطبقه على الناحية العملية . إذ تقول تلك النظرية ليس لنا من حق فى أن نتوهم – أو أن نفترض أشياء فى ذلك الجزء الخفى من العالم لمجرد أن ذلك الوهم أو هذا الإفتراض قد يبدو محققاً لأغراضنا العليا . فلابد أن ننتظر دائماً قبل أن نعتقد حتى نجد البراهين الحسية المبررة للإعتقاد وإذا لم يكن لمثل هذه الأدلة من وجود ، فليس لنا أن نفترض فرضاً ما . ذلك طبعاً موقف سليم على وجه عام . فإنه إذا لم يكن للمرء غرض ما من وراء العالم الخفى ، وإذا كان لا يجد إليه من حاجة ماسة ، ولا يعنيه أن ينسجم أو لا ينسجم معه ، فإن خير الطرق وأحكمها بالنسبة له هو حالة الحياد وعدم الإعتقاد لا فى هذا ولا فى ذاك ، ولكن الحياد على الرغم من أنه صعب المراس من ناحية نفسية ، هو كذلك غير ممكن التحقيق فى هذه الحالة ، حيث أن الأمر المخير فيه أمر حيوى وعملى بالنسبة لنا . وذلك لأن الإعتقاد والشك كما يخبرنا علماء النفس أمران حيويان يستلزمان منا عملاً . فمثلاً

طريقنا الوحيد للشك أو لرفض الإعتقاد في وجود شيء ما هو أن نستمر في حركاتنا وتصرفاتنا كأنه لا وجود له . فإذا رفضت أن اعتقد أن جو الغرفة أصبح بارداً فانى أترك النوافذ مفتوحة ولا أوقد فيها ناراً كما أفعل لو كنت أعتقد أن جوها لا يزال دافئاً . وإذا شككت في إنك من الأشخاص الذين لا يوثق بهم . فانى أكتم عنك جميع أسرارى ، كما أفعل لو علمت أنك لست مجالاً للثقة . وإذا ترددت في أن منزلى يحتاج أن يؤمن عليه فإنى أدعه غير مؤمن عليه . كما أفعل لو علمت يقيناً أنه ليس هناك من حاجة للتأمين . كذلك إذا لم أعتقد أن هذا العالم عالم إلهى ، فليس لذلك من مظهر إلا الإمتناع عن التصرف على أنه إلهى ، وليس لهذا من معنى إلا التصرف بالنسبة للأمور الخطيرة المهمة كأنها ليست بالخطيرة أو التصرف على نحو غير دينى . من هذا يتبين لك أن عدم الفعل هو نفسه فعل في بعض الأحيان . ولابد أن يعتبر كذلك وإذا لم يكن الفعل من أجل شيء فإنه لابد أن يكون من ناحية عملية ضد ذلك الشيء ، وفي جميع هذه الحالات ، لا يمكن وجود حياد تام غير متردد فيه .

وبعد كل هذا أليس القول بوجوب الحياد في حين أن ميولنا النفسية تؤدى بنا إلى الإعتقاد ، قولاً في غاية من الحماقة ؟ أو ليس القول بأنه لا يمكن أن تكون هناك صلة بين أغراضنا النفسية وقوانا وبين القوى الموجودة في العالم الخفى مجرد يقين خاطىء لا دليل عليه ؟ فلقد برهن التنبؤ المبنى على الإتجاهات والميول النفسية على صحة نفسه في كثير من الأمثلة الأخرى . أنظر إلى العلم نفسه ، فمن غير أن تكون لنا ميول نفسية تستدعى بالضرورة انسجاماً منطقياً ورياضياً في هذا العالم فإنه يكون من العسير علينا أن نذهب لنبرهن على وجوده بين ثنايا ذلك العالم الطبيعى الفج وفجواته ، ويندر أن يوضع قانون علمى يتيقن بحقيقة ما فيه ، من

غير أن يكون كل ذلك مسبوقاً ببحث ، غالباً ما يكون شاقاً ومصب ليرضى حاجة نفسية ويشبعها . ولكنا لا ندرى من أين أتت تلك الحاجات النفسية ، إنا نجدها فينا فحسب وليس لعلم النفس البيولوجى من مجهود نحوها إلا أن يضعها فى دائرة واحدة مع « الإختلافات العرضية » موافقاً فى ذلك داروين . ولكن للحاجة النفسية إلى الإعتقاد فى أن هذا العالم المشاهد ليس إلا مجازاً لعالم آخر أكثر روحانية وابدية من القوة والسلطان على نفوس هؤلاء الذين يشعرون بها مثل ما للحاجة النفسية إلى اعتقاد الأطراد فى قوانين السببية والمسببية من قوة وسلطان على عقول العلماء الفنيين . ولقد برهن مجهود المتعاقب من الأجيال المختلفة على أن هذه الحاجة الأخيرة حق وعلى أنها صحيحة فى الواقع فلماذا لا يمكن أن تكون الأولى صحيحة أيضاً ؟

وإذا ما صح كل ذلك فى العالم المشاهد ، فلماذا لا يصح فى العالم الغائب ولا يكون دليلاً على وجوده أيضاً ؟ وباختصار ، من هو الذى يحق له أن يمنعنا من أن نثق فى ميولنا ومطالبنا الدينية ونصدقها ؟ ليس للعلم كعلم أن يزعم هذه السلطة لنفسه ، لأنه لا يتحدث إلا عن الموجود بالفعل ، وليس له شأن بغيره ، وأما قول اللاأدريين « ليس لك أن تعتقد من غير أن تكون لك أدلة حسية قاطعة » فليس إلا تعبيراً (لكل إمرىء الحق فى أن يعبره) عن اتجاه خاص ورغبة شخصية فى أدلة من نوع خاص .

ويستطرد وليم جيمس « ولكن إذا افترضنا أنا لانقدر أن نتأكد من ذلك فهل معنى ذلك أنه ليس لنا أن نثق ، وأن الثقة أو التصديق ليست إلا أحلاماً وخديعة من أحلام البله والمغفلين ، أو ليست إلا مكاناً يلجأ إليه الكسالى من الناس ، أو أنها بالعكس لا تزال اتجاهاً

حيوياً قوياً لكل منا أن يتجه إليه وينغمس فيه ؟ إننا طبعاً أحرار فى أن نثق وفى أن نصدق ما نشاء ، ما دام غير محال فى نفسه ومادمنا نجد من الأشباه والنظائر ما يؤيده . والآن كل ما يشهد للمذهب المثالى من الأدلة المختلفة يبرهن على أن العالم المادى ليس هو العالم المطلق وأن القول بأن حياتنا المادية كلها لابد أن تكون مشربة بجو روحى ، ومختلطة بنوع من الوجود ليس لدينا الآن من القوى ما نعرفه بها ، تمكن البرهنة عليه » [١] .

إن المنطق النفعى لوليم جيمس فى البرهنة على وجود الله لا يبخس من قيمته ، لأن هذا المنطق - كما ذكرنا مقبول من وجهة نظر الإسلام - ولأنه سائغ مقبول ولأنه أحد المداخل التى يمكن منها الوصول إلى موضوع لا يمكن معاملته « عداً ونقداً » أو بمنطق الحواس من رؤية أو لمس ... لأننا إذا سددنا مثل هذا المنفذ الفلسفى والعلمى ، فلا يبقى إلا ما طالب به المشركون وما يتناقض مع جوهر الموضوع « أرنا الله جهرة !! » .

وخلاصة فكر وليم جيمس فيما يتعلق بالله تعالى تحمله الكلمات التالية « إنه يبدو لى أيضاً - وتلك هى نتيجتى النهائية - أن العالم الخلقى المستقر المنظم الذى يبحث عنه الفيلسوف الخلقى لا يمكن أن يوجد كاملاً إلا حيث توجد قوة مقدسة ذات مطالب عامة شاملة . فإذا وجد مثل هذه القوة . فإن منهجه [٢] فى إخضاع أحد المثل للآخر يكون المنهج الصحيح لتقدير القيم ، وتكون مطالبه أبلغ أثراً ويكون عالمه المثالى أكثر العوالم ممكنة التحقيق شمولاً وإذا كان موجوداً الآن فلابد أن يكون قد علم بالفعل تلك الفلسفة الخلقية التى نبحث عنها ، وعلم أنها النموذج الذى يجب أن نعمل للوصول إليه دائماً لذلك ينبغى لنا ،

(١) إرادة الإعتقاد ترجمة الدكتور محمود حب الله مطبوعات الجمعية الفلسفية المصرية - القاهرة ١٩٤٦ صفحات ١٢٩ - ١٣٣ بتصرف .

(٢) تعود إلى « العالم الخلقى » - ص ١٠٦ .

كفلاسفة ومن أجل تحقيق غاياتنا من إيجاد نظام أخلاقى واحد أن نفترض وجود الإله ، وأن نتمنى انتصار الدين على اللادينية » .

ومن رحمة الله بالبشرية أنه لم يدع الأمر وقفاً على إرادة الفلاسفة وتمنياتهم التى كان يمكن أن لا تجد اهتماماً ، أو أن تعصف بها الريح . إن ما تمناه وليم جيمس كان هو – بالفعل – الأمر الواقع . وقد استهدفت ثورتان كبيرتان ، مدفوعتان بمختلف الدوافع التى ارتؤى وقتئذ أنها تمثل التقدم الأمثل – الإطاحة بالأديان . وأثبت التاريخ أن ما ظن تقدماً لم يكن إلا وهماً من أوهام المنظرين – وأنه أساء إلى البشرية أضعاف ما نُسب إلى الدين من إساءة . فقد أوجد آلهة مزيفة . وادعى كتباً مقدسة وأوجد كنيسة من نوع خاص . ثم انتهى بالفشل . وعادت الكاثوليكية إلى فرنسا بعد أن خبت الثورة الفرنسية ، وعادت الأرثونكسية والإسلام إلى الإتحاد السوفيتى بعد أن أعلن إفلاس الماركسية اللينينية و « ثورة أكتوبر المجيدة » .

العلم الحديث يثبت وجود الله :

كان الفيلسوف هوايت قد تنبأ بأن العلم الذى سحق اللاهوت المتعسف فى الماضى سيسير فى المستقبل مع الدين جنباً إلى جنب ، وبينما يتضاءل نفوذ اللاهوت يقوى الدين وينمو فى ثبات [1] وقد صدقت هذه النبوءة ربما بدرجة أكثر بكثير مما تصور هوايت .

ذلك أن البحوث العلمية والإكتشافات الفلكية والتجارب الذرية والفسيولوجية قد وصلت إلى درجة تثير الذهول ، درجة يفوق الواقع فيها الخيال وتجاوز الحقيقة الخرافة وتصيب المتابع لها بنوع من الدوار أو « الدوخة » التى تعقب تلقيه ضربة على أم رأسه ! فما أبعد صورة الكون اليوم عن الصورة القديمة الساذجة التى كان الشاعر يصور فيها النجوم المتوهجة على صفحة السماء

---

(١) قصة النزاع بين الدين والفلسفة للدكتور توفيق الطويل – مكتبة الاداب . ص ٢٥٦ .

بحبات ماس على صدر غانية ... أو عندما يشتط به الخيال فيبدع عمالقة وأقزام مثل عمالقة وأقزام « سويفت » أو يتصور عوالم أسطورية مثل عوالم السندباد البحرية وسيف بن ذى يزن ... إن هذه الصور كلها أصبحت ساذجة ، بدائية أمام تقدم العلوم فى المجالات الثلاثة الهامة : الفلك والطبيعة النووية ... والفسيولوجيا ... وها هى ذى صورة مبسطة جداً .

« إن كوننا هذا فسيح جداً . ولكى نفهمه نتصور طائرة خيالية تسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية الواحدة - وإن هذه الطائرة الخيالية تطوف بنا حول الكون الموجود الآن . إن هذه الرحلة الخيالية سوف تستغرق ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة يضاف إلى ذلك أن هذا الكون ليس بمتجمد . وإنما هو يتسع كل لحظة حتى أنه بعد ١,٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة تصير هذه المسافات الكونية ضعفين وهكذا لن تستطيع هذه الطائرة الخارقة فى سرعتها الخيالية أن تكمل دورتها حول الكون أبداً - وإنما سوف تظل تواصل رحلتها فى نطاق هذا التوسع الدائم فى الكون .

ويقدر علماء الفلك أن هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم مضروباً هذا العدد فى ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ وفى كل مجموعة منها يوجد مائة مليار من النجوم - أو أكثر أو أقل ويقدرون أن أقرب مجموعة من النجوم - وهى التى تراها فى اليل كخيوط بيضاء دقيقه - تضم حيزاً مداه مائة ألف سنة ضوئيه ونحن سكان الأرض - نبعد عن مركز هذه المجموعة بمقدار ثلاثين ألف سنة ضوئية . وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة تتألف من سبع عشرة مجموعة ، وقطر هذه المجموعة الكبيرة (ذات السبع عشرة) مليوناً من السنين الضوئية ....[١] .

فإذا انتقلنا من عالم الجسامة الفلكية اللانهائية التى تقاس مسافاتها بألوف السنوات الضوئية (الضوء يقطع ١٨٦ ألف ميل فى الثانية) إلى عالم الذرات ،

---

(١) الإسلام يتحدى - وحيد خان - الطبعة الثامنة من ٥٢ إلى ٥٤ .

وجدنا مايقابله في التركيب والإنتظام .. ولكن في حدود من الضالة لايمكن ان نشاهدها بمنظار يكبرها ملايين المرات ... هي الذرة وهذه الذرة المتناهية في الضآلة يدور بداخلها نظام كنظام المجموعة الشمسية ، فهي تضم مجموعة من الأليكترونات التي تشغل من مساحة الذرة $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$ (التي لا ترى بأكبر مجهر إنساني) والألكترون يدور حول البروتون – الذي هو الجزيء الإيجابي في الذرة – بنفس النظام الذي تتبعه الأرض في مدارها حول الشمس(١) .

فإذا انتقلنا إلى الأعضاء البشرية ... من مخ أو عين أو يد ... إلخ ففي المخ عشرة مليارات خلية عصبية تستطيع أن تسجل ٨٦ مليون معلومة كل يوم وتتبع الذاكرة خلال فترة حياة الإنسان إلى مائة ألف مليار معلومة .

فهذه النتف التي أخذت عرضا من كتاب غير فني بغرض التبسيط – قد أثبتت للإنسان المعاصر أن الكون أعظم وأكثر تعقيداً وإعجازاً من كل مدى كان يمكن لخيال الإنسان القديم أن يصل إليه . بحيث لا يمكن أبداً افتراض المصادفة أو التكوين العشوائي . والتفسير الوحيد لوجود مثل هذا الكون المعجز هو وجود الله تعالى .

فقد كان هناك – كما قال فرانك ألن – عالم الطبيعة البيولوجية – أربعة احتمالات . الأول أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال .... وهو ما يتعارض مع الوجود الماثل . والثاني أن يكون الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم . وهو كذلك لايقل عن سابقه سخفاً . وقد صور القرآن في إيجازه وإعجازه سخافه ذلك ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ (٣٥ الطور) الإحتمال الثالث أن يكون هذا الكون أزليا – ليس لنشأته بداية وهذا إحتمال يشترك مع الرأى الذى ينادي بوجود خالق لهذا الكون . وذلك في عنصر واحد هو الأزلية . وإذن

---

(١) المرجع السابق من ٥٢ إلى ٥٤ .

فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق - وليس هناك صعوبة فكرية فى الأخذ بأحد هذين الإحتمالين أكثر مما فى الآخر[1] . لكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً . وانه سائر حتما إلى يوم تصيرفيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الإنخفاض هى الصفر المطلق - ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة ، وهذا دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينه . فهو إذاً حَدَث - ومعنى ذلك انه لابد لأصل الكون من خالق أزلى ليس له بداية ، وأنه عليم محيط بكل شىء - قوى ليس لقدرته حدود ولابد أن يكون هذا الكون من صنع يديه .

ويعدد الكاتب الخصائص التى يتميز بها الكون ولايمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية .

فالأرض كرة معلقه فى الفضاء تدور حول نفسها - فيكون فى ذلك تتابع الليل والنهار - وهى تسبح حول الشمس مرة كل عام فيكون فى ذلك تتابع الفصول - الذى يؤدى بدورة إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكن . ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية ... ويحيط بالارض غلاف غازى يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير (يزيد على ٥٠٠ ميل)

(١) الله يتجلى فى عصر العلم : ترجمة الدكتور الدمرداش عبدالمجيد سرحان - ص ٧ وفى قول الكاتب : وليس هناك صعوبة فكرية فى الأخذ بأحد هذين الإحتمالين تساهل كبير ، ويبدو ان لم يشأ أن يعالجه بادىء ذى بدىء ، وترك للأدلة العملية تفنيد فكرة أزلية للكون . وهو ما دلل عليه بفكرة فناء الكون لأن النشاط الحيوى يؤدى إلى نضوب الطاقة . ومعنى هذا أن الكون ليس أزلياً وإلا لاستهلكت طاقته من زمن بعيد - وتوقف كل نشاط فى الوجود . وهكذا توصل العلم - دون قصد - إلى أن لهذا الكون بداية ... وهو بذلك يثبت وجود الله . لأن ماله بداية - لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه - ولابد له من مبدىء أو محرك أولى ... أى خالق .

ويبلغ هذا الغلاف الغازى من الكثافه درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يوميا إلينا . منقضة بسرعة ثلاثين ميلا فى الثانية . والغلاف الجوى الذى يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها فى الحدود المناسبة للحياة ، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يمكن ان يتكاثف مطراً يحيي الأرض بعد موتها - والمطر مصدر الماء العذب - ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية .

وكثيراً مايسخر البعض من صغر حجم الأرض بالنسبة لما حولها من فراغ لانهائى - ولو أن الارض كانت صغيرة كالقمر - أو حتى لو أن قطرها كان ربع قطرها الحالى لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوى والمائى اللذين يحيطان بها . ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حد الموت .

أما لو كان قطر الارض ضعف قطرها الحالى لتضاعفت مساحة سطحها أربعة أضعاف - وأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ماهى عليه - وانخفض تبعاً لذلك إرتفاع غلافها الهوائى وزاد الضغط الجوى من كيلو جرام واحد إلى كيلو جرامين على السنتيمتر المربع - ويؤثر كل ذلك أبلغ الأثر فى الحياة . فتتسع مساحة المناطق الباردة إتساعاً كبيراً وتنقص مساحة الأرض الصالحة للسكن نقصاً ذريعاً - وبذلك تعيش الجماعات الأنسانية منفصلة - أو فى اماكن متنائية فتزداد العزلة بينها - ويتعذر السفر والأتصال . بل قد يصبح ضرباً من الخيال .

ولو كانت الأرض فى حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للاجسام التى عليها ١٥٠ ضعفاً - ولنقص الغلاف الجوى إلى أربعة أميال ولأصبح تبخر الماء مستحيلاً ولارتفع الضغط الجوى إلى مايزيد على ١٥٠ ك جرام على السنتيمتر المربع ولوصل وزن الحيوان الذى يزن حاليا رطلاً واحداً إلى ١٥٠ رطلاً . ولتضاءل حجم الانسان حتى صار فى حجم السنجاب ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات .

ولو أزيحت الأرض إلى ضعف بعدها الحالى عن الشمس لنقصت كمية الحرارة التى تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية . وقطعت الأرض دورتها حول الشمس فى وقت اطول وتضاعفت تبعاً لذلك طول فصل الشتاء - وتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض . ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هى عليه الآن ، لبلغت الحرارة أربعة أمثالها وتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس ولآلت الفصول إلى نصف طولها الحالى ..

وعلى ذلك فان الأرض بحجمها وبعدها الحاليين عن الشمس وسرعتها فى مدارها تهيء للأنسان اسباب الحياة والاستمتاع بها فى صورها المادية والفكرية والروحية ، على النحو الذى نشاهده اليوم فى حياتنا .

ويعود المؤلف إلى مناقشة فكرة المصادفة التى يطرحها البعض بديلاً عن الله .

« .. فاذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكم وتصميم سابق فلا بد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة - فما هى تلك المصادفة اذن حتى نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياه » .

إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الان من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما إنعدم الحكم الصحيح المطلق وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الاقرب إلى الصواب مع تقدير إحتمال الخطأ فى هذا الحكم . ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والإحتمال من الوجهة الرياضية تقدما كبيراً حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التى نقول إنها تحدث بالمصادفة والتى لانستطيع ان نفسر ظهورها بطريقة أخرى (مثل قذف الزهر فى لعبة النرد) .

وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن ان يحدث بطريق المصادفة وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقه . وأن نحسب إحتمال حدوث ظاهرة من الظواهر فى ميدان معين من الزمان -

ولننظر الآن إلى الدور الذى تستطيع أن تلعبه المصادفة فى نشأة الحياة .

إن البروتينات من المركبات الأساسية فى جميع الخلايا الحية وهى تتكون من خمسة عناصر هى الكربون والأيدروجين والنتروجين والاكسجين والكبريت . ويبلغ عدد الذرات فى الجزىء البروتينى الواحد ٤٠٠٠٠ ذرة – ولما كان عدد العناصر الكيماوية فى الطبيعة ٩٢ عنصراً موزعة كلها توزيعاً عشوائيا فان إحتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكى تكون جزئياً من جزئيات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التى ينبغى ان تخلط خلطا مستمراً لكى تؤلف هذا الجزىء ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكى يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزىء الواحد وقد قام العالم الرياضى السويسرى تشارلز يوجين جانى بحساب هذه العوامل جميعاً . فوجد أن الفرصة لاتتهيئا عن طريق المصادفة لتكوين جزىء بروتينى واحد إلا بنسبة ١ إلى $١٠^{١٦٠}$ أى بنسبة ١ إلى رقم ١٠ مضروباً فى نفسه فى ١٦٠ مرة . وهو رقم لايمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات وينبغى ان تكون المادة التى تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزىء واحد أكثر مما يتسع له هذا الكون بملايين المرات – ويتطلب تكوين هذا الجزىء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة عدداً لا يحصى من السنوات قدرها العالم السويسرى بأنها عشرة مضروبة فى نفسها ٢٤٣ مرة من السنين ($١٠^{٢٤٣}$ سنة) .

إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الاحماض الأمينيه فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات ؟ إنها إذا تألفت بطريقة أخرى غير التى تألفت بها تصبح غير صالحة للحياة . بل تصير فى بعض الاحيان سموماً .

وقد حسب العالم الأنجليزى ج . ب ليسز J. B. Leathes الطرق التى يمكن أن تتألف بها الذرات فى احد الجزئيات البسيطه من البروتينات فوجد أن عددها

يبلغ آلملايين (10^{48}) وعلى ذلك فانه من المحال عقلاً أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تبنى جزئياً بروتينياً واحداً .

ويستطرد الكاتب .

ولكن البروتينات ليست إلاً مواداً كيماوية عديمة الحياة ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذى لاندرى من كنهه شيئاً . إنه العقل اللانهائى – وهو الله وحده ....[١] .

ويعالج عالم آخر هو جون كليفلاند كوثران القضية نفسها من زاوية البروتونات الموجبة والألكترونات السالبة . والنيوترونات التى يعتبر كل منها ناشئاً عن اتحاد بروتون واحد مع ألكترون واحد – والنظام الذى يحكمها ، والذى يجعل جميع البروتونات التى بالذرة الواحدة تقع فى نواة مركزية – أما الألكترونات فإنها تدور حول محاورها فى مدارات مختلفة حول النواة وعلى أبعاد شاسعة منها مكونة ما يشبه مجموعة شمسية مصغرة ... وهى كلها تخضع لقوانين دقيقة لا يتصور أن تأتى نتيجة للعشوائية أو المصادفة [٢] .

ويرى رسل تشارلز أرنست وهو أحد علماء الأحياء أن أبسط الخلايا – نباتية – أو حيوانية – تعمل بدرجة من الدقة يتضاءل بجانبها أقصى ما وصل إليه الإنسان من دقة فى صناعة الساعات ولا يمكن للعقل البشرى أن يتصور وجود آلة دقيقة كالساعة بمحض المصادفة ودون الإستعانة بالعقل المفكر واليد الماهرة وبالتالى يصعب – أو يستحيل – أن يتصور أن أبسط خلية تعمل بدقة تفوق الساعة – وجدت بنفسها أو نتيجة للمصادفة [٣] .

وأثار عالمان أسهما فى وضع كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » الذى

---

(١) ، (٢) المرجع السابق من ص ٨ إلى ص ١٢ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٦ .

استشهدنا به فى الفقرات السابقة نقطة هامة هى استخدام العجز عن إدراك الظواهر الكونية أو البيولوجية للتدليل على وجود الله ومع هذا فقد قال أحدهما – تشارلز أرنست وهو عالم أحياء « لقد وضعت نظريات عديدة لكى تفسر لنا كيف نشأت الحياة من عالم الجمادات . فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين أو من الفيروس أو من تجمع بعض الجزيئات أو البروتينية الكبيرة . وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التى تفصل بين عالم الأحياء . وعالم الجمادات . ولكن الواقع الذى ينبغى أن نسلم به هو أن جميع الجهود التى بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بخذلان وفشل ذريعين .

وللشخص مطلق الحرية فى أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة فهذا شأنه وحده . ولكنه إذ يفعل ذلك فإنما يسلم بأمر أشد إعجازاً وصعوبة على العقل من الإعتقاد بوجود الله الذى خلق هذه الأشياء [١] .

وحذر العالم الثانى – وهو جون أدولف بوهلر وهو أستاذ كيموى من « أن نقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الأقدمون . عندما اتخذوا آلهة لكى يجدوا تفسيراً لما غمض عليهم وحددوا لكل إله قدرته – وعينوا له وظيفة ودائرة تخصصه – وعندما تقدمت العلوم وأمكن فهم كثير من الظواهر الغامضة ومعرفة القوانين التى تخضع لها – لم يعد هؤلاء الناس فى حاجة إلى الآلهة التى أقاموها . بل إن كثيراً من البشر أنكروا وجود الله لنفس هذا السبب ، والواجب أن نتلمس قدرة الله فى النظام الذى خلقه والقوانين التى أخضع لها جميع الظواهر والأشياء . فقد يستطيع الإنسان أن يفسر ما كان غامضاً عليه باكتشاف القوانين

---

(١) المرجع السابق ص ٧٩ .

التى تحكمها . ولكن الإنسان عاجز عن أن يسن تلك القوانين فهى من صنع الله وحده . ولا يفعل الإنسان أكثر من أن يكتشفها ثم يستخدمها فى محاولة إدراك أسرار هذا الكون . وكل قانون يكتشفه الإنسان يزده قرباً من الله وقدرة على إدراكه فتلك هى الآيات التى يتجلى بها الله علينا (١) .

وما قاله الباحث هو ما يمكن أن توحى به إلينا الآية :

﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق ... وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ فبقدر ما تتكشف للناس من آيات الله بقدر ما يزداد إيمانهم بالله . وقد تصور البعض أن اكتشاف العلم الحديث لكثير من الظواهر التى اختص الله بها نفسه مثل معرفة نوع الجنين أو سر نزول الأمطار أو كسوف الشمس ... إلخ يزلزل الإيمان . ولكن الآية تعلن بصريح اللفظ أن الله تعالى « سيرى » الناس هذه الآيات فى الكون وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . فليس هناك تعارض بين اختصاص الله تعالى بهذه المعرفة وقت نزول القرآن ... أو بعده بأجيال . ثم إطلاعه الناس عليها وكشفه عنها بعد فترة ليزدادوا إيماناً .

ويعد تقدم العلم مصداقاً لذلك فيما سبق أن أوردناه وما كشفت عنه آخر مباحث العلم . فبعد نشر نظرية النسبية العامة توصل العلماء إلى أن الكون يتمدد وأن المجرات تتباعد بعضها عن بعض . وهذا يدل على أنها كانت فى الماضى السحيق متحدة مما يدل على أن للكون بداية .

ثم جاءت إشارة ثانية من مجال الفيزياء النووية – فلقد كان كيميائيو القرن التاسع عشر يعرفون أن الشمس لا يمكن أن تحرق وقوداً تقليدياً . فالإحتراق الكيميائى العادى لم يكن يصلح تفسيراً لطاقة الشمس . إذ لو كانت كتلة الشمس كلها فحماً لأحرقت نفسها فى غضون ثلثمائة عام . وظلت الشمس لغزاً إلى

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٥ .

حين اكتشاف الطاقة النووية - فى السنوات الأولى من القرن العشرين . وأخيراً تمكن الفيزيائيان هانز بيته Hans Bethe وكارل فون فايتزساكر Carl Von Weizsacker فى عام ٣٨ من تقديم تفسير كامل لكيفية إنتاج الشمس للطاقة من خلال تحول العناصر النووية . ففى قلب الشمس يتحول الهيدروجين إلى هليوم منتجاً الطاقة والضوء وعلى ملايين السنين كانت العمليات التى تتم داخل كل نجم تُكوِّن شيئاً فشيئاً لا الهليوم فحسب بل جميع العناصر الأثقل : الكربون ، الأكسجين والسيلكون والحديد وسائر العناصر - وكان معنى ذلك أنه إذا كانت كل العناصر الثقيلة فى الكون قد تكونت من الهيدروجين فى قلوب النجوم ، فلابد إذاً من أن الكون كله تقريباً كان مركباً فى البداية من الهيدروجين ، وهذا يدل مرة أخرى على أن للكون بداية .

وأخيراً تقدم الفيزيائى جورج جاموف George Gamowf عام ١٩٤٨ بعد أن جمع الأدلة المستمدة من تباعد المجرات ومن دورة حياة النجوم برأى مفاده أن الكون نفسه نشأ من تمدد بدئى للمادة أطلقَ عليه « الإنفجار العظيم » ويفترض أن كرة النيران فائقة الحرار قد تمددت بسرعة كالإنفجار ثم بردت وباستخدام الفيزياء النووية بيَّن غاموف كيف أن الجسيمات دون الذرية التى كانت موجودة فى أسبق المراحل أنتجت - بتأثير درجات الحرارة والضغوط اللاحقة ، ذرات الكون حديث النشأة ، وفضلاً عن ذلك بيَّن أنه - نتيجة التمدد والتبريد ، لابد من تشتت وهج خافت من الإشعاع الأساسى بشكل منتظم فى جميع أرجاء الكون .

وظل تنبؤ جاموف معلقاً طوال عدة أعوام ثم اكتشف آرنو بنزياس Arno Penzias وروبرت ويلسون Robert Wilson فى عام ١٩٦٥ بمحض الصدفة وباستخدام جهاز ضخم لالتقاط الموجات الصغرى إشعاعاً ضعيفاً منبعثاً من الفضاء . وبعد أن قاس بنزياس وويلسون هذا الإشعاع بدقة لم يسبق لها مثيل وجدا أنه يقرب من ٣,٥ فوق الصفر المطلق . ولم يكن الإشعاع أشد كثافة فى

اتجاه الشمس أو في اتجاه مجرة درب التبّانة (Milky Way) ولذا لا يمكن أن تكون المجموعة الشمسية أو المجره مصدر هذا الإشعاع فلم يبق إلا تفسير واحد وهو أنه بقية من الإشعاع الأصلى الناتج من « الإنفجار العظيم » وهذا الدليل القائم على المعاينة أكد نظرية « الإنفجار العظيم » .

فعالمنا إذاً تولد في أعقاب تمدد هائل في المادة ويشير حجم التمدد – ومعدل سرعته الحاليان إلى أن الكون بدأ منذ ما يتراوح ما بين ١٢ و ٢٠ مليار سنة . وفى جزء من السكستليون Sextillion (١,٠٠٠,٠٠٠٠ ٦) من الثانية بعد البداية كانت كل المادة الموجودة فى الكون معبأة فى مساحة أصغر كثيراً من الحيز الذى يشغله بروتون واحد . وكانت الكثافة فى تلك المرحلة تهول الخيال ، فتصور أن الكواكب والنجوم والمجرات بكاملها وكل المادة والطاقة فى الكون كانت جميعها محتواه فى حيز لا يكاد حجمه يعادل شيئاً وفى لحظة الصفر من بداية الزمن كانت الكثافة غير متناهية دون حدوث أى تمدد فى المكان على الإطلاق . وكانت تلك اللحظة بداية المكان والزمان والمادة [١] . وتحققت فى « ومضة ضوء وطاقة » ، أو بتعبيرنا الإسلامى « **كن فيكون** »

وهذا العرض لتتابع البحث العلمى منذ اكتشف أينشتين نظرية النسبية فى أوائل القرن . حتى تناولها عشرات العلماء . وكل واحد يكتشف جانباً يسلمه إلى آخر ليقدم إضافته ويدفعه لثالث حتى ينتهى العالم إلى ما عبر عنه القرآن فى كلمتين « كن فيكون » ولو وجدت فى الألفاظ ما هو أكثر اختزالاً من هذا لعبر بها القرآن . ولكن الناس ما كانوا ليؤمنوا به ولا يستوعبوا بعد « كن فيكون » .

وقد توصل العلم الحديث إلى أدلة أخرى عديدة بيد أنها أكثر فنية . أثبت

---

(١) العلم فى منظوره الجديد – تأليف روبرت . م . اغروس . جورج . ن . ستانسيو – ترجمة كمال خلايلى – عالم المعرفة – الصفحات ٦٠ – ٦٤ .

بها أن الانفجار العظيم وما تلاه وتكوين الكون إنما أريد به وجود الإنسان ... وأن يكون صالحاً للإنسان وهى اكتشافات تعيد للإنسان مرة أخرى - مكانته المجيدة بين المخلوقات التى قررتها له الأديان السماوية . ثم جاءت علوم القرن التاسع عشر ونظريات نيوتن وداروين لتبددها ... فجاءت أبحاث القرن العشرين لتعيدها وتقيمها على أسس علمية .

إن مسيرة العلم الحديث ليعرض لنا قصة أكثر روعة وأبعد فى إثارة الدهشة والعجب من كل ما توصل إن الخيال القديم فى ألف ليلة وليلة وما تضمنته الأساطير القديمة أو ما تحفل به بعض موسوعات التفسير والحديث من الإسرائيليات ومزاعم الوضاعين .

ويستطرد مؤلفا « العلم فى منظوره الجديد » .

فهل من مكان لإله فى كون مثل هذا ؛ أن الفيزيائى إدموند ويتاكر Edmund Whittaker يعتقد كذلك فهو يقول ليس هناك ما يدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانا موجودتين قبل الإنفجار العظيم وأنه حدث بينهما تفاعل فجائى فما الذى يميز تلك اللحظة عن غيرها من اللحظات فى الأزلية ؟ والأبسط أن نفترض خلقاً من العدم - أى إبداع الإرادة الإلهية للكون من العدم » وينتهى الفيزيائى إدوار مين Edward Miene بعد تفكيره فى الكون المتمدد إلى هذه النتيجة : أما العلة الأولى للكون فى سياق التمدد - فأمر إضافتها متروك للقارىء ، ولكن الصورة التى لدينا لا تكتمل من غير الله .

ولما كان لا يمكن تصور عدم وجود أى شيء على الإطلاق من قبل الإنفجار العظيم كما أنه لا يمكن أن يكون مادياً ، لان للمادة بداية ، ولما كانت الحقيقة غير المادية الوحيدة هى العقل (وتلك نقطة سنعود إليها [1]) فالفرض الوحيد أمامنا أن المادة هى من خلق عقل أزلى ، أى باختصار الله .

---

(١) أنظر الفصل السابع فقرة « خلود الروح من منظور طبى » .

دليل الجمال :

هناك دليل لم ينل ما يستحق من أهمية . وقد لا نجد إشارة إليه فى كل الكتب الإسلامية التى وضعت للبرهنة على وجود الله كما قد يكون الأمر كذلك فى معظم الكتب الأوربية التى صدرت لهذا الغرض . هذا العامل هو الجمال الذى يتبدى للعين فى الكائنات جميعاً . فى الزهور وألوانها الساحرة والفراشات وأجنحتها المزركشة وفى ندف الثلج التى تأخذ أشكالاً يستلهمها مصممو المنسوجات وصانعو الحلى والمجوهرات ... دع عنك جمال الإنسان ... ذكراً وأنثى ... وخلقه فى « أبدع تكوين » .

أننا نؤمن أن ما نلحظه من مشاهد الجمال فى الطبيعة والحيوان والنبات والإنسان - دلالة لا تخطىء على وجود خلاق هو أصل هذا الجمال ومصدره ... قدر ماهو دعوة للإعتبار والعظة والإستلهام ومنّة من الله تعالى على الإنسان للإستمتاع به وتذوقه .

والجمال بهذه الصفة أى باعتباره شعاعاً من الأصل الإلهى الجميل له صلة بعالم الحقيقة والقيم وهو يتجلى فى النظريات العلمية - والمنشآت المعمارية وتقتضى أصول الجمال إبعاد كل ما يعد فضولاً - أو ما يسىء إلى التناسق أو البساطة أو الحقيقة .

وليس هناك من مبرر مادى أو نفعى لوجود الجمال فمن الناحية النفعية يمكن لاداة بشعة المنظر أن تكون أفضل - عملياً - من أداة جميلة المنظر - ومع هذا فقد يفضل الإنسان الأداة الجميلة لأنها تشبع حاسة الجمال وتتجاوب مع نزعة تذوقه بالمخالفة لمنطق المنفعة . كما لا يمكن أن نفسر وجود مشاهد الجمال بالمصادفة لأن مشاهد الجمال تتبدى فى كل مظاهر الطبيعة وتصدر عن قوانينها وطريقة عملها . فالجمال لا يمكن أن يفسر بالضرورة أو المصادفة لأنه قيمة من القيم ووجود صور عديدة مجسمة للجمال لا ينفى أن يكون له فى بعض الحالات جانبه المبدئى الذى يجعله قيمة كالعدل والخير والصدق الخ ...

وقد عجز داروين عن أن يعلل الجمال فى الصوت الإنسانى ، وما حُبى به الإنسان من موهبة موسيقية وقال « .. وحيث أن الإستمتاع بالأنغام والقدرة على إطلاقها ليسا من الملكات التى تعود على الإنسان بأدنى منفعة فى عاداته اليومية الحياتية ، فلابد أن نضيفها فى عداد أكثر الملكات التى حُبّى بها غموضاً [1] .

قد يقول البعض إن الجمال يرتبط بالغريزة الجنسية فى الإنسان ، والحيوان ، بل والنبات أيضاً . وهو يستثير الحواس لتنشيط أداء هذه الوظيفة ، ولكن هذا القول ليس حجة علينا ، بل هو حجة لنا ، لأن الجمال يضفى هالة من العاطفة على الغريزة ويزجيها فى غلاف رقيق منمق جميل بحيث تؤدى أداء تسمو به من مجرد الميكانيكية الغريزية إلى العاطفة الإنسانية .

على أننا نجد الجمال فى غروب الشمس ، وفى تماوج الموج ، وفى الوردة ذات الأوراق الناعمة الملتفة بألوان ساحرة ، وشذى عاطر ، وكأنها ترتدى ثوباً من القطيفة لا يخفى ، بل يعلن نضارتها ، كما لو أنها درة ثمينة أو جوهرة مكنونة ، وليست وردة على عرض الطريق أو سفوح الجبال مبذولة للجميع ، ويوجد منها الملايين .

وهذه كلها بعيدة كل البعد عن معانى الجنس والغريزة ... وهى متاحة فى كل وقت ، وفى كل مكان مالم تشوهه يد الإنسان .

والحق أن الجمال من أكبر نعم الله على الإنسان . وهو يثبت – بالإضافة إلى وجود الله تعالى كرمه وقدرته على خلق كل هذه الصور من الجمال الفائق الرائع فى الطبيعة والنبات والإنسان نفسه فمن ذا تكون له القدرة على هذا الخلق والإبداع ؟ ومن ذا يكون له الكرم والإستغناء والتفضل بحيث يقدم كل هذه المشاهد مجاناً ودون مقابل ، ودون ثمن تذكرة لمشاهدتها غير الله تعالى . وهو

---

(١) استشهد بها فى كتاب – العلم فى منظوره الجديد – مرجع سابق – ص ٧٢ .

أيضاً ينم على أن الله تعالى أراد للإنسان وجوداً حضاريا يتحقق له فيه هذا العنصر الثمين وسخر له مشاهده فى الكون وفى الأرض . ولولا تلك اللمسة من الجمال التى غرسها الله تعالى فى الإنسان ويسرها له فى الأرض لعاش الإنسان كالحيوان ، ولما كان هناك حاجة إلى اللبس الأنيق أو السكن الجميل أو عالم الفنون والآداب الفسيح بما فيه من موسيقى ، وشعر ورسم ... الخ . ولما كان هناك العاطفة جنباً إلى جنب الغريزة .

إن الإستغراق فى تأمل وردة ، أو فراشة هو نوع من العبادة لأنها آيات بينات على قدرة الله . لا يجوز أن نمر عليها معرضين لاهين . وهنا يتلاقى الفن والجمال والعبادة .

وإنه لمن الغريب حقاً أن لا نجد فى كتب العقائد التى تعنى بإثبات وجود الله تعالى وصفاته هذا الدليل رغم أنه يشمل معظم مظاهر الحياة - بالنسبة للإنسان وبالنسبة للحيوان والنبات أيضاً ، وأن القرآن الكريم قد عنى به وأبرزه فى أكثر من موضع . وأن بعض الصوفية قد استشفوا شيئاً منه . ولكن الذين جعلوه مدخلهم للعقيدة هم ولا حرج الفنانون الذين التقطت حواسهم المرهفة ومشاعرهم الرقيقة مشاهد الجمال ، فآمنوا بالله ... وهم فى هذا كالعلماء الذين آمنوا بالله باعتباره « العقل الكونى » ، أو علماء الإجتماع والنظم والفلاسفة الذين رأوا فيه المثل الأعلى والأصل الموضوعى الأعظم والمطلق للحق ، والعدل والحكمة وللسنن التى يسير عليها المجتمع .

والفرق بين خلق الله الذى يتسم بالجمال ، وخلق الإنسان كبير ، وأذكر انى رأيت على شاشة التليفزيون آخر نمط للروبوت صنعه اليابانيون بفضل أحدث تكنولوجيا . وكان الروبوت يتقدم ويتأخر ، وينحنى وهو يقدم وردة لسيدة ، وتلى هذا مباشرة عرض لإحدى بطلات « الترابيز » ، وهى تنتقل من عقلة إلى عقلة أخرى ، وتنحنى وتدور وتلف . وتتجاوب تلقائياً ، وفى سرعة البرق مع متطلبات كل حركة - فما أعظم الفرق بين لاعبة الترابيز الرشيقة المتزنة وأعضائها المتناسقة الجميلة . وإشراقة الحياة ، ونضارة الصحة ، باختصار

جمال الخلق الإلهى من لحم ودم وتكوين عضوى وحياة . لقد بدا الروبوت الياباني وكأنه قطعة عتيقة بالية صنعها إنسان بدائى ليس فيها جمال ، وما أبشع حديده وأعضاءه وأبعده عن التكوين العضوى النضر ، المتناسق وما أبطأ حركاته وأثقلها إذا قيس بحركاتها الحرة الطليقة .

فإذا كان الإنسان يعجز عن أن يخلق امرأة جميلة نضرة كفتاة الترابيز فإنه يعجز أيضاً عن أن يخلق نمراً له فتوة وانطلاقة ومرونة وسرعة النمر فى الغابة . فالخلق الإلهى يتميز فى الكائنات بجمال يعجز الإنسان عن أن يساميه سواء كان هذا الجمال فى المرونة أو التناسب إلى غير ذلك من عناصر الجمال ، وأن ما توصل إليه الإنسان فى هذا المجال تقليد فقير بالنسبة لما خلقه الله تعالى .

وقد افتتن اليونانيون القدامى بجمال الجسم الإنسانى فغلبت « فينوس ، آلهة الجمال ، » هيرا « آلهة الحكمة ... كما تَوَّله بعض الكتاب والفنانين الأوربيين والأمريكيين ، بنساء فائقات الجمال ، ولكن فارغات العقول . وقد أخطأوا جميعاً فإنما الجمال آية من آيات الله ، مثله كالشمس والقمر ، وبالإضافة فإن جمال الجسم الإنسانى لا يفترض - ضرورة - توفر الحكمة . بل قد يكون - بتركيزه على الشكل - مناف لها - بطريقة ما ، ومن ثم فلا يتصف هذا الجمال بالكمال الذى يجب أن يتوفر فى الإله المعبود ، وهذه الواقعة هى من أدلة تفرد الله تعالى بالكمال ، وأن ما عداه إنما هى مشاهد من قدرته ، وأدلة على حكمته

دليل القرآن الكريم :

يظل دليل القرآن فى النهاية أنصع الأدلة ، وأكثرها بساطة ونفاذاً إلى النفوس ، وفى الوقت نفسه أقواها وأكثرها منطقية . وهو يبرأ من كل شوائب النقص والقصور فيما أوردناه من اجتهادات للمفكرين والفلاسفة ومن صور التعقيد والفنية التى يعسر على بعض الناس فهمها أو تتطلب ثقافة خاصة . إن دليل القرآن يفهمه أبسط الناس ممن لا يلم بقراءة أو كتابة ويرتضيه أكثر الفلاسفة والعلماء تبحراً وتعمقاً ... وقد جاوز فى تأكيده وقوته مرحلة الإثبات

إلى مرحلة التحدى . وذلك لأنه يقوم على حقيقة أساسية لا يستطيع أحد أن ينكرها وهى « الخلق » . فهل يعقل أن تكون هذه السماوات ، هذا السقف السماوى الجميل الباهر من غير عمد ، وهذه الشموس والنجوم التى تجرى لمستقر لها ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار .. وكل فى فلك يسبحون ﴾ . وهل يعقل أن تكون الحيوانات والحشرات من النملة إلى الفيل والطيور صافات أجنحتها .. وهل يعقل أن يكون هذا الإنسان ذكراً أو أنثى فى أبدع تكوين .. هل يعقل أن يكون هذا كله .. قد خلق دون خالق ، أو وجد نفسه بنفسه . ومتى حدث ذلك وكيف حدث .. فإذا كان هناك من ينكر ان الله هو الخلاق العظيم فليرينا قدرته ، وليخلق ذبابة وهى أهون الحشرات ﴿ ولن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾ . ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ﴾ .

ومن أسرار قسم القرآن وضربه المثل بالبعوض والذباب والعنكبوت والنمل والنحل ، إن هذه تمثل أصغر المخلوقات ومع هذا فإن تكوينها معجز بالنسبة لحجمها ، فمن المستحيل أن يخلق الإنسان طائرة فى حجم البعوضة تطير مثلها بتلقائية ونعومة ، وقل مثل ذلك على النحل أو النمل ونظامها العجيب .. .

ولا يكتفى القرآن بمنطقية دليل « الخلق » الذى يكاد يكون مغروساً فى الفطرة ، بل إنه يسوقه فى أسلوب أخاذ لا يمكن أن يدفع من النظم فهو حيناً يرق حتى يصبح حريراً موشى .

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾ . ٦ – ١١ سورة ق

وفى أحيان أخرى يكون قاطعاً كالسيف البتار أو البرق الخاطف ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأتى بخلق جديد ﴾ ﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ﴾ ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً ، وتخلقون إفكاً ﴾ ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ! من أىّ شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره .. ﴾ .

ولن نسهب فى الحديث عن هذا الدليل ، لأننا أشرنا إليه آنفاً فى الفصل الرابع من هذا الكتاب ، وحسبنا القول إن دليل القرآن هو أكثر الأدلة صدقاً ووضوحاً وحسماً فى إثبات وجود الله تعالى وتنزيهه .

الشكاكون واللاأدريون :

لقد كان يفترض والأمر هكذا أن لا يوجد من ينكر وجود الله بين ذوى الحجى – ولكن القضية أكثر تعقيداً . ومن السنن التى وضعها الله تعالى لهذا الكون وجود النقائض والأضداد . وأن المجتمع لا يأخذ وضعه ولا تسير أموره دون وجود « وجهة النظر الأخرى » ولو شاء الله تعالى لجعل مجتمعنا مجتمعاً ملائكياً لا عمل له إلا التسبيح والتهليل . ولكن الله تعالى جعل مجتمعنا إنسانياً وألهم النفوس فجورها وتقواها وسمح بوجود قوى الشر والضعف بل إن القرآن الكريم يقرر أن الهداية هى حظ الأقلية . أما الأكثرية فإما لاهية ... أو مفتونة بإغراء الحياة الدنيا من سلطة أو جاه أو فتنة أو شهوات إلخ .. .

فليس من الغريب والأمر هكذا أن يوجد الذين يشترون الذى هو أدنى بالذى هو خير والذين يتفادون كلمة « الله » ليلوذوا بتعبيرات غامضة – متهافتة ليس لها مدلول حقيقى وإنما تحيل على شيء آخر مثل « الطبيعة » لدى علماء الفيزياء « أو « التطور » لدى علماء الأحياء أو « اليد الخفية » لدى علماء الإقتصاد السياسى .

وقد يصور اتجاههم كلمة جوليان هكسلى « إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية – فلا ينبغى أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة » وهؤلاء وجدوا

فى القديم كما وجدوا فى الحديث وقد صورهم القرآن فأحسن تصويرهم ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ ٤٥ الزمر فإذا لم تكن الشقوة الغالبة هى التى جعلت هؤلاء يلوذون بذلك . فقد يعود سلوك بعضهم هذا المسلك إلى أنهم أرادوا أن لا يقعوا تحت وصاية كنيسة أو أن يوضعوا فى معسكرات مذهب ... أو أن يتحكم فيهم السدنة ويفرضوا عليهم خرافاتهم المقررة (وهذا مااعترف به بعضهم) .

ومن المحتمل أن بعضهم أراد التحرر مما يوجبه عليهم الإعتراف بالله من سلوك اجتماعي ومستوى فى الحياة لا يقدرون عليه أو لا يريدونه ، لأن جانب الإستمتاع بالحياة الطليقة أفضل لديهم .

وهناك بعد من آثر أن يقف على باب الشك أو يعترف بالجهل .. فإن معظم الذين لم يعترفوا بوجود الله – لم يقطعوا بعدم وجوده فشكهم فى الوجود لا يرقى إلى مستوى اليقين فى عدم الوجود . وهو موقف يذكر لهم ويفهم عند دراسة حالة كل واحد . والتعرف على الملابسات التى أحاطت به والظروف التى دفعته لهذا الموقف . وقد لا يهمنا كثيراً رأى فولتير الهازل الذى كان « يفترض » وجود الله ليحمى له أمواله وليضمن له ولاء خادمه وإخلاص زوجته ! ولا نرى فيه الحسنة الوحيدة التى ينسبونها إليه وهى « حرية الفكر » لأنه أثبت جهله بكتابه « محمد » الذى افترى فيه الأكاذيب على الرسول ثم زاد فأهداه متملقاً إلى البابا فأضاف النفاق إلى الجهالة ، كما لا يهمنا كلام ماركس عن الدين كأفيون للشعوب لأنه ينظر إلى القضية من زاوية محدودة هى علاقات الإنتاج وهى زاوية لا علاقة لها بالفلك ولا الفيزياء ، ولا القيم ولا الجمال وليست إلا ناحية واحدة من النشاط المتعدد للكائن الإنسانى ، وهذا أيضاً ما ينطبق على كلمات « فرويد » « إن أديان البشر يجب أن تصنف باعتبارها وهماً من أوهام الجماهير وأن الأفكار الدينية نشأت من ضرورة حماية الإنسان لنفسه من

قوة الطبيعة المتفوقة والساحقة » وأن البشر لابد لهم من أن يعترفوا لأنفسهم بكامل عجزهم وتفاهة دورهم فى آلية الكون – فهم لا يستطيعون بعد اليوم أن يكونوا محور الخليقة أو موضع عناية إلهية خيِّرة .

ونبوءته عن أن هذه الطفولية Infantalism مقدور لها أن تُتجاوز بالتأكيد » ويتحتم على الإنسان أن يتحلى بالشجاعة للإعتراف بأنه وحيد فى هذا الكون الفسيح واللا شخصي » ففرويد طبيب وعندما يترك مجال الطب بل حتى نظريته الخاصة ، يتوه ، ومن الظلم أن تطبق مدرسة التحليل النفسي على آليات الكون أو الأليكترون وكلمة اللاشخصي توحي بأنه يتصور – أو أن الناس يتصورون – إلهاً شخصياً وهذا أمر مستبعد بالطبع ، حتى سارتر الذى يقول « لأنى أعتقد وأومن بالحرية فإنى لا أستطيع أن أكون مؤمناً معتقداً بالله لأنه لو قبلت الله فلا محالة من قبول القضاء والقدر ولو قبلت القضاء والقدر لم يمكن أن أختار حرية الفرد ولأنى أريد اختيار الحرية وأومن بها فلست مؤمناً بالله » لا ينكر أنه ولد « قضاءً وقدراً » لم يستشر قبل أن يولد لا فى جنسه ولا فى وطنه ولا فى نفسه وأنه سيموت ما فى ذلك شك حتى لو آثر أن يموت بيده منتحراً (فقد مات قضاءً وقدراً) وهذه الحقائق هى ما يمكن أن يتعلق بها القضاء والقدر ... ولا يجديه شيئاً أن ينكرها وله بعد هذا أن يعيش حراً دون أن يعلق رغبته فى الحرية بقضية وجود الله أو حكمته ، كما لن يكون الإيمان بالله قيداً على حريته لأن إله الفيلسوف لابد وأن يكون أكثر فلسفة من الفيلسوف وأكثر حكمة منه وتقديراً له ، ويحق له إن لم ينصفه العدل أن يأمل الغفران .

نقول إن هؤلاء لا يهموننا كثيراً وإنما نهتم برأى مفكر نحترمه مثل برتراندرسل يعد فى الذروة من الفكر والمواقف الإنسانية والحضارية منذ الحرب العالمية الأولى حتى الحرب العالمية الثانية . وهو وريث صادق للحضارة الأوربية . تأثر بكل ما فيها من عناصر الوثنية الإنسانية التى بدأت مع حقبتها اليونانية الرومانية . وحافظت عليها فى الحقبة الرأسمالية الإشتراكية

وأنه كذلك ورث ذكرى الكنيسة ومحاكم التفتيش والتحكم فى الرأى وكلها كانت تبعده عن الدين قدر ما تقربه من عالم الإنسان والدنيوية .

إن رسل عندما جوبه بالمشكلة التى جابهت كل الفلاسفة من قبله . وهى مشكلة « العلة الأولى » التى ترتبط عادة بحقيقة وجود الكون .. قال إن مشكلة وجود ماض غير متناه بمشكلة مرعبة انه يستعصى على الفهم أن نتصور أنفسنا ورثة لزمان تمهيدى غير محدود كما أن مسألة وجود لحظة لم تسبقها لحظة أخرى بدورها ليست بأقل استعصاءً على الفهم ، وفى النهاية يصل ..

« إما أن لايصدق القانون الثانى للترموديناميك فى كل زمان ومكان أو إننا نكون قد أخطأنا فى تصورنا لمحدودية عالم الوجود من الزاوية المكانية ولكن مادامت هذه الإستدلالات رائجة . فإنى أرجح أن نقبل – بشكل مؤقت أن العالم من خلال زمانه المتناهى – ابتدأ ولكن من نقطة مجهولة لدينا ترى هل نستطيع من هنا أن نستنبط أن العالم خلقه خالق .. .

إننا إذا لجأنا إلى القوانين القائمة على أسلوب الإستنباط العلمى الموجه فإن الجواب سيكون بالنفى طبعاً . فليس هناك من دليل على أن العالم لم يوجد دفعة واحد غير مسألة الإستغراب من مثل هذا الأمر .. ولكنه ليس هناك فى الطبيعة أى قانون يدل على أن مايبدو بتصويرنا أمراً غريباً يجب ألا يقع .

إن استنباطاً عن الخالق يساوى استنباط علة ما والإستنباطات العِلِّية إنما يسمح بها فى المجال العلمى إذا بدأت من القوانين العلية (الخلق من العدم شيء يمتنع بالتجربة) ، ومن هنا فإن تصور أن يكون هناك خالق للعالم ليس بأية حال أكثر منطقية من فرض أن العالم وجد من غير علة ذلك أن كلا الفرضين ينقضان قوانين العليه التى تقدر على مشاهدتها بقوة معينة » .

وراسل يعنى بالجملة الأخيرة أنه إذا كان وجود الله يقوم على أن التسلسل العلمى لا يمكن أن يمضى بلا نهاية ولابد أن توجد العلة الأولى التى هى علة العلل فأن وجهة النظر الثانية التى ترى أنه لابد لكل علة من علة تنفى الإفتراض الأول فكل افتراض من هذين ينفى الآخر .

وأرجحية الإفتراض الأول وهو أن التسلسل العلمى لا يمكن أن يمضى بلا نهاية أقوى بكثير من الإلتزام الصارم بضرورات المنطق الصورى . وإذا وسع رسل - كعالم يؤثر اللاأدرية - ترجيح افتراض على أفتراض . ما لم يكن ذلك بدليل قاطع . فإن موقف اللاأدرية لاتستقيم عليه الأمور ويصبح من الضرورى لراسل أن يحزم أمره ... ولكن رسل نفض يديه من الأمر وتحول إلى عالم الرياضيات حيث وجد سلاماً أشبهه بسلام الإيمان الدينى .

إن دراسة شخصية راسل وتطوره الفكرى قد توضح لنا شيئاً ما مسلكه هذا . فهذا المفكر الذى ينحدر من إحدى الأسر البريطانية العريقة التى شغل بعض أفرادها رآسه الوزارة فى القرن التاسع عشر بدأ حياته متمسكاً أو حتى متعصباً .. بالمسيحية حتى هبت عليه رياح الشك مع المراهقة وما بعدها . فاقتلعت هذه الإيمان - وأصبح رسل شخصية مشاركة فى كل حركات التحرر الفكرية أو الجماهيرية أو السياسية فى الوقت الذى تحول فيه إلى الفلسفة ومن الفلسفة إلى الرياضة وقد لاحظنا أن معظم ما يستشهد به من أقوال لا تثبت على وجه القطع - وجود الله هى من كتاباته الأولى . فترة مشاركته فى المعارك الفكرية والتحريرية . التى كان بعضها ضد الكنيسة ولكن لم يتابع تطوره الفكرى فى سنواته الأخيرة . وليس من البعيد أن يكون قد حدد موقفه أخيراً مع الله ... وليس مع الضياع واللاادرية ولا مراء فى أن تصلبه العلمى حمله - ربما أكثر من اللازم على التصدى والوقوف مناقضاً ، فإذا كان وليم جيمس يناصر « إرادة الإعتقاد » فإن راسل يناصر « إرادة عدم الإعتقاد » والأمر فى حقيقته غير ذلك وأكبر من ذلك . وقد تناول وليم جيمس بالنقد موقف الحياد . واللاأدرية التى يرى بعض العقلانيين الإلتزام بها وهى على كل حال

أخف من موقف « إرادة عدم الإعتقاد » « لأن هذه الأخيرة مرفوضة عقلاً وعملاً ولا أعتقد أن رسل نفسه يقرها ، فهى حتى بالنسبة لمفكر جاد ترف أو سقطة . وقد آمن رسل بأهداف نبيلة عديدة تجعله مؤمناً من حيث لا يحتسب ولابد من اعتقاد حتى وإن لم يكن من باب الإرادة ولكن من باب الواقع .. والإعتقاد فى الله أفضل من الإعتقاد فى الشيطان ، وأفضل من اللااعتقاد .

خاتمة الفصل :

كانت فكرة الله تعالى متغلغلة فى الفطرة البشرية والبداهة تجاه خلق الكون بحيث لم يمكن تجاهلها . فآمنت أغلبية العلماء والفلاسفة بوجود الله وشذت أقلية فوقف بعضها عند الشك واللاأدرية .. بينما لاذ البعض الآخر بتعبيرات بديلة عن تعبير الله مثل الطبيعة أو التطور ..... الخ . حتى ينجو من الملابسات والمتداعيات والأوضاع التى أحاطت بفكرة الله . وربطتها بالأديان والمؤسسات الدينية ومع هذا فإن منطلق الفلاسفة والعلماء نحو الله تعالى جعلهم يسلمون – بطريقة ما – بوجوده فالمناطقة سلموا بوجود إله ليس له من عمل إلا أنه العله الغائية للكون . لانه كان يتعين عليهم أن يخلصوا من التسلسل إلى مالانهاية ، بينما آمن علماء الطبيعة والكون باله كونى أبدع الأفلاك وأحكم تحريكها وتنظيمها بحيث يكون هو المهندس الكونى الأعظم ، وابتدع بعض المفكرين نظرية الساعة فقالوا إن الله تعالى خلق هذا الكون كما يخلق ساعاتى قدير ساعة محكمة ثم يدعها وتنقطع صلته بها وتدور الساعة بفضل قوتها الذاتية وتصميمها . وظنوا أن هذا التشبيه يخلصهم من مشكلة لم يجدوا لها حلاً هى العلاقة الدائمة والوثيقة بين الله تعالى وخلقه ولم يرد فى خاطرهم وقتئذ أن من الممكن لإنسان – دع عنك الله – أن يحرك آلة يصنعها بطريقة « الريموت كونترول » وادعى بعض هؤلاء فى تبرير مذهبهم هذا أى اقتصار دور الله تعالى على الخلق وعدم متابعة هذا الخلق يوماً بعد يوم أو حتى دقيقة بعد دقيقة بأن الله تعالى أعظم من أن يشغل نفسه بتصرفات آحاد الناس – الذين لا قيمة لهم أمام عالم الكون العظيم الذى خلقه الله . وصور ذلك من المفكرين المصريين

طه حسين فى الكلمات التى كتبها سنة ١٩٢٣ وهو يعبر البحر الأبيض المتوسط نابذاً وراء ظهره الأزهر ومستقبلا بوجهه فرنسا .. .

... أعترف بأنى فى هذا الوقت أحسست شيئاً قد ينكره علىّ المؤمنون والملحدون جميعاً . أحسست أن إيمان المؤمن وإلحاد الملحد ضرب من الكبرياء وغلو الإنسان فى تقدير نفسه وإكبار منزلتها . فإن هذا المؤمن الذى يعتقد أن خالق الكون ومدبره ، خالق هذا الكون العظيم الذى لا تشعر بعظمته وأنت مستقر فى دارك أو بالتحدث إلى رفاقك . أو القراءة فى كتابك – وإنما تشعر بعظمته مع هدير البحر. وعصف الريح وشكوى السفينة ، وحين تشعر شعوراً بأن أسباب الحياة ضعيفة واهية ، وبأن أقل شىء يستطيع أن يحطم هذه السفينة التى تقلك وأن يقطع كل ما بينك وبين النجاة ، فتصبح نسياً منسياً ، كأنك لم تكن قط ، وكأنك لم تعرف أحداً ، أو يعرفك أحد ... أقول إن المؤمن الذى يعتقد أن خالق هذا الكون العظيم ومدبره يختصه بالبر والرحمة ، ويرعاه فى كل لحظة ، بل فى كل جزء من أجزاء اللحظة متكبر يرى نفسه شيئاً مذكوراً . يستحق هذه العناية المقدسة العظمى ، مع أن فى الكون مالايقاس الإنسان إليه عظمة وجلالاً .

وهذا الملحد الذى يستشعر الإلحاد ، ويتخذه مذهباً وعقيدة فيعاند ويدافع عن إلحاده كما يدفع المؤمن عن إيمانه ، وينكر الله كما يثبته المؤمن ، ويعتقد أن العقل كل شىء ، وأن آثار العقل وحدها خليقة بالإجلال والإكبار ، وإن نجاة الإنسان فى عبادة العلم والإذعان له . لا فى إكبار الدين والخضوع لأوامره ونواهيه .. هذا الملحد يمعن فى الغرور بقوة العقل والعلم وآثارهما » .

ويعقب الأب كمال قلته الذى أورد هذا النص ضمن مقال عن « الله » فى فكر طه حسين : بمجلة الإذاعة والتليفزيون ... « ولست بحاجة إلى القول بأن

هذه النظرة لا تعظم الله ، والله فوق كل تعظيم ، وإنما تحتقر الإنسان وتحمل بعضاً من إنكار لأعظم الحقائق الإيمانية ، التى تقرها كل الأديان وهى « **العناية الإلهية** » بل نعل أروع ما فى

الروحي هذا الإحساس بعناية الله بكل إنسان مهما صغر ، وبكل أمر مهما ضئل ، وأعظم الفروق بين العلم والدين أن العلم يخضع كل شيء لقانون « العلة » و « المعلول » – أما الدين فيربط هذا القانون بالله ، علة العلل ، وراعي المحاولات والنتائج – وهذا الإرتباط بين عناية الله وأمور الإنسان والأشياء يعطي للحياة معناها الأصيل ، كما يعطي للألم والموت المعنى الحقيقي والجوهري ، بل إن دليلاً رائعاً على وجود الله وعظمته يتضح من اهتمامه سبحانه وتعالى بخلائقه وكائناته ، فالله خالق يرعى خليقته ، ومهندس يدبر أكوانه ، والله أمين في خلقه وإرادته » .

وكما لاحظ كاتب المقال فإن هذا الموقف من طه حسين أدى به لأن يرى في دراسة «الميتافيزيقيا» شيئاً عقيماً ، وأن الفيلسوف إنما هو رجل درس «العلوم الطبيعية والإلهية والخلقية درساً علمياً مقنعاً وبسط سلطانها على حياته العملية وسيرته الخاصة فلم يكن تناقض بين هذه العلوم وبين أعماله » وفيما نرى فإن هذا الموقف من « طه حسين » يعود بالإضافة إلى ظروفه الخاصة إلى تأثره بفولتير الذي كان لا يرى فائدة من البحث عن الله .

إن هذه الفقرات وما قبلها توضح أن القضية الكبرى والشائكة أمام الفلاسفة والمفكرين لم تكن هي وجود الله تعالى إذ سلموا بهذا الوجود بعد أن تضافرت أدلة لا يمكن دفعها أو تجاهلها ولكن القضية الصعبة كانت هي ما يتعلق بذات الله تعالى ومدى قدرته أو طريقة استخدامه لقدراته وكما ذكرنا من قبل فان هذه النقطة بالذات هي التي تبرر وجود الأديان لأنه في الوقت الذي سكت العقل نطقت الأديان وجاء الأنبياء والمرسلون بما عجز عنه العلماء والمفكرون .

وقد حل الإسلام هذه القضية حلاً باتاً عندما قال إن الله تعالى «ليس كمثله شيء» وعندما استبعد الحديث عن ذات الله وقطع بأن العقل البشري يعجز عن كنهه وفي الوقت نفسه قدم الخطوط العريضة التي يمكن للعقل البشري أن يستوعبها من « أسماء الله الحسنى » التي وصف الله تعالى بها نفسه في القرآن الكريم

وقد قال أحد الكتاب « لقد اختصر المسلمون الطريق إذ قالوا أن الله « ليس كمثله شيء » [1] والأمر ليس اختصاراً للطريق قدر ما هو وضع الأمور مواضعها و « قطع الطريق » أمام تساؤلات ليس وراءها طائل ولم يكن هذا كما ذكر الكاتب لأن أصحاب الأديان أرادوا أن يحتفظوا بوحدة الاعتقاد أن يزلزله الشك وأن الذين ذهبوا إلى ذلك غفلوا عن أن الطبع البشرى لا ينطوى على صفة الإعتقاد فحسب بل ينطوى أيضاً على صفة الشك وأن جوع الإنسان للشك أشد من جوعه للإعتقاد » نقول إن الغرض من تقديم صيغة ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ **لم يكن المحافظة على وحدة العقيدة فحسب ، ولكن أيضاً الحيلولة دون الضلال** كما أن شك الإنسان يقف من تلقاء نفسه أمام تلك القضية التى لا يستطيع العقل استيعابها .وأن من الخير أن يقف عندها – وواقع الحال يثبت ذلك والفلاسفة لم يأتوا بما يقدم جديداً على ما قدمه القرآن . وعندما لم يلزم المسلمون أنفسهم بتوجيهات القرآن فى الوقوف موقفاً إيمانياً مما جاء فيه عن ذات الله فإنهم فتحوا على أنفسهم باباً للخلاف والشقاق حول « آيات الصفات » و « خلق القرآن » وغيرهما من المعارك الفكرية العقيمة التى لا تنتهى إلى طائل .

وما أورده الإسلام عن صفات الله تعالى فى القرآن ، أو الصحيح الثابت من السنة يماثل إلى حد كبير التصورات التى انتهى إليها كبار الفلاسفة والمفكرين الأوربيين مع فارق ، هو أن الإسلام قدم إضافة ماكانوا يستطيعونها – فى بعض الجوانب – كإرسال الرسل . والحياة الآخرة ، والثواب والعقاب .. .

باستثناء هذه الإضافة فإننا نجد أن تعريف المفكرين والفلاسفة لله يتجاوب مع تعريف الإسلام ، وقد أوردنا تعريف ديكارت عن الله تعالى « .... أقصد بلفظ الله جوهراً لا متناهياً

---

(١) الأستاذ إسماعيل مظهر « بحث الله » مجلة المقتطف – مرجع سبق الإشارة إليه .

أزلياً منزهاً عن التغيير قائماً بذاته ، محيطاً بكل شيء قادراً على كل شيء . خالداً ثابتاً - قد خلقني أنا وجميع الأشياء » . ويدخل فيه رفض ديكارت لوحدة الوجود ، لأن الله هو خالق لمخلوقاته لا متحد بها ، ويتجلى حضوره فينا بما نستشعره من حاجة دائمة إلى بلوغ الكمال .

ويقول أندرو كونواى ايفى ، وهو عالم فسيولوجى شهير « لقد درست صفات الله دراسة مطولة على أساس التحليل المنطقى الذى قام به الفلاسفة ، **وأمكن باستخدام المنطق الوصول إلى أن لله صفات معينة ، وفيما يلى مجموعة غير كاملة منها : « الله أبدى ، خالد ، لطيف ، ليس مادياً ، ليس حادثاً ، قدوس ، طيب ، يعلم الشر ولكنه ليس شريراً ولا يريد الشر ، لا يكره الأشياء ، حق ، عليم ، محب ، مريد ، منزه عن الشهوات والنزوات أصل الفضائل جميعاً »** (١) .

والملحوظ أن هذه التعريفات « التى صدرت عن علماء أوربيين ومسيحيين أقرب إلى التعريف الإسلامى منها إلى التعريف المسيحى الذى يتحدث عن لاهوت معقد ، ذى صلة غامضة ما بين الأب والابن والروح القدس بل أن بعض الكتاب رأوا أن من أسباب نفض اليدين من فكرة الله أن « جميع المنظمات الدينية المسيحية تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم فى إله على صورة الإنسان بدلاً من الإعتقاد بأن الإنسان قد خلق خليفة لله على الأرض ، وأنه عندما تنمو العقول بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية فإن تلك الصورة التى تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم فى التفكير أو مع أى منطق مقبول ، وأخيراً عندما تفشل جميع المحاولات فى التوفيق بين تلك الأفكار

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم - مرجع سابق - ص ١٥٦ .

الدينية القديمة ، وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمى ، نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية ...

ويقول جورج هربرت بلونت وهو أستاذ فيزياء « وتدل الشواهد على أن هناك نوعاً من الإجماع بين الفلاسفة والمفكرين على أن لهذا الكون إلهاً ، ولكنه لايوجد إتفاق على أن هذا الله هو ذاته إله الكتب المقدسة » (١) .

وحدد ج . إ . م جود اعتقاده .

« إن دعوى المسيحية مقبولة ما ظلت مقصورة على تأكيد وجود الإله وأنه يعنى ويهتم بعالمنا ، وإنه مبدأ الخير وأصل النظام الأدبى فى الكون ، وإنه بالتالى أصل التجربة الأدبية ، أى معرفتنا بالخير وتفضيلنا له على الشر ومقتنا للشر وكفاحنا ضده ، كما تُقبل أيضاً دعوى أننا إذا صلينا له ، فيمكن أن نوجد صلة به ، وأنه بفضل هذه الصلة يساعدنا ضد الشر . كما يبدو معقولاً كذلك بحكم الأدلة ، أن نفترض أنه من وقت لآخر يخلق أو يظهر أفراداً موهوبين ليقدموا تعبيراً واعياً لأغراضه وليكشفوا قانونه الذى هو القانون الأخلاقى . وهؤلاء الأفراد الموهوبون بصفة خاصة هم المعلمون الدينيون والصوفيون والأنبياء .

إن دعوى المسيحية غير مقبولة ما ظلت تؤكد أن المسيح ابن الله ، أو أنه بأى طريقة أخرى أو لأى سبب آخر إلهى ، وأن الله قد خلق الإنسان ليحبه ، ولكن الإنسان خلال ممارسته لإرادته الحرة لم يعد أهلاً لهذا الحب ، وعوقب بالسقوط ، وأن الإنسان وحده بين المخلوقات من يملك نفساً أو شخصية » (٢) .

---

(١) وولتر أوسكار لندبرج – عالم فسيولوجى – « الله يتجلى فى عصر العلم » مرجع سابق ص ٣٤ .

(٢) أنظر كتابنا « روح الإسلام » ص ١٠٤ .

الفصل الثامن

القضية الثانية : الموت وخلود الروح

الموت : هازم اللذات ومفرق الجماعات ، ونهاية الدنيا والقضاء الحتم الذى لا يبب فيه ، «كل نفس ذائقة الموت» .

وليس هناك ما يشبه الموت ، إذ ليس هناك سوى موت واحد ، وأمامه يخشع الجميع ، وقد خشع أمامه نبى للرحمة ، كما خشع أمامه طاغية القسوة . فجلس الرسول أمام قبر أحد أصحابه صامتاً ، وأصحابه حوله سكون كأن على رؤوسهم الطير . وبكى وهو يودع أبنه ابراهيم وفاضت عيناه بالدموع وهو يقبل وجه عثمان بن مظعون بعد موته . وتهاوى لينين وهو الرجل الذى لا يؤمن بالقيم ويحتقر العاطفة والرحمة عند دفن «أنيسا أرمان» صديقته الأثيرة التى جاءت معه من سويسرا فى «القطار المغلق» وأصبحت احدى زعيمات الحركة وعضو اللجنة المركزية . قالت انجليكا بالابانوف «لم أشاهد أنساناً تملكه الحزن مثله . لم يكن وجهه فحسب هو الذى ينطق بالألم ، بل كل جسمه لدرجة لم أستطع معها أن أحييه ، ولو بإشارة . وكان يبدو كما لو أنه تقلص فغطت قبعته وجهه بينما أخضلت عيناه بالدموع» وقالت «الكسندرا كولونتاى» التى كانت حاضرة «عندما أحضر جثمان «انيسا» وسرنا إلى المقبرة ، لم أتعرف على

لينين ، فقد كان يسير وعيناه مغلقتان ، وظننا أنه سيخر واقعاً بعد كل خطوة، ورأت أن وفاة أنيسا عجلت بتفاقم مرض لينين الذى أنتهى بوفاته[1] .

تلك هي سطوة الموت ورهبته ، ومع هذا فقد يكون من المفارقة أن نقول إن الموت ليس قضية الموتى ، ولكنه قضية الأحياء !! إن دقائق معدودة أو نصف ساعة هى التى تفصل مابين الحياة والموت ، ويغلب أن يمضيها من سيموت فى غيبوبة ، فيموت دون أن يشعر أو يحس . فالموت ليس قضيته وبالنسبة له فالأمر كما قال المتنبى .

إلفُ هذا الهواء أوقع فى الأنفس

ان الحِمـــام مـُــر المـــذاق

والاسى قبل فرقة الروح عجز

والأسى لا يكون بعد الفـراق

لهذا فإن الموت هو قضية الأحياء ، إما لأنه يأخذ منهم الأحباء والأعزاء ، وإما لأنه يذكرهم بيومهم الآتى ، الذى يكونون فيه الموتى لا المشيعين .

وليس هناك بعد ماهو أكثر بداهة من الموت ، فلابد أن يكون لكل شىء نهاية ، وكل يوم تغرب فيه الشمس يموت يوم ليولد يوم جديد مع الشروق ... ومن غير المتصور أن يعيش الأنسان أبداً . إن الخلود والبقاء أبداً يصبح عبئاً وعقاباً ويفقد الحياة طعمها كما أن من غير المعقول أن يتلاقى على الأرض أجداد الأجداد .. وأحفاد الأحفاد . ولولا الموت لما أمكن تصور الحياة والمجتمع فإذا إستحال الموت - لجوع أو حاجة أو مرض أو عجز - فما الذى يجعل الناس تعمل وماذا تكون عليه الأخلاق والعلاقات . لقد أدرك المتنبى هذا المعنى عندما قال :

سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها

مُنعنا بها من جيئه وذهـوب

---

(1) Lenin by David Shub pp 381- 382 (Pelican Original) .

تملكها الآتي ، تملك سالب
وفارقها الماضي ، فراق سليب
ولافضل فيها للشجاعة والندى
وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

ومن أجل هذا يقف الإسلام والعقلانية من الموت موقف التسليم به وتقبله بإيمان في حالة الإسلام وبحاسة من الفلسفة في العقلانية . وإن لم يمنع هذا من ان العاطفة تؤثر على هذا المسلك ، ولو عند الصدمة الأولى .

ولكن الإسلام يقدم اكثر مما تقدمه العقلانية ، لأنه يؤمن بخلود الروح . وان الموت إنما يؤذن بلقاء الله تعالى ، وهي فكرة يمكن أن تغير أو حتى تقلب – الموقف من الموت بحيث يجوز التساؤل لماذا عند الموت يلبسون الأسود حداداً .. ويبكون ويصرخون وترتفع الصيحات عندما يخرج الميت من بيته خروجه الأخير ملفوفاً في كفنه ، ومحمولا على الأيدي أو وهو يودع في قبره . والموت لدى المؤمن إنما هو برزخ بين حياة العناء والآلام .. والحياة الأخرى التي ينعم فيها المؤمنون برضا الله ، لقد كان من المحتمل أن لا يظل هذا مجرد تساؤل وأن يطبق «عبدالله البرى» فكرة «عبدالله البحرى»(١) لولا الضعف البشرى ، ولولا تلك الطقوس التي تعقب الموت والتي تضاعف من دراماتيكيته بدءاً من تكفينه حتى طريقة الدفن «الغرابية» التي لم تجد البشرية بديلاً عنها في الشرق والغرب .. فالموت كحقيقة لا مناص منها والإسلام يدعو للاستسلام له والرضا به . ولكن طريقة التصرف في الجسد العزيز الذى كان يبلور لنا المتوفى والذى كان محل إعزازنا وقبلاتنا .. وطالما ضممناه إلينا .. وكانت حركاته وسكناته هي ما تذكرنا به وتربطنا إليه .. هذه قضية أخرى ، وهي التي تضاعف من مأساوية الفراق الأبدى بما تضمنه من تكفين ودفن .. الخ . وأعتقد أن التقدم في مجال الطب أوجد للناس مندوحة وبديلاً ، فإن الإنسان

---

(١) الأشارة هنا إلى إحدى قصص ألف ليلة وليلة – وهي قصة «عبدالله البرى» ، و «عبدالله البحرى» وقوم عبدالله البحرى يعيشون في البحر ويقابلون الموت بسرور ويلبسون له الملابس البيضاء .

ليسعد عندما يتصور إن ضريراً سيرى بقرنية عين الميت ، أو أن مريضاً بالفشل الكلوى سيجد خلاصاً فى إحدى كليتيه وما إلى ذلك . إن هذا لاريب أفضل من ترك الجسد الجميل لترعاه الهوام ، وهو ينقل العملية من إيدى «المغسل» و «الحانوتى» و «المقبرة» الكئيبة إلى أيدى الأطباء والممرضات وغرفة العمليات ، ويا لها من نقلة . ولا يخالجنا أقل شك فى أن هذا هو الأقرب إلى الإسلام الذى يؤثر النفع والفائدة للناس ولا يجعل من الموتى أوثاناً ، ولا من قبورهم مشاهد يحج إليها[1] ، و من الطبيعى أن لاتتضمن مراجع الفقه المُدوَّنه شيئاً من هذا ، إذ أنه ما كان متصوراً لولا التقدم الطبى الحديث ، ولكن العقل وهو أول مصدر من مصادر الفقه والإيمان يوجبه ويأخذ به .

وعلى كل حال فإن الموقف الإسلامى من الموت وإن لم يصل إلى هذا (وما كان يمكن أن يصل إليه قبل تقدم وسائل الجراحة والطب فى الفترة الأخيرة) فان تقبله للموت وإعتباره بداية للحياة الأخرى ، التى يتركز حولها الإهتمام وتعد هى «الحياة» الحقيقية الخالدة ، هوّن من شأن الحياة الدنيا ، وقلل من الحرص عليها وما يرتبط بذلك أو ما يتطلبه من مصانعة أو رضا بالهوان ، أو إلتجاء للنفاق مما يعد ثمناً لامناص منه للبقاء فى الوظائف أو بلوغ المناصب العليا ، فالتشبث بالحياة والخوف من الموت يُلجئان الإنسان هذا الملجأ ، فإذا كان لايخشى الموت وإنما يرحب به .. ويسعى إليه خلال جهاده . سواء كان قتالاً فى معركة ، أو كفاحاً فى عقيدة ، فإنه يحس بالحرية ولايتردد فى رفض كل صور الدنية أو الهوان التى تخالف عقيدته ، ولايتملكه الخوف من الإقدام على الأعمال العظيمة المحفوفة بالمخاطر ، وهذا هو فى الحقيقة المضمون الإيجابى للإيمان بالقضاء والقدر (الذى يعد الموت أعلى مستوياته) وبحق يتساءل المؤمن .

---

(١) لما كنا نعلم أن المجتمع الإسلامى إنما تحكمه التقاليد والعادات ، وليس العقل أو حتى الأسلام ، فإن تصور تطبيق تلك بصورة شبه عامة أمر بعيد ، فضلاً عن أن دون ذلك مصالح مكتسبة ، ومهن تفيد من الموت . ولكننا على الأقل – نعتزم أن نطبق ذلك على أنفسنا عند الموت ، وبهذا نقدم خدمة أخيرة لأخواننا .. ونعفى الأهل والأصدقاء من الآلام والمشاق ، ونعتبر هذا وصية بذلك .

أى يومىَّ من الموت أفر
يوم لايقدر أو يوم قدر
يوم لايقدر لا يرهبنى
ومن المقدور لا يغنى مفر

أو يؤكد لأخواته ..

قل لأخوان رأونى ميتاً
فبكونى أذ رأونى حزناً
لاتظنونى بأنى ميت
ليس ذا الميت والله أنا !
أنا عصفور وهذا قفصى
طرت منه فتخلى رهنا
فأخلعوا الأنفس عن أجسادها
فترون الحق حقاً بيناً
لاترعكم سكرة الموت فما
هى إلا بإنتقال من هنا

إن هذا المعنى يجب أن يُذكر للإسلام ، إن القضاء على خشية الموت والخوف منه أعطى الفرد حرية العمل وحرر الإنسان من الاستعباد لربقة الحياة عندما ترتبط بالهوان ، وجرأه على الأقدام ورفع الحياة فوق مستوى المطالب العضوية والمادية ، ومايؤدى الحرص عليها من ضعة ومهانه بحيث يرفضها حتى لو كان فقيراً «الله الغنى» وبهذا برأ المؤمنين من الوهن . وهو بتعبير الحديث «حب الدنيا وكراهية الموت» .

قارن هذا بالذين يؤمنون أنهم لا يعيشون إلا مرة واحدة . وأن الموت هو النهاية وليس وراء الموت من حياة أو حساب أو عقاب ، وما يدفعهم هذا الإيمان إلى الحرص على البقاء على قيد الحياة لأطول مدة والأستمتاع بها إلى آخر

مدى ، وكيف أن هذا يمكن أن يشكل المجتمع بحيث تكون «الحياة البرجوازية» بإستمتاعها هى المثل الأعلى ، وهى الواقعة التى نراها فى المجتمع الأوربى .

وحتى إذا لم يوجد الأستمتاع فإن هذه الفكرة تجعل مجرد البقاء على ظهر الأرض خير من الدفن فى بطنها ، ولو تطلب هذا المثل «إن كان لك عند الكلب حاجة - قل له ياسيدى !!!» .

ومن ناحية أخرى ، فإننا لو وضعنا فكرة الموت فى أذهاننا ، وإن من الممكن أن يأخذ منا الموت فى لحظة - الآباء والأمهات والزوجات والأبناء والبنات .. لجعلنا هذا نغير من تعاملنا معهم ولأصبحنا أكثر كرماً وصفحاً وعطاء ، ولتنازلنا عن كثير من الصغائر التى تدفعنا إلى تصرفات قد نندم عليها ونأسى لها ..

ولو تذكرنا ان الموت يمكن أن يأخذنا ، فى غمضة عين ، من حياتنا ومحوطاتنا وبيوتنا ، وما نحرص عليه أو نعتز به من المقتنيات ، فنترك كل هذا ، ونخرج من الحياة عراة كما دخلناها عراة ، لهان علينا أن نتصدق وأن نتصرف ولما تحكمت فينا الأثرة والحرص .

فالتفكير فى الموت ليس كما يرى الدنيويون والبرجوازيون والأوربيون شيئاً من المثبطات .. والغيبيات - ولكنه فى الحقيقة أمر مطلوب . وهو يجعل الحياة أكثر حرية وكرماً ويضعها فى حجمها الطبيعى .

ولو فكرنا ملياً لوجدنا أن الموت قلما يمكن أن يكون سيئاً وقلما يحدث فى وقت غير مناسب .. فلو كان المتوفى ثرياً مترفاً ، فإن البقاء لن يزيده شيئاً بل سيجعله أكثر زهداً فيما هو فيه . كما قد يجعله يتعرض للفاقة ، فالموت أفضل له . وإذا كان المتوفى شاباً فى ريعان الشباب أو غادة فى منتهى الجمال فما أفضل الموت فى مثل هذا الوقت قبل أن يبلغا أرذل العمر ، وإذا كان الميت فقيراً يائساً لديه تلال من الهموم والآلام فإن الموت سيخلصه منها .

★ ★ ★

ويقدم لنا الشعر إضافة الفنان جنباً إلى جنب إضافة الإيمان الإسلامى والاستسلام الفلسفى . وهى إضافة تسير مع خيال الفنان فتكشف أبعاداً لا يبلغها إلا هذا الخيال .

خذ مثلاً (شوقى) .

ماذا وراء الموت من سلوى ومن
دعة ومن كرم ومن إغضاء
إن كانت الأولى منازل فرقة
فالسمحة الأخرى ديار لقاء

أو (مخاطبا تولستوى)

رأينا بنور الموت كل حقيقة
وكان كلانا فى الحياة ضرير

أو (المتنبى)

نحن بنو الموتى ، فما بالنا
نعاف ما لابد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا
على زمان هى من كسبه
فهذه الأرواح من جوه
وهذه الأحياء من تربه
لو فكر العاشق فى منتهى
حسن الذى يسبيه لم يسبه
يموت راعى الضأن فى جهله
موتة جالينوس فى طبه
وربما زاد على عمره
وزاد فى الأمن على سربه

عذاب القـبر :

وردت احاديث عديدة عن عذاب القبر – بل ألفت كتب أفاضت القول فى صور هذا العذاب بما يجعل القلوب ترجف لمواجهته . وقد قرأنا وجهة نظر فيها قدر من الاجتهاد لفقيه يتمتع بثقة وتقدير الملايين هو فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، رأينا ان من الخير ان نثبتها هنا ، على الاقل لتحقيق نوع من التوازن . وجاءت كلمة الشيخ – وهى موجزة – رداً على سؤال من احد قارئات مجلة حواء «ماهو حساب القبر .. وهل يعذب الميت فى القبر ؟

يقول فضيلة الشيخ : علينا قبل أن نشغل بحساب القبر أن أسأل عن حساب الآخرة .. هل هو موجود أم غير موجود ؟ . اذا عرفت ان بالآخرة حسابا فاقول على أى شيء أحاسب فى الاخرة .. نجد اننا نحاسب اذا ما كنا أدينا ما أمرنا الله به أم لا .

إننا حتى كبشر فى الدنيا لا نحكم على قضية الا بعد تحقيق البوليس ثم النيابة ، ثم المحكمة ، ثم ينفذ الحكم بعد ذلك .

وحساب القبر هو عرض للجزاء والآخرة هو دخول فى الجزاء . قال تعالى «النار يعرضون عليها غدوا وعشيا » .

ثم يقول «ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب» .

إذن العرض فى غير قيام الساعة . وبذلك نجد أن الزمان مجزأ الى ثلاثة أقسام : الحياة الدنيا ، والحياة الاخرة وما بين الحياتين . ففى الحياة الدنيا تعمل ، وفى الحياة الاخرة ، تلقي جزاء عملك فى الدنيا . وفى القبر يعرض عليك جزاء عملك ومكانك فى الآخرة . وحين يعرض الجزاء فى زمان ومكان لا تستطيع أن تفلت منه يصبح امرا متحققا لا يستطيع أحد أن يعود فيه .

وإذا تساءلت كيف تكون الحياة الاخرة نقول إننا فى حال حياتنا لنا حالان حال يقظة وحال نوم . هل قانون اليقظه هو نفس قانون النوم . نجد أنهما يختلفان رغم وجود الحياة .. إذن اذا قلنا إن الموت حياة أخرى ونظام آخر فلابد أن نصدق ذلك لانك ترى وأنت نائم وعينيك مغمضة . فهناك وسائل ادراك غير العين تستطيع أن ترى بها الأشخاص والالوان والاماكن . فاذا حدث هذا لمجرد أن مادة الانسان وهى جسم قد خمد قليلا ، فاذا قيل لنا إن فى القبر حياة أخرى عندما تنتهى الحياة ، فلابد أن تكون هذه الحياة أكثر شفافية تزيد فيها وسائل الادراك .

أننا فى الرؤية نذوق الطعام والشراب ونشعر بحلاوته أو مرارته . ونرى هذا يرتدى ابيض والاخر يرتدى الأخضر . وعندما ترى رؤيا تحكيها فى وقت طويل رغم أن العلم أثبت أن أطول حلم لايستغرق أكثر من سبع ثوان . اذن فالزمن ملغى كذلك انك تنام الى جانب شخص يرى أنه بين احبابه يضحك وياكل ويمرح ، والاخر يرى أنه بين اعدائه يضربونه لاهذا يشعر بذاك ولا ذاك يشعر بهذا .

ولذلك لفتنا النبى عليه الصلاة والسلام الى هذا فقال : ﴿انكم تموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون﴾ فاذا اختلف قانون النوم عن قانون اليقظة فان قانون الموت يختلف عن قانون الحياة .

اذن فلا يوجد عذاب بالقبر ولكن عرض ورؤية فقط لموقف الانسان من عذاب أو نعيم[(١)]» .

★ ★ ★

قلنا إن العقلانية ، تشترك مع الاسلام فى تقبل الموت كواقعة ضرورية لابد أن تقابل بالرضا والتسليم ، ولكن الإسلام يقدم ما تعجز عنه العقلانية ألا وهو «خلود الروح» وهو ما يعد من أكبر القضايا التى تطرحها العقلانية على الإسلام . فمع أن وجود الله هى القضية الأولى إلا أنها من البداهة بحيث لم

---

(١) مجلة حواء العدد ١٣٢ - ١٣ فبراير سنة ١٩٨٢ ص ٣١ .

تستطع العقلانية عندما تكابر – أن تجزم بنفيها وقصارى ما يمكن أن تصل إليه مكابرتها هو «اللاأدرية» أما فى حالة خلود الروح ، فإن العقلانية تنكرها . ولا تدع لها القاعدة الحسية التى ترتكز عليها شكاً فى أن الموت هو النهاية .. وأى شيء أوضح – فيما ترى من هذا . وهذا جسد يتحلل حتى يصبح هيكلاً عظمياً أو قبضة من تراب . فكيف يمكن الشك فى ان هذه هى النهاية ؟ وكيف يقال إن هناك «روحاً» تختلف عن الجسد ، ولا تموت مع الجسد ؟ ﴿إئذا متنا وكنا ترابا ! ذلك رجع بعيد﴾ وكيف حدث أن لم يظهر أحد من الذين ماتو عبر مئات القرون من ألوف الملايين الذين ماتو منذ أن ظهرت البشرية ليقص علينا «ماوراء الموت لماذا تتنحى تلك الارواح الظافرة وتقيم بعيداً عن هذه المعركة الدائمة التى تستمر بعدها .. لماذا تتركنا مادامت قوتها لم تنقص بعد الموت .. لماذا لاتعمل هذه القوة فى خدمة أخوانها من البشر .. ما كان أعمق إعتقاد الأقدمين بأن روح الأجداد تتحرك وتعمل من حولهم فى كل مكان وأن الأموات يحيون إلى جانبهم حياة ثانية ، وأن العالم يعج بالأرواح ، وأن لهذه الأرواح قدرة فوق قدرة البشر إذا كانت النفس لاتموت ، فلابد أن تصبح عوناً للغد[(١)] ». إلى آخر ما نكره ج . م جويو فى كتابه «الأخلاق بلا ألزام ولا جزاء» .. حتى وإن أشتطت به الدعوى إلى ما ماثل سذاجة الأقدمين .. نقول إن قضية خلود الروح رغم أنها غُصة فى حلوق العقلانيين فقد أمن بها معظم الفلاسفة القدامى والمحدثين بحيث رأى جويو نفسه إنها كانت وراء فكرة «الله» على حد قوله فالانسانية «لاتهتم بالله إلا قليلاً ، فما من شهيد كان يمكن أن يضحى بنفسه من أجل هذا الكائن المنعزل المقيم فى السموات وإنما الله فى نظرنا قوة قادرة على أن تجعلنا خالدين . فقد أراد الإنسان دائماً أن يرقى إلى السماء ، ولما كان لا يستطيع ذلك وحده خلق الله حتى يمد الله يده ، ثم إذابه يتعلق بهذا المنقذ تعلق حب . وإذا قيل غدا للمئات الأربع من ملايين المسحيين ، ليس ثمة إله ، وأن هناك جنة وإنسان ويسوع وعذراء وآدم وقديسون ، فلعل ذلك لن يحزنهم كثيراً ، وسرعان مايتأسون» .

(١) الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء تأليف ج . م جويو – ترجمة سامى الدروبى ص ٣١ – دار الفكر العربى – القاهرة .

«فالواقع أن الخلود يكفينا ، وأنا من جهتى لست أطلب ثواباً ولا أريد إستجداء ، ولا أنشد شيئاً إلا الحياة ، وإلا أن أجتمع بأولئك الذين أحببتهم . إنى لاأريد شيئاً غير خلود الحب والصداقة والأخلاص . ومازلت أذكر ذلك اليأس الطويل الذى أعترانى يوم أن دخل فى روعى لأول مرة أن الموت قد يكون فناء للحب ، وقطيعة بين القلوب ، وإنطفاء أبدياً ، وأن المقبرة بقبورها الحجرية وجدرانها الأربعة قد تكون هى الحقيقة الواقعية ، وأن الأشخاص الذين كانوا يجعلون حياتى روحية ، لن يلبثوا أن ينتزعوا منى ، أو لن ألبث أن أنتزع منهم ، وأننا لن نتواصل بعد ذلك أبداً» .

«وهكذا فإن الصورة القديمة للمسألة الدينية والأخلاقية ، أعنى مسألة وجود الإله ، ترتد إلى هذه الصورة الجديدة ، مسألة الخلود»(١) .

كما أن بعض الكتاب يرى أن فكرة «خلود الروح» قد لعبت دوراً أكبر من فكرة «وجود الله» . وقد لاحظ وليم جيمس ذلك عندما قال «إن الدين فى الواقع عند الأغلبية من الناس يعنى خلود الروح ليس إلا .. وان الله هو موجد هذا الخلود» . ويقول الكاتب الأسبانى ميجيل دى أنامايو «كنت أتحدث إلى فلاح ذات يوم وأقترحت عليه فرض وجود إلهٰ يحكم فى الأرض وفى السماء ، كما أقترحت عليه أيضاً فرض عدم خلود الأرواح وأنه لن يكون بعث ولا نشور بالمعنى التقليدى المعروف ، فأجابنى الفلاح قائلاً «وما فائدة الله أذن ؟» وربما كان «لوثر» يفكر مثل هذا التفكير عندما قال حانقاً : «إذا لم تعتقد فى اليوم الآخر ، ماساوى إلهك عندى شيئاً» . وحتى الشعراء قد أتبعوا هذا الرأى ، فقد أعلن «تنيسيون» ذلك قائلاً «لو أن خلود الروح غير حقيقى لكان شيطاناً مزوراً ، وليس الله ، من خلقنا» . وليس بمستغرب أن يكون هذا هو أسلوب هؤلاء السادة فى التفكير ، فقد كتبوا هذه الأفكار فى ضوء تعاليم الديانة المسيحية ، فالمسيحية قد أكدت فكرة الخلود تأييداً كبيراً ، ونجد منذ فجر المسيحية القديس «بولس» يعلن دون لبس ، لب هذا المذهب ، إذ يقول «وإن لم يكن المسيح قد قام فباطله

---

(١) الاخلاق بلا الزام ولا جزاء – مرجع سابق ص ٣٢ .

كرازتنا ، وباطل أيضاً إيمانكم .. إن كان لنا في هذه الحياة فقط رجاء في المسيح فإننا أشقى جميع الناس» (١ كو ١٥ : ١٤ : ١٩)[١] .

من هذه النصوص المستشهد بهانرى أن فكرة خلود الروح كانت عميقة الجذور . ولانحد حساسية إزاء كلام دى جويو .. لأننا نؤمن أن هذا كان تصور البشرية فى فترة ماقبل النبوات وإن لم يكن الوجود «الموضوعى» والحقيقى لأن كل ما يتصوره الإنسان أو يتمناه لابد وأن يكون له أصل فى الحقيقة ، فلا شيء من لاشيء ، وقد حقق العصر التصورات والتأملات التى جاءت فى «ألف ليلة وليلة» وإن اختلفت الصورة بل وماجاوز هذه التصورات كالأنطلاق إلى القمر والنزول على أرضه . **إن أحلام الأمس حقائق اليوم** - وهو ما كان يقوله الامام الشهيد حسن البنا مستنهضاً شباب الأخوان ، أو دافعاً لهم للتغلب على صعوبات الحاضر ووصولاً للمستقبل ، **يمكن أن يكون مبدءاً عاماً** .

وقد أثبتت البحوث العلمية أن الفكرة السائجة القديمة للبشرية عن خلود الروح لها أصل علمي . وكما سنرى فإن هذه البحوث أثبتت أن الموت ليس هو نهاية الفرد الإنسانى . ولكن هناك نوعاً من البقاء يطلقون عليه «النفس» أو «الروح» أو «الأرادة» أو «العقل» أو عالم الأثير يحفل فعلاً بالأرواح .. حتى وإن عجز العلم عن الإتصال بها .

ومن أبسط ما يمكن أن يقدمه العالم فى هذا الصدد «إن مبدأ الإنفصال المسيطر على جميع ظواهر التطور ، مبدأ كلى شامل ، يتعذر علينا أن نظن أن الموت يجل عن الخضوع له . وكما أن الجنين وهو حى فيه كل خصيات الأحياء ، ولا يستطيع أن يعرف شيئاً عن حياته المقبلة قبل أن ينفصل عن أمه ، كذلك الحى يعجز بطبيعة الحال عن أن يعرف شيئاً مما ينتظرة بعد أن تحل عملية الأنفصال ، إذ يحدث به حدث الموت ، وما هو إلا الظاهرة التى تعبر لنا عن مبدأ الكون الكلى «مبدأ الأنفصال»[٢] .

(١) الخلود للدكتور سيد عويس ص ٥٥ (دار المعارف بالقاهرة) .
وأنظر استدراكا لهذه الفكرة من وجهة النظر الاسلامية فى الفصل التالى .
(٢) الأستاذ إسماعيل مظهر - مقدمة فى حياة الروح فى ضوء العلم - أنظر الفقرة التالية .

علم الأحياء .. من الخلية إلى الروح :

فتحت التطورات العلمية الأخيرة مجالات لم يكن يتصورها البيولوجي القديم في معمله المتواضع . ووجد البيولوجي الحديث آفاقاً عديدة تتفتح له لم يكن يتصورها أو يحلم بها العالم القديم الذى كان ينظر إلى الجسم الإنساني ككل ، أو يقسمه إلى الأعضاء المعروفة .. ولكنه لايتصور ماوراء ذلك ، وقد كشف العصر الحديث التكوين المعقد للجسم الإنساني ، فالجسم يتكون من ذرات غاية في الصغر ، والذرات تكون جزئيات ، والجزئيات تكّون خلايا والخلايا تكون أنسجة ولحماً وعظماً .. وأعضاء .

والذرات هي من الصغر بحيث لو تراصت عشرة ملايين ذرة من ذرات الأيدروجين فى طابور لما بلغ طوله ملليمتر واحد ..

وهذه الذرة الدقيقة تتكون من نواة .. والنواة مبنية من أجزاء أدق بعضها بروتون (جسيمات كهربية موجبة) وبعضها نيوترونات (جسيمات متعادلة) وتدور حولها على مسافة بعيدة نسبياً اليكترونات (جسيمات كهربائية سالبة) والألكترون يدور حول نواة الذرة وهذه الذرة ليست كلها مادة صلبة ، بل إن نسبة المادة الصلبة إلى الفراغ الذى تدور فيه الاليكترونات هو نسبة ١ : ألف مليون مليون (١٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠).

وهذا الألكترون الذى هو أصغر الجسيمات الذرية حجماً يدور ٧٠٠ مليون دوره فى الثانية الواحدة .

وفى كل ثانية تموت وتتجدد خمسة ملايين وسبعمائة ألف خلية تحمل الحديث منها صفات القديم .

وفى الخلية تجتمع آليات الحياة العضوية (البروتوبلازمية) مع آليات النشاط الذرى من كهرباء ومغناطيسية وإشعاع .. الخ وهى مثل جهاز الراديو يجب أن تتناغم وفقاً للتردد المطلوب أو بالتعبير الشائع تضبط موجتها على المحطة المطلوبة ، وهو فى حالة الخلية - التردد الذى يتوافق مع العمليات الحيوية .

بإختصار يمكن القول بأن كل خلية تعمل كما لو كانت تحمل جهازاً للإتصال اللاسلكي يتيح لها أن تستقبل وترسل رسائل ، وتتضمن مكوناتها أشباه موصلات عضوية كالبللورات السائلة «وهي مادة فائقة الحساسية للتغيرات في درجة الحرارة والتغييرات المغناطيسية والكهربائية والأشعاعية بالإضافة إلى حساسيتها الفائقة للتلوث وتحوطها مجالات كهرو - مغناطيسية لاتشعر بها الحواس الخمسة ، وفي بعض التجارب التي أجريت في الإتحاد السوفيتي أقتطعت بعض خلايا الإنسان ووضعت في أوعية مختلفة من الكوارتز ، وعندما سلطت بعض أنواع الفيروسات على الخلايا التي في أحد الأوعية ماتت الخلايا في باقي الأوعية في نفس الوقت»(١) .

وفي كل عضو من أعضاء الجسم الإنساني من عين أو أنف أو يد .. الخ ملايين الخلايا التي تعمل كل واحدة مع الأخرى بتجاوب تام بحيث يؤدي الجسم وظائفه ، وكان مما كشف عنه العلم الحديث التشابه التام بين تكوين الذرة وتكوين النجوم والكواكب والمجرات مع فارق واحد هو أن الذرة تمثل النهاية في الصغر ، وأن المجرات تمثل النهاية في الكبر . وجمع هذا ما بين عالم الأحياء ، وعالم الطبيعة وعالم الفلك ووقفوا جميعاً مشدوهين أمام هذا العالم العجيب الذي تعجز عن تقديره تصورات الإنسان ولا تستطيع أن تلم به إلا الرياضيات العليا وجعلهم هذا أقرب إلى الإيمان مما كان الباحث القديم ، الذي لم يكن يرى في الإنسان سوى جسماً واحداً دون أن تكون عنده فكرة عن العالم العجيب وراء هذا الجسم الواحد .

وفي الخمسينات صدر كتاب لعالم أحياء أمريكي تحت عنوان «بيولوجيا الروح» إتخذ نقطة إنطلاقة من ظاهرة بيولوجية معروفة هي «التقويم الذاتي» ورأى أن هذه الظاهرة تنم عن «قصدية عضوية» كما يمكن أن تعد نوعاً من

---

(١) الاستاذ راجي عنايت - بحث معجزات العلاج - مجلة المصور - دار الهلال - عدد ٣٠ مارس ١٩٨٤ - ص ٤٠ .

نشدان الهدف يتدرج نحو الإكتمال منسقاً نواحى النشاط العضوى بمعيار غاية فى الضبط[1] .

وصفة التقويم الذاتى هذه لابد وأن تعود إلى الخلية الحية «البروتوبلازمية» فكيف يحدث هذا ؟ إن التعليل الشائع هو ان لها قدرات تنظيمية راسخة كشف عنها الباحثون ، على أن هذا القول لا يحل المشكلة ، فنحن لا نعرف من أين نشأت تلك القدرة ولا يجدى بالطبع القول بانها تصرف حيوى - كيميائى أو ردود الفعل .. أو الإستجابة .. لأن إستجابة الأحياء تختلف عن الإستجابة لدى الأشياء .. فإن ضغط زناد مسدس لابد وأن يطلق الرصاص ، كما أن الضغط على جرس كهربائى سيؤدى إلى صدور صوت .. ولكن إستجابة الكائن الحى لا تكون ميكانيكية ، ويذهب بعض العلماء إلى أن فى كل كائن عضوى شيء فيه طبيعة الموجه والهادى ، أو النزعة للأكتمال أى ضرب من عامل روحى يتدخل تدخلاً ذاتياً ، وبخاصة عند حلول الظروف الحرجة حتى يحتفظ الكائن العضوى بوحدته . ويتغلب على نزعات التفكيك والتبديد التى تحاول أن تنزل به إلى دنيا الجماد . أما كيف يحدث ذلك التصرف فمن العسير تصوره .

إن الاحيائى مهما جهد نفسه مقسور على أن يواجه مشكلات غيبية ، شأنه شأن العالم الفيزيقى إذ يواجه مثل هذه المشكلات ، علماً أنه قد يرفع يديه مستغيثاً بأن مثل هذه الآراء خارجة عن حدود العلم ، ولكننا مالم نحدد مجال العلم تحديداً بالغ الضيق ، فإنه ولاشك سيواجه عند تخومه الخارجية أشباهاً لهذه

---

(١) «بيولوجيا الروح The Biology of The spirit » وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ الكبير إسماعيل مظهر باسم «حياه الروح فى ضوء العلم» مطبوعات مؤسسة فرانكلين (القاهرة - نيويورك) وصدر فى ديسمبر سنة ١٩٦٠ ، وقد كان اسماعيل مظهر رحمه الله أحد رواد الفكر العربى فى مستهل القرن . وقد درس الأحياء ، وترجم كتاب داروين «أصل الأنواع» سنة ١٩١٨ ، كما ترجم عدداً آخر من الكتب حول هذا الموضوع . وأصدر مجلة العصور سنة ١٩٢٧ ثم تولى رئاسة تحرير المقتطف - وألف عدداً من القواميس من (الإنجليزية - للعربية) وقام بتأليف معجم مظهر الأنسكلوبيدى . فالمؤلف من الأساتذة المتمكنين . ولكن حرصه على «الترجمة» وليس «التعريب» فى هذا المجال الجديد جعله فى بعض الحالات يغرب ويبعد عن المفهوم السائد ، وهو مما لا يعد مأخذاً إلا بمنطق الخطأ المشهور أفضل من الصواب المهجور .

المشكلات على أنه ينبغى لعالم الأحياء أن يستعمق مفكراً فى هذه الأمور المستغلقة حتى يمكنه أن يستسيغ معرفة ماهى طبيعة تلك المشكلات . إن العالم الفيزيقى ليعكف على تأمل طبيعة الحقائق الفوزيقية عكوف الرياضى على البحث وراء العلاقات بين المكان والزمان ، والكونى تنقيباً وراء أصل الكون ومآله . ولا شك أن الأحيائى مقسور إن عاجلاً أو آجلاً على أن يأخذ فى إرتياد هذه المجاهل .

ويرى المؤلف أن الحياة هى المشكلة الغائية لأنه عن الحياة لا عن غيرها يصدر نشدان الهدف والقصد . فماهى منزلة الحياة من الكون ؟ إن الرد على هذا السؤال لايجوز أن ينفرد به عالم الأحياء ، ولكن لابد أن يشترك معه الفنان والفيلسوف والشاعر .. إن المشكلة هى المادة والروح . وتعد الجبلة التى هى أسس الحياة «البروتوبلازمية» نقطة الملتقى . فإذا أمكن إفتراض تهيؤ البروتوبلازما أى إستكمال تكوينها من العناصر المادية ، فإن إنبثاق الحياة فى هذه الجبلة – وهو أمر لاتزال طريقته مجهولة ، يجعل البروتوبلازما تأخذ طريقها المرسوم . أى لا يقتصر على الجوانب المادية ، ولكن أيضاً على الجوانب الأدبية التى يعد التجاوب مع الجمال أحد شواهدها . وكذلك الحساسية نحو الفضيلة والحق والخير والحب . وإذا كان التجاوز المادى يمكن أن يحدث «ألماً» فإن التجاوز الأدبى يحدث ما نسميه وخز الضمير .

والحقيقة التى تثير الدهشة ، وتجاوز هذا كله أن كل فرد من الملايين الإنسانية لا يشابه فرداً آخر تمام المشابهة (إلا فى حالة التوائم الوفاقية) بحيث لايمكن أن يعد الآحاد كالقطع التى تخرجها الآلات فى المصانع ، وهذا الإختلاف يشمل الشكل المادى ، كما يشمل الفهم والتصرفات والحركة والسكنات ، وهذا أمر يضع «الشخصية» جنباً إلى جنب «الروح» كقضايا لا يستطيع علم الأحياء وحده سواء كان اسلوبه حيويه – كيمائية Bio chemical أو فيزيوكيميائية Physico chemical حلها .

ويلخص الكتاب نتيجة بحثه :

«.. على أية حال لدينا حقيقة أساسية نأخذ بها حتماً ، هى أن العضويات الحية تتحرك دائماً نحو أهداف محددة ، سواء فى تخلقهم البدنى أم فى سلوكهم . إن هذه الفكرة المثلى سواء أنظرنا فيها من ناحية الفوزيقى ، أم الكيمائى ، ام الفيزيولوجية ، أم علم النفس ، أم اللاهوت ، هى على ما أعتقد خلقة وصل بين بدن الأنسان المادى الحى ، وتلك النواحي الأثيرية اللامادية التى هى موشجة توشيجاً .

ومن هنا قد تساعدنا هذه النظرية – قائمة على دراسة التخلق فى الحيوان والنبات الأدنى ، على إلقاء شيء من الضوء على مشكلات الإنسان يردها إلى صفة نشدان الهدف التى تتجلى فى الحياة على إختلاف صورها وطبقاتها ، إنها جميعاً مشكلات تتصل بالحياة ، إذن فهى مشكلات تتصل بعلم الأحياء ، ولكن فى أوسع حدوده وأرحب معانيه ، وأعنى بذلك إحيائية الروح .

وهى فى النهاية تقول إن الله هو «القدرة» التى تخلق الأجهزة العضوية الحية ، وتبعث فيها الأهداف التى تتم بها والتى تنتهى عند مأمولات الروح[1] ».

خلود الروح من منظور طبى :

كانت النظرية المادية التى سيطرت على العالم فى الفترة التى أعقبت نيوتن وطوال القرن الثامن عشر ، هى أن الفكر من إفراز المخ . وان الوعى والإرادة كلها إنعكاسات لآليات الجسم الإنسانى وأعضائه . وكان من مقتضياتها أن لاشيء فى الإنسان يمكن أن يبقى بعد الموت ، فإذا كان التفكير والإرادة من أنشطة المخ ، فليس هناك داع لأفتراض بقاء هذين بعد تحلل المخ ، ولم يكن لدى العلماء معرفة بكيفية إنبثاق العقل من المادة ، وأمل علماء الفسيولوجيا أن يأتى المستقبل بالحل . وفى عام ١٨٦٨ كتب هكسلى « .. وهكذا سيوسع علم

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٠ .

وظائف الأعضاء في المستقبل شيئاً فشيئاً من عالم المادة وقوانينها إلى أن يصبح مساوياً في أمتداد نطاق المعرفة والشعور والعمل»[1] .

ولكن المستقبل جاء بصورة مختلفة تماماً ، وقدم نظرية جديدة بدأت بالسير تشارلز شرنجتون الذى يعتبر مؤسس فسيولوجيا الأعصاب الحديثة . ونتيجة بحوثه الرائدة فى الجهاز العصبى والدماغ ظهر فرق جذرى بين الحياة والعقل ، فالحياة مسألة كيميائية وفيزياء . أما العقل فهو يستعصى على الكيمياء والفيزياء .

والعقل يعرفنا علل الأشياء التى تعجز عنه الحواس . فاللسان مثلاً يدلنا على أن البحر مالح ، ولكنه لا يفسر لنا علة ملوحته .. كما يمكننا العقل من إدراك ماهية الأشياء وهو أمر لا تستطيعه الحواس ، ولا ملكة الخيال ذاتها .. وهو عن طريق العلوم يجاوز قيود الخيال ، ويدرك بالمعادلات الرياضية أبعاداً تستعصى على الخيال.والعقل لا الحواس هو الذى يصنع العلم لأنه وحده يستطيع أن يستكشف ماهية الأشياء وعللها .

وقد يطلق على قدرة العقل احيانا الفهم Understanding وهى تسمية مناسبة لأن طبيعة الأشياء تكمن تحت Stands under صفاتها الظاهرة . والفهم يستطيع كذلك أن ينفذ الى العلة التى يرتكز عليها الأثر الذى تدركه الحواس .

ويماثل العقل فى تميز الإنسان به عن الحيوان – الارادة . فالإنسان يريد ، ويكيِّف أوضاعه طبقاً لإرادته ، وهو ما لايستطيعه الحيوان والنبات . والارادة تختلف عن العاطفة فى أن الاولى عادة ترتكز على العقل .

وقد أدت العمليات الجراحية التى أجراها «ويلدر بنفيلد» Welder Penfield على أدمغة مايربو على ألف مريض فى حالة الوعى فى الثلاثينات من هذا القرن ،

---

(١) استشهد بها فى «العلم فى منظوره الجديد» تأليف روبرت . م أجروس ، وجورج ستانسيو – ترجمة كمال خلايلي (عالم المعرفة) والأسم الأصلى للكتاب «القصة الجديدة للعلم» The New Story of Science .. وسيكون مرجعنا حتى نهاية الفقرة .

القرن ، والتى نشر الآثار المترتبة عليها عام ١٩٧٥ فى كتابه «لغز العقل» .
The Mytstery of The Mind .

ففى بعض عمليات الصرع التى يبنج فيها الطبيب المريض تبنيجاً تاماً ليصل إلى المخ يستخدم «القطب الكهربائى» «الالكترود» الذى يحدد موقع الخلايا التى تسبب النوبات الصرعية ، ويزيلها .

وفى عام ١٩٣٣ أكتشف بنفيلد بمحض المصادفة أن تنبيه مناطق معينة فى الدماغ بالكهرباء تنبيهاً خفيفاً يحدث إسترجاعاً فجائياً للذاكرة عند المريض الواعى . لقد ساورت بنفيلد الشكوك أول الأمر ، ثم أخذته الدهشة . فعندما لامس الالكترود قشرة مخ شاب تذكر هذا الشاب أنه كان جالساً يشاهد لعبة البيسبول فى مدينة صغيرة ، ويراقب ولداً صغيراً يزحف تحت السياج ليلحق بجمهور المتفرجين . وهناك حالة مريضة أخرى تسمع آلالات موسيقية تعزف لحناً من الألحان . وروى بنفيلد هذا الخبر فيقول «أعدت تنبيه الموضع نفسه ثلاثين مرة محاولاً تضليلها ، وأمليت كل إستجابة على كاتبة الأختزال . وكلما أعدت تنبيه الموضع كانت المريضة تسمع اللحن من جديد . وكان اللحن يبدأ فى المكان نفسه ، ويستمر من اللازمة إلى مقطع الأغنية» .

وأدى هذا الأكتشاف ببنفيلد لأن رسم خريطة كاملة تبين مناطق الدماغ المسئولة عن النطق والحركة وجميع الحواس الداخلية والخارجية ، ولكنه لم يستطع تحديد موقع العقل أو الإرادة . فالدماغ هو مقر الإحساس والذاكرة والعواطف والقدرة على الحركة . ولكنه فيما يبدو ليس مقر العقل والإرادة .

ويعلن بنفيلد انه «ما من عمل من الأعمال التى نعزوها إلى العقل قد أبتعثه التنبيه بالألكترود أو الأفراز الصرعى» ويضيف قائلاً «ليس فى قشرة الدماغ أى مكان يستطيع التنبيه الكهربائى فيه أن يجعل المريض يعتقد أو يقرر شيئاً . والالكترود يستطيع أن يثير الأحاسيس والذكريات غير أنه لايقدر أن يجعل المريض يصطنع القياس المنطقى أو يحل مسائل فى الجبر . بل إنه لا يستطيع أن يحدث فى الذهن أبسط عناصر التفكير المنطقى . والألكترود يستطيع أن

يجعل جسم المريض يتحرك . ولكنه لا يستطيع أن يجعله يريد تحريكه . إنه لا يستطيع أن يكره الإرادة . فواضح إذاً أن العقل البشرى والإرادة البشرية ليس لهما أعضاء جسدية .

فإذا كانت الإرادة البشرية غير مادية ، فليس ، مما ينافى العقل أن تتصرف بغير طرق المادة ، أى بحرية وإختيار . ومن ثم فالنظرة الجديدة لا ترى فى الإعتراف بإستقلال الإرادة فينا أى مجانبة للأسلوب العلمى . ومحصلة ذلك أنه ليس هناك أسباب علمية وجيهه لانكار حرية الإرادة التى لابد من إفتراض وجودها إذا أردنا أن نتصرف كباحثين علميين ، بل ان إنكار حرية الإرادة يجعل من العلم كله أمراً منافياً للعقل .

زد على ذلك ان النظرة الجديدة لاترى فى قدرة العقل على توجيه أنشطة الدماغ أمراً مستحيلاً ، ويصف عالم الأعصاب روجر سبرى Roger Spery الثورة الفكرية التى حدثت فى علم النفس خلال السبعينات من هذا القرن ، والتى أحدثت إنقلاباً مثيراً فى معالجة الوعى فيقول «لقد قلبت المبادىء السلوكية التى سادت طوال نصف قرن ونيف ، وأخذ علم النفس فجأة يعالج أحداثاً ذاتية كالصور الذهنية ، والأفكار وما إليها بوصفها عوامل ذات دور سببى حقيقى فى وظيفة الدماغ وفى السلوك ، وأصبحت مضامين الأستبطان وعالم التجارب الداخلية كلها مقبولة على نحو فجائى كعوامل تستطيع أن تؤثر فى العمليات الفيزيائية والكيميائية التى تتم فى الدماغ ؛ ولم تعد تعامل بوصفها جوانب منفعلة وغير (سببية) بل غير موجودة .

إن المعرفة والقيادة تتطلبان قدراً من البعد ، فلا يمكن أن يكون العقل ظاهرة ثانوية مصاحبة لآلية الأعصاب إذا أريد له أن يعاين ويوجه الكل ويقول بنفيلد «إن العقل ، لا الدماغ ، هو الذى يراقب ويوجه فى آن واحد ، فالعقل هو المسئول عن الوحدة التى نحس بها فى جميع أفعالنا وأفكارنا وأحاسيسنا وعواطفنا . ويضيف اكلس «ان وحدة التجربة الواعية يتيحها العقل الواعى نفسه لا آلية الأعصاب .

ولو كان الدماغ حاسبة ألكترونية بالغة التعقيد ، فلابد له ، إذاً شأنه شأن الحاسبة ، من أن يوجه من قبل العقل . ويقول بنفيلد «إن الحاسبة الأليكترونية (والدماغ هو كذلك) لابد من أن تبرمجها وتديرها قوة قادرة على الفهم المستقل» ويحدد بنفيلد دور العقل هكذا «ان ما تعلمنا أن نسميه العقل هو الذى يركز الإنتباه فيما يبدو ، والعقل يعى ما يدور حوله ، وهو الذى يستنبط ويتخذ قرارات جديدة . وهو الذى يفهم ويتصرف كما لو كانت له طاقة خاصة به . وهو يستطيع أن يتخذ القرارات وينفذها مستعيناً بمختلف آليات الدماغ ، وهكذا فإن توقع العثور على العقل فى احد اجزاء الدماغ ، أو فى الدماغ كله ، أشبه بتوقع كون المبرمج جزءاً من الحاسبة الأليكترونية» .

وبناء على الأدلة سالفة الذكر ، لا يرى بنفيلد أى أمل فى النهج المادى للنظرة القديمة إزاء العقل فيعلن «إن توقع قيام آلية الدماغ العليا ، أو أى مجموعة من ردود الفعل مهما بلغت من التعقيد بما يقوم به العقل وبإداء جميع وظائفه أمر محال تماماً» ويوافق عالم الأحياء «أدولف بورتمان Adolf Portman» على ذلك فيقول «مامن كمية من البحث على النسق الفيزيائى أو الكيميائى يمكنها أبداً أن تقدم صورة كاملة للعمليات النفسية والروحية والفكرية» .

كما أن بنفيلد لايتوقع أن يقوم علم وظائف الأعضاء فى المستقبل كما كانت تتوقع النظرة القديمة ، بإظهار إنبثاق العقل من المادة فيقول «يبدو من المؤكد أن تفسير العقل على أساس النشاط العصبى داخل الدماغ ، سيظل أمراً مستحيلاً كل الإستحالة» ولذلك فهو يرى أنه «أقرب إلى المنطق أن نقول إن العقل ربما كان جوهراً متميزاً ومختلفاً عن الجسم» .

ومن دواعى السخرية ان بنفيلد بدأ أبحاثه بهدف إثبات العكس تماماً ، فيقول «طوال حياتى العملية سعيت جاهداً كغيرى من العلماء

إلى إثبات أن الدماغ يفسر العقل» فهو قد بدأ مسلحاً بجميع إفتراضات النظرة القديمة ، غير أن الأدلة حملته آخر الأمر على الأقرار بان العقل البشرى والإرادة البشرية حقيقتان غير ماديتين . ويعلن بنفيل **«ياله من أمر مثير اذاً ، أن تكشف أن العالِم يستطيع بدوره أن يؤمن عن حق بوجود الروح» وإذا كان العقل والإرادة غير ماديين ، فلا شك إن هاتين الملكتين على حد تعبير أكلس «لا تخضعان بالموت للتحلل الذى يطرأ على الجسم والدماغ كليهما»**(١) .

مع الأرواح ...

كانت مخاطبة أرواح الأعزاء الذين ماتوا ، أو الإتصال بهم بطريقة ما ، من الآمال التى ساورت النفوس ، فمع أن سيادة المادية ، وأن الموت ينهى كل شيء ، كانت غالبة على المجتمع الأوربى طوال القرن التاسع عشر ، إلا أن طُلعة الإنسان لاتعرف حداً واستشرافها لا توقفه الأوضاع المقررة . دع عنك أن عاطفة الآباء والأمهات والأحبة للإتصال بأرواح المتوفين من الأبناء أو الحبيبات لابد أن تكون ولو عند القلة قوية . متوهجة .. ومن هنا نفهم كيف أن فكرة الإتصال بالأرواح نشطت فى بريطانيا وأمريكا فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر والأولى من القرن العشرين ، وفى عام ١٨٨٢ تكونت الجمعية العلمية في بريطانيا ورأسها الأستاذ سيجويك Henry sidgwick ، كما كان أحد وكلائها آرثر بلفور Arther Belfour ونائبها الثانى الأستاذ لنجلى T.P. Longley سكرتير معهد سميث سونيون Smaith sonion ، وأشترك فيها أوليفر لودج Lodge العالم الطبيعى البريطانى ، والأستاذ ريشه Richet الفرنسى ، وهو عالم في وظائف الأعضاء ، ومايرز وإ .جبرنى F.W.H. Myers: E.Gurney . وقد أزجى وليم جيمس فى كتابه «إرادة الإعتقاد» الثناء الجم لقادة الجمعية لما إتصفوا به من إخلاص ، وعبر عن أسفه لوفاة واحد من أبرز أعضائها .

---

(١) العلم فى منظوره الجديد – ص ٤٢ – ٤٣ .

وتراوحت أعمال الجمعية مابين التنويم المغناطيسى ، وإحضار الأرواح ، وقد تعرضت الجمعية لحيل وأفانين كثيرة من الأدعياء ، وكشفت عن بعضها فى التو واللحظة ، ولكنها تأثرت بالبعض الآخر أو كشفتها فى فترات متخلفة ، كما هو الشأن فى حالة الوسيطتين مدام بلافاتسكى ، واسابيا بالادينو ولكن كثرة عمل الجمعية وإخلاص ومثابرة أعضائها وضعتها على حافة عالم ما ينبىء بأن فى الإنسان شيئاً وراء الجسم والمادة ، ومع أن الأدلة التى حصلت عليها قد لا تكون حاسمة ، فإنها فى مجموعها لا يمكن أن تخلو من معنى .

وقد عنيت مجلة «المقتطف» فى القاهرة بهذا النشاط الذى كان شائعاً وقتئذ ، وتابعت عمل هذه الجمعية ونشرت نتائج أبحاثها فى سلسلة من المقالات جمعتها بعد ذلك وطبعتها فى كتاب بإسم «رسائل الأرواح» - (المقتطف ١٩٢٨) . وذكر فؤاد صروف فى مقدمته «وللمقتطف رأى مشهور فى مسألة مناجاة الأرواح وقراءة الأفكار ، وما إليها من مظاهر الروح يتلخص فى أنه لا ينفى مناجاة الأرواح وقراءة الأفكار ، ولكنه يرتاب فى صحتهما ، لأن أحد منشئية المرحوم الدكتور يعقوب صروف لم يقف فى أثناء مزاولته لهذه المباحث على ما يثبتها إثباتاً ينفى كل ريب من عقل تعود الخضوع للبرهان العلمى الرياضى ، وكان رحمه الله يقول ماخلاصته «إن كل ما اطلعنا عليه من هذا القبيل ، وكل ما إمتحناه بأنفسنا لم نجد فيه ما يخرج عن التخيل والخداع والإنخداع ، أو ما لا يفسر بالإستهواء الذاتى ، أو ببعض النواميس الطبيعية المعروفة أو مالا يمكن رده إلى غيره مما لايتعذر تفسيره أو ما فى صحته شبهة قوية» ولكنه كان ميالاً فى كثير من الأحيان إلى القول بأن بعض الناس يستطيع أن يدرك مافى نفوس غيره بغير الحواس المعروفة . وهذا هو التنبؤ وإنتقال الأفكار» .

وتضمن الكتاب مقالات عديدة بأقلام السير أوليفرلودج والسير آرثر كونان دويل ، وإشارات إلى مقتل ريموند أبن السير أوليفر لودج فى الحرب العالمية الأولى ، الأمر الذى دفع أباه للقيام ببعض التجارب الروحية بأمل أن يعلم شيئاً عن مصير أبنه ، وأعتقد إنه حقق ذلك ، وضمن تجاربه تلك كتاباً كبيراً حمل اسم أبنه «ريموند» وضمنه بعض الفصول لإثبات خلود الروح وإمكان مناجاتها .

وظهر الكتاب فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٦ فنفذت نسخه توا ، ثم طبع مرة أخرى وثالثة ورابعة قبل نهاية نوفمبر ، وأعيد طبعه في ديسمبر طبعتين وأعيد طبعه بعد ذلك مراراً . وتقول مجلة المقتطف فى كتابها المشار إليه آنفا . «.. وأمامنا الآن الطبعة السادسة الصادرة فى ديسمبر» ونضيف إن الطبعة التى فى مكتبتنا الخاصة هى الطبعة الحادية عشر وهى فى مستهل ١٩١٩ ، وكانت الطبعة السابقة عليها فى ديسمبر سنة ١٩١٨ .

وتضمن كتاب المقتطف بحوثاً ومقالات عديدة ، منها مناظرة ما بين سير آرثر كوين دويل ، والمستر جوزيف مكايب ، تحت رئاسة المحامى المشهور «إدوار مارشال هول» . تكلم كل واحد منهما أربعين دقيقة مؤيداً دعاويه وناقضاً دعاوى خصمه ، ثم سمح لكل منهما بالتعقيب على كلام مناظره . ومن الغريب إن السيد ميكاب Mccab وهو أحد رجالات الكنيسة السابقين كان معارضاً لفكرة وجود الأرواح ، وإمكان الإتصال بها ، ونسب ماأورده أعظم أثنين أيدا وجود الأرواح وهما لودج – ولومبروزو إلى مقتل أبن الأول وإلى تأثر الثانى بعته الشيخوخة . ورد سير آرثر كوين دويل بذكر أسماء الباقين من المؤيدين لوجود الأرواح وأشار إلى بعض التجارب .

كما عرض الكتاب لمقالات للأستاذ نيوكم والمستر ستيد الصحفى البريطانى الذى كان فى قمة الشهرة ، وبعض كتابات السير اوليفر لودج .

ووصف الكتاب فى فصول عديدة ، وبصفة مفصلة بعض جلسات الأرواح وما فيها من حقيقة وزيف ، ومن هذه الجلسات ، جلسات أعدها وسيط يدعى الكولونيل دى روشا ، ونشرت فى مجلة العلوم . ولهذه الجلسات أهمية خاصة بررت نشرها فى الكتاب تحت عنوان «**قبل الولادة .. وبعد الموت**» وجاء فيها إن بعض المتخصصين فى التنويم المغناطيسى يستخدمون إشارات طولية ، أى من أعلى إلى أسفل ، تجعل الوسيط يتذكر ماضى حياته إلى سن الطفولة ، وقد تستخدم إشارات عرضية للوصول إلى المستقبل ، وواصل الكولونيل دى روشا إشارته الطولية حتى سن الطفولة ثم جاوزها إلى فترة الولادة وما قبلها ، وكذلك واصل الإشارات العرضية حتى الوصول إلى سن الشيخوخة والهرم والموت .

وكانت الوسيطة فى هذه التجربة فتاة عمرها ثمانى عشر سنة لم تسمع شيئاً عن نشاط روحانى وأسمها مارى مايو وهى أبنة مهندس فرنسى أمضى جانباً من عمره فى بلاد الشرق فى إنشاء السكك الحديدية ، ومات فيها ، فتزوجت إمرأته مهندساً آخر من مهندسى السكك الحديدية ، وبقيت الأبنة فى مدينة بيروت إلى أن صار عمرها تسع سنوات ، وكانت تتعلم فى مدرسة للراهبات ، وتعلمت هناك مبادىء القراءة العربية ثم سافرت إلى فرنسا وكفلتها عمتها . وكانت تسكن فى البروفانس .

وبدأت الجلسات فى ديسمبر سنة ١٩٠٤ وأستمر طوال شهرين ، وفى أحدى هذه الجلسات أخذ ينومها حتى تكون الطيف المسمى بالجسم الأثيرى ، وحاول إخراجه من الغرفة فكان يصل إلى الجدران ويقف . وقال المنوم للوسيطة أن تمد إليه يد الطيف اليسرى فقرصها ، أى قرص الهواء ، فشعرت الفتاة بالقرصة ، وعندما أيقظها وجد فى يمينها علامة القرصة التى قرص بها الطيف .

وفى جلسة أخرى تعمق فى تنويمها حتى صارت ترى طيفها واقفاً بجانبها فقال لها ان تجعل شكله مثل شكلها وهى بنت ١٨ سنة ، ثم وهى بنت ١٤ سنة ، ثم وهى بنت ١٢ سنة ، ثم وهى بنت عشر سنوات وسألها إين كانت فقالت فى مرسيليا . وهذا صحيح ، ثم وهى ابنة ثمانى سنوات فقالت إنها فى بيروت . فسألها عن معنى كلمة «بون جور» بالعربية فقالت «سلام عليك» ثم طلب أن تعود إلى السنة الرابعة ، وعندما ردها إلى السنة الأولى لم تعد تتكلم ، بل كانت تكتفى بالنظر وقولها نعم أولا ، ولما أرتدت إلى ما وراء ذلك بقيت تشعر بوجودها ولكن ليس فى حالة محددة فأعادها إلى حالتها الطبيعية حتى وصلت سن ١٨ .

وفى جلسة أخرى أعادها إلى زمن ولادتها . وإلى ماوراء ذلك . وجاءت نتيجة أسئلته أنها إمرأة إسمها لينا ، وكانت زوجة لصياد أسماك أسمه أيفون ، وكان لها ولد وحيد مات وعمره سنتان ، وتحطمت السفينة بزوجها فى البحر فمات غرقاً ، فيأست من الحياة وألقت بنفسها فى البحر وأكل السمك جسمها .

وصعدت إلى الهواء ورأت فيه كائنات كثيرة ، ولكن لم يسمح لها بالتحدث معهم ، ولم تتألم أو تتعب ، كان هذا بالنسبة لماضيها ، أما بالنسبة لمستقبلها . فرأت انها وهى فى التاسعة عشرة من عمرها تسافر مع أمها ويقيمان فى بلاد أهلها زنوج عراة .

وفى جلسة أخرى تتدرجت فى تاريخ ماضيها ، فكانت ترى طيفها يصغر كلما صغرت سناً حتى إذا صارت جنيناً فى بطن أمها زال الطيف تماماً وأمتزج فى الجو ، ولما صارت لينا وماتت دخلت العنمة وحاولت أن تلتقى بزوجها وولدها فلم تلتق بهما . وكانت فى زمن لويس الثامن عشر ، وقبل ذلك كانت رجلاً أسمه شارل لوفيل ، وكان رجلاً شريراً قتل بعض الناس ، ولما صار عمره خمسون سنة مرض ومات وسار طيفه فى الجنازة وسمع الناس يقولون «لقد تمادى فى الشر» وبقى فى حالة غير راضية حتى دخل جسم لينا .

وكانت مارى تأخذ أشكال وأوضاع كل حالة يردها إليها التنويم ففى سن السنتين قالت إنها لاتعرف أن تتكلم ، وعندما أمرها أن تعود إلى بطن أمها وسألها «أين أنت الآن» . فقالت «لا أدرى ولكنى أشعر بشيء متحرك ثم قالت إن طيفها قد تجسم عندما قطع الحبل السُرى ، وإنها بدأت تتنفس ، وعندما أمرها أن تكون على الحالة التى غرقت عليها دارت على جانبها الأيمن ووجهها بين يديها وظهر على وجهها دلائل الموت والخوف وصار حلقها يتحرك كمن يبلع الماء غصباً عنه ونطقت بإلفاظ غير مفهومة وبدا على وجهها الألم الشديد حتى أيقظها .

وكان تعقيب المقتطف فيما يبدو لنا ركيكا إذ أعاد ذلك إلى أن العقل الباطن للفتاه حفظ كثيراً مما سمعته وقرأته فى حياتها فتذكرت بعضه وهى فى حالة الإستهواء ، وإن أسئلة الكولونيل دى روشا ولدت فى ذهنها صوراً جديدة حددتها من محفوظاتها . فلما قال لها من كنت قبلما ولدت أخيراً ، قالت كنت إمرأة وقصت قصة إمرأة تعرفها أو سمعت أو قرأت عنها وأبدت من الإنفعال والإشارات ماينطبق على الأحوال التى صورتها فيها ، فكانت تتألم عند

المخاض وتتخبط عند الغرق ، ولما سألها من كنت قبلما صرت هذه المرأة ، قالت كنت رجلاً ، وكان يمكن أن تقول إنها إمرأة أخرى ، ولكنها ذكرت أول خاطر أخطره السؤال فى بالها . والظاهر إن هذه الخواطر التى أخطرتها مسائل الكولونيل فى بالها فى الجلسات الأولى صارت تخطر فى بالها فى الجلسات التالية على ترتيبها ، بل صار خطورها فى الجلسات التالية أسهل حدوثاً لأنها كانت قد خطرت ، والمؤثر واحد وهو السؤال ، فلابد أن تخطر بعد أن أنضم إلى السؤال مؤثر آخر وهو الصورة السابقة التى أرتسمت فى الذهن على أثر السؤال الأول ، فصارت كمن يتذكر فى الجلسات الأخيرة ما كان يقوله فى الجلسات الأولى . وهذا التعليل لايزيل كل غرابة من حادثة هذه الفتاة وأمثالها ، ولكنه يزيل أغرب مافيها على ما نرى» .

أديسن والأرواح :

لايقل أهمية ، بل بالتأكيد يزيد عما جاء فى الفقرات السابقة التى أوردها كتاب المقتطف «رسائل الأرواح» ماأورده الكتاب تحت عنوان «ماوراء القبر» وأجمل فيه رأى المخترع الأمريكي المشهور أديسن عن الأرواح ، ومحاولته **إختراع آلة يمكن بها الإتصال بالأرواح** . ولعلها المحاولة الوحيدة ، التى لم تتم وعجز عنها هذا المكتشف الذى سجل مئات الأكتشافات .

ونشر المقتطف نص حديث الصحفى الأمريكى «لسكريورا» مع أديسن نقلاً عن مجلة «السينتفك أمريكان» وجاء فيه :

«ان اديسن الذى استنبط المصباح الكهربائي والفونغراف والصور المتحركة وبطرية النكل والحديد والدينامو الكامل وغيرها من المكتشفات والمخترعات التى تدخل أعمالنا اليومية سيوجه سعيهُ وجهدهُ إلى امر يفوق كلّ اكتشاف واختراع بما لايقاس . فان فى العالم نحو ١٥٠٠ مليون نسمة سيدركهم الموت عاجلاً أو آجلاً ولكنهم يجهلون كلّ الجهل مصيرهم بعدهُ . ومثل ذلك يقال عن مجيئنا الى هذه الدنيا . وعليه فالحياة والموت لايزالان سرًّا من الاسرار ولغزاً من الالغاز التى لم يفتح بها على مخلوق .

منذ بضع اسابيع شاع ان هذا المخترع العظيم يعدّ طريقة أو آلة لمخاطبة الذين انتقلوا من هذا الوجود الى وجود آخر او عالم آخر . فنشرت صحف اميركا واوربا ان توماس اديسن اندمج فى صفوف الروحانيين الذين بينهم الآن كثيرون من كبار العلماء والمؤلفين والمخترعين والطبيعيين والمهندسين ورجال الدين وغيرهم . ووصف الكتّاب الفرنسويون الواسعو الخيال آلة اديسن بانها محطة تلفونية أو مكتب تلغراف أو ما اشبه يقصدها الناس ليخاطبوا منها ارواح احبائهم واصدقائهم فى العالم الآخر بطريقة عاجلة اكيدة .

وليس فى الناس احد اشد اسفاً من المستر اديسن على اذاعة اخبار مثل هذه . فقد قال لى فى حديثى معهُ «انى لا استطيع تصور شىء يسمونهُ الروح . تصوّر شيئاً لا ثقل لهُ ولا صورة مادية ولا حجماً . وبعبارة اخرى تصور غير شىء . انا لا استطيع أن اعتقد ان الارواح يمكن ان ترى فى احوال معينة وتحرك الموائد أو تقرع عليها أو تعمل اعمالاً سخيفة مثل هذه وكل ما قيل من هذا القبيل حديث خرافة» .

واقول هنا انهُ انما قابلنى لازالة ما علق بالاذهان من الاشاعات التى شاعت عن غرضهِ من البحث والتنقيب فى هذا الموضوع . ولا تزال الآلة التى شاع انهُ يصنعها فى دور التجربة والامتحان . وقد طلب منى ان اعلن ما يأتى . قال :

فكّرت منذ مدة فى اختراع آلة أو اداة يمكن ان نستخدمها أو يؤثر فيها الذين غادروا هذا الوجود الى وجود آخر او عالم آخر . والآن اسمع وعِ ما اقول لك . انا لا ادعى ان شخصيّاتنا تنتقل الى وجود آخر او منطقة اخرى . ولا ادعى علم شىء فى هذا الموضوع لانى لا اعلم شيئاً فيه ولا احد من الناس يعلم . **ولكنى ادعى أنهُ يمكن صنع آلة بالغة من الدقة مبلغاً بحيث انهُ اذا كان اناس فى عالم آخر يريدون مخاطبتنا فى هذا العالم فان هذه الآلة تكون اوفى بهذا الغرض من تحريك الموائد أو النقر عليها أو غير ذلك من الوسائل السخيفة المعروفة .**

والحق يقال ان سخافة هذه الوسائل هي التي تحملني على الشك في صحة مناجاة الموتى التي يدعونها . فلستَ ادرى لِمَ يضيع الاشخاص الذين في العالم الآخر وقتهم في تحريك مثلث من الخشب على مائدة عليها حروف الهجاءِ . وما غرضهم من تحريك الموائد . هذا كلهُ يظهر لي من الاعمال الصبيانية حتى لا استطيع ان ابحث فيهِ بعين الجدّ والاهتمام . وعندي انه اذا شئنا أن نتقدم تقدماً حقيقيا في البحث العقلي وجب ان نُقيم عليه بالآلات العلمية وبالطرق العلمية كما نفعل في الطب والكهربائية والكيمياء وغيرها .

اما ما أُريد ان اعملهُ فهو ان اجهز الباحثين في المباحث العقلية النفسية بآلة تلبس عملهم لباساً علميًا . وهذه الآلة ستكون مثل مصراع او تشبه مفتاحاً صغيراً يستطيع بهِ رجل واحد ضعيف القوة ان يفتح مصراعاً تدار به آلة قوتها ٥٠ الف حصان . وستكون آلتي على هذا المثال حتى ان اصغر قوة تكبر بها كثيراً فتساعدنا على بحثنا . ولا اقول اكثر من ذلك عن ماهيتها . وقد مضت عليَّ مدة وانا اشتغل بتفاصيلها وكان يعاونني في عملي هذا صديق فتوفي منذ حين . ولما كان يعلم ما انا ساعٍ اليهِ فالواجب ان يكون أول من يقدم على استعمال هذه الآلة ان استطاع ذلك .

واعلم انى لا ادعى انى اعلم شيئاً عن بقاءِ الشخصيات بعد الموت ولا اعد بمخاطبة الذين انتقلوا من هذا الوجود وانما اقول انى ساعٍ في تجهيز الباحثين النفسيين بآلة قد تساعدهم في عملهم كما يساعد المكرسكوب رجال الطب في مباحثهم . واذا عجزت هذه الآلة عن ان تكشف لنا شيئاً خارق العادة فانى افقد كل ثقة وايمان ببقاءِ الشخصيات بعد الموت كما تعرفهُ في هذا الوجود» .

ومما يقال عن المستر اديسن انهُ لا يصدق المذاهب المعروفة في الحياة والموت لانهُ يعتقد انها فاسدة الاساس . قال لي باسطاً مذهبهُ فيهما «عندي ان الحياة كالمادة غير قابلة للفناءِ . فقد كان في هذا العالم مقدار معين من الحياة على الدوام وسيبقى هذا المقدار كما هو على الدوام ، فانك لا تستطيع خلق الحياة

ولا ابادتها ولا مضاعفتها . وفي اعتقادي ان اجسامنا مركبة من ملايين من الكائنات المتناهية في صغرها وكل منها حي مفرد ويرتبط بعضها ببعض لتكوين الانسان . ونحن نقول عن انفسنا ان كلاً منا شخص واحد قائم بنفسهِ ونتكلم عن الهرة او الفيل أو الحصان أو السمكة كأن كلاً منها فرد قائم برأسهِ ولكني ارى ان طريقة التفكير هذه فاسدة الاساس فان هذه الاشياءَ كلها تظهر انها بسيطة مفردة لأن الكائنات الحية التي تتألف منها اصغر من ان ترى حتى باعظم المكبرات .

وقد يُعترض على هذا الرأي بانهُ اذا كانت هذه الكائنات صغيرة الى هذا الحد فلا يمكن ان تكون مؤلفة من اعضاءٍ مختلفة تستطيع القيام بالاعمال التي سأذكرها . فاقول في الردّ على ذلك انهُ لا حدّ لصغر الأشياءِ كما أنهُ لا حدّ لكبرها واكتشاف الالكترون خير جواب على مثل هذا الاعتراض . فقد ظهر لي بالحساب انهُ يمكن وجود حي متقن التركيب والتنظيم مؤلف من ملايين من الالكترونات الصغيرة التي لا ترى بما نعرف من المكبرات .

وهناك دلائل كثيرة تدلُّ على اننا نحن الخلائق البشرية يتصرف كلٌّ منا تصرّف جماعة من الاحياءِ لا تصرُّف حي واحد . وهذا ما يحملني على الاعتقاد ان كلاً منا يحتوي على ملايين من الاحياءِ وان اجسامنا وعقولنا تمثل افعال الكائنات التي تتألف منها .

ولننظر الآن في السبب الذي يحملني على القول انهُ لابدّ ان تكون اجسامنا مؤلفة من هذه الكائنات . خذ بصمة ابهامك كما يفعل البوليس في بصم أباهم المشبوهين ثم ازل خطوط ابهامك بحرقها بالنار . فمتى نما الجلد ثانية تجد ان خطوطهُ لم تتغير البتة عما كانت قبل احتراقهِ وقد امتحنت ذلك بنفسي حتى تحققتهُ . هذا سر من الاسرار مافتيءَ مغلقاً حتى الآن . تقول لي ان هذا عمل الطبيعة . فان هذا جواب يراد به المحاولة لا غير اذ لا معنى لهُ بل هو وسيلة لاسكات السائل بذكر كلمة فارغة مكان الجواب . ان كلمة «طبيعة» ما اقنعتني قط . اما جوابي انا فهو ان الجلد لم ينبت ثانية كما كان اولاً بمجرد الاتفاق بل ان هناك من وضع رسوم النموّ الثاني وعني بمطابقتهِ لرسوم النموّ الاول من كل وجه . وانت لا تعلم شيئاً من تلك الرسوم وعليهِ فان دماغك لم يشترك في هذا العمل . وهنا تدخل الكائنات المشار اليها وتشترك في العمل . وانا اعتقد

جدَّ الاعتقاد انها تحوك نسيج جلد الابهام بمزيد العناية مستعينة على رسم التفاصيل الدقيقة بذاكرتها العجيبة .

ولزيادة الايضاح اقول . لنفرض ان كائناً من سكان المريّخ هبط الى هذه الارض . ولنفرض ان بصرهُ ليس دقيقاً كبصرنا وان اصغر شيء يمكنهُ ان يراهُ بعينيهِ هو جسر (كبرى) مثل جسر بروكلين وعليهِ فانهُ لا يرى اجسامنا وقد يحسب الجسر المذكور شيئاً طبيعيًّا كما نحسب نحن العشب او الرمل أو المعادن وغيرها من الاشياءِ الطبيعية . ولنفرض انْ هُدم جسر بروكلين وذهب ثم عاد بعد سنين فمرَّ من هناك فوجد جسراً جديداً مكان القديم وعلى مِثالهِ . فهل يقودهُ الفكر الصحيح الى افتراض ان الجسر الجديد نما بنفسهِ مكان القديم وعلى مثالهِ أو الى افتراض انهُ مُدَّ ثانية بفعل فاعل عاقل . لا ريب ان الفرض الثاني اقرب الى العقل .

هذا هو الموقف الذي يجب ان نقفهُ نحن بازاء الكائنات الحيوية . والمسئلة كلها مجرّد افتراض وتخمين كما لا يخفى . فقد يكون ٩٥ فى المئة من تلك الكائنات التى تتألف اجسامنا منها عمّالاً والخمسة الباقية مديرة للعمل وقد تكون غير ذلك . ومهما يكن الامر فان مجموعها هو الذى يكوّن شكل اجسامنا الطبيعى وصفاتنا العقلية وشخصياتنا وما اشبه ذلك .

وهذه الكائنات هى الحياة بعينها وهى لا تفتأُ تعمل وترمم انسجة اجسامنا وتشرف على وظائف اعضائنا . فاذا اصيب الجسم بطارىءٍ افضى إلى موته كأن يكون مرضاً عضالاً أو عارضاً أو هرماً فان هذه الكائنات تفارقهُ ولا تترك ورآءها الاَّ بناءً خاوياً خالياً . ولما كانت عمالاً لا تكلُّ ولا تمل فاما ان **تدخل جسم انسان آخر أو تبدأ العمل فى صورة آخرى من صور الحياة واشكالها . وسواءٌ كان هذا أو ذاك فان هذه الكائنات محدودة العدد وهى نفسها عملت كل شىءٍ فى عالمنا هذا ولكن تعدد التراكيب** التى تتألف منها هو الذى أوقعنا فى الخطاء فحسبنا ان لكلّ مولود حياة جديدة .

وهذه الكائنات خالدة لا تموت فانك لا تستطيع افناءها كما لا تستطيع افناء المادة وجهد ما هناك انك تستطيع تغيير صورة المادة لا غير . فقد كان مقدار

الذهب والحديد والكبريت والاكسجين وغيرها فى بدءِ العالم كما هو الآن بلا زيادة ولا نقصان . نعم اننا نستطيع التغيير فى تركيب مركبات هذه العناصر ولكننا لم نظفر بتغير نسبها بعضها الى بعض .

وهذا هو حال الكائنات الحيوية فاننا لا نستطيع افناءَها بل نغير صورها واشكالها . وقدرتها متعددة الضروب حتى يصعب علينا تمييز اعمالنا فى كل الاحوال . وعليهِ لم يستطع العلماءُ حتى الآن ان يرسموا حدًا بين الاشياء الحية وغير الحية . وقد يكون ان هذه الكائنات تمتدّ الى الجماد وتعمل فيهِ والاَّ فما هو الشيءُ الذى يجعل البلورات تتكون على اشكال هندسية محدودة.

والآن نأتى الى مسئلة الشخصية . انت لسكربورا (اسم الكاتب) وانا اديسن لان فى كلّ منا مجموعاً من الكائنات يختلف عن مجموع الآخر . فقد اثبت الطب باثنتين وثمانين عملية جراحية شهيرة عملت حتى الآن ان مركز شخصيتنا هو فى تلفيف من تلافيف الدماغ اسمهُ تلفيف «بروكا» . ومن العقل والصواب ان نفرض ان مركز مقرّ الكائنات التى تدير حركاتنا وتشرف عليها انما هو فى ذلك التلفيف . فهو الذى يشعرنا بالتأثيرات العقلية وبشخصيتنا .

ولقد قلت ان ما نسميهِ الموت انما هو مفارقة تلك الكائنات لابداننا . والمسئلة كلها فى زعمى هى مسئلة مايجرى للكائنات المرشدة التى مقرها فى تلفيف «بروكا» . اذ المعقول ان الكائنات الاخرى التى تعمل عملاً ميكانيكيًا فى اجسامنا تتشتت وتذهب فى جهات مختلفة طلباً للعمل فيها . اما الكائنات التى تتكوّن منها شخصيتنا فتكون انت بها لسكربورا واكون انا اديسن ويكون زيد زيداً فماذا يجرى بها . هل تبقى مجموعة واحدة أو تتفرق فى الكون طالبة العمل منفردة لا مجتمعة . فان كانت تتفرق فان شخصيتنا لاتبقى بعد الموت . فقد تقدم القول ان هذه الكائنات تعيش الى الابد وتمنحنا الخلود الذى يرجوهُ كثير منا ولكن ان كانت تتفرق ثم تتحد بكائنات اخرى لتؤلف اجساماً جديدة منها فان ذلك يضيع علينا شخصيتنا والخلود الذى نرجوهُ اى خلود تلك الشخصيات بعينها .

ولى الرجاءُ ان شخصياتنا تبقى . فان كانت تبقى فان الآلة التى انا ساع

فى اختراعها لابدَّ ان تفيدنا . وهذا ما يحدو بى على الانهماك بعملها واخراجها على غاية من الدقة . وانى انتظر النتيجة بذاهب الصبر» .

هذا ماجاء فى كتاب المقتطف «رسائل الأرواح» والذى صدر عام ١٩٢٨ ولم نعد نسمع شيئاً عن محاولة أديسن ، ولعلها أبرز المحاولات التى فشل فيها ، لأن مجالها يجاوز عبقريته ، وهو بالنسبة للمسلمين أمر مفهوم ، ولكنه قد يكون لدى غيرهم دليلاً على عدم وجود الأرواح .. .

ماذا رأت شيرلى ماكلين ؟

شيرلى ماكلين ، كما قد يعرف بعض القراء ، راقصة ومغنية وممثلة أمريكية رزقت شهرة مدوية فى هذه المجالات خلال الستينات ، وقد يعجب البعض أن نزج بها فى كتاب إسلامى ، ولكن المؤمن قد يضع صدقته فى يد بغى ويثاب عليها ، وشعارنا الذى نردده دائماً ، هو «**المقولة» لا « القائل**» فلايهمنا القائل ، وإنما تهمنا مقولته . فإذا كانت مقولته صائبة ، فلا يعنينا القائل فى شىء . وقد قامت شيرلى ماكلين برحلات عديدة الى آسيا ، وافريقيا وقد الفت عدداً من الكتب ومعظمها من اكثر الكتب انتشاراً .، والكتاب الذى نقتبس منه إشارتنا يتضمن صفحات عديدة عن حياتها الخاصة وغرامها ورواياتها وأغنياتها مما لا يهمنا هنا ، ولكنه تضمن أيضاً وصفاً دقيقاً لتجارب روحية ، ومناقشة علمية لها استشهدت فيها بشواهد من أينشتين وغيره ، بل ظهر أنها اطلعت على أبحاث عالم المخ «ويلدر بنفيلد» الذى أستشهدنا به فى احدى الفقرات السابقة فى هذا الفصل وهذا القسم هو ما يهمنا هنا . وما نرى فيه إضافة جديدة للموضوع خاصة وأن جزءاً منها يتفق تماماً مع بعض ما جاء فى القرآن الكريم .

وكتابها الذى نشير اليه هو «الرقص فى الضياء» Dancing in Light .

تقول شيرلى ماكلين إنها ذهبت إلى سانتافى (المكسيك) لتعالج على يدى سيدة متخصصة فى العلاج النفسى عن طريق الإبر الصينية الذهبية تدعى

«كريست جريسكون» تقوم على أساس أن وخز بعض المناطق الحساسة أو الخلايا يطلق ذاكرة الخلية فتطرح مامر بها من تجربة . وهى تؤمن أن كل ما يحدث لنفس الإنسان ينطبع على جسده ، وتحتفظ خلاياه به . فإذا وضعت الإبر فى مواضع معينة مثل منطقة العين الثالثة وهى وسط الجبهة ، أو وراء الأذنين أو على الكتفين يميناً ويساراً ، فإن الإنسان يستعيد مشاهد من حياته الماضية إذ تبدأ الصور تظهر أمام «عين عقله» بقدر ما تثيرها الأبر . وأكدت الطبيبة أن هذه الصور ليست خيالاً صوره عقلها ، ولكنها تجارب سابقة . وان طاقة الجسم الإنسانى مثل الموجات الكهربائية - المغناطيسية (إلكتروماجيك) وأنها تنطلق من الجسم والعقل .

وقد يمكن للذين يتقدمون روحياً الإتصال بهذه الموجات كما يحدث فى جهاز راديو .

وأمضت شيرلى ماكلين جلستين طويلتين كانت فى حالة لا تشبه أبداً التنويم المغناطيسى ، إذ كانت تشعر أنها تتلقى وتلاحظ فى الوقت نفسه ، وأنها تعمل على مستويين من الوعى فى وقت واحد .

فى الجلسة الأولى ، وبعد وضع الابر فى أماكنها ، وبعد فترة من الأسترخاء أخذت الصور تتراءى . فرأت مرة سيدة مصرية قديمة تلبس رداءاً ذهبياً إرجوانياً وكأنها ملكة ، ثم رأت أفريقية فقيرة تبكى وعلى صدرها طفلة جائعة ، ثم رأت رياضياً يونانياً أورومانياً قوى الجسم يجرى برأس مرفوعة .. ورأت فى هذا كله صورة لأمها فى عصور مختلفة ، ثم رأت هرماً من الكريستال يبرز من البحر شرقى الولايات المتحدة ، يلمع فى الشمس ، وتحس أن الجو رطب وأن حبيبات من الرطوبة تغلف الهواء ، ورأت أبواباً من الكريستال وأبهاء وقاعات كلها خالية وسط صحراء بلقع ، ثم تغير المنظر فرأت حدائق وأنهار ونافورات وقصوراً من الكريستال ، وإناس يذهبون ويجيئون ، وحيوانات وطيور ، وبدا وكأنهم يتخاطبون بطريقة غير محسوسة ، والألوان برتقالية ووردية ، كأنها قوس قزح ، وسألت طبيبتها فقالت لها إن ماتراه هو

«أتلانتس» قبل أن تندثر ، وأن الكريستال خاصة إذا أستخدم فى لباس الرأس يساعد على الإتصال بالوعي الأعلى . وأن الصورة التى شاهدتها عند الأبواب المهجورة هى لها بعد إندثارها ، وإن هذا يمكن أن يحدث لحضارتنا .

وكانت شيرلى ماكلين خلال الجلسة ، وكذلك خلال الجلسة الثانية تخاطب الطبيبة عما ترى فتسألها فترد عليها الرد المناسب .

وفى الجلسة الثانية وبعد غرس إبرة إضافية فى منطقة الحنجرة ، وبعد بعض التعب شاهدت شيرلى صورة لشخص أقرب إلى الرجولة منه إلى الأنوثة . قويا ، جميلاً ودوداً ، وعندما سألته من هو قال لها «أنا أنتِ ! أنا نفسك الأعلى Higher Self . ودار حديث طويل بدافيه وكأنه روحها ، أو نفسها مجسمة ، وقال إن صورته أقرب إلى الذكورة منها إلى الأنوثة ، لأن الذكورة إيجابية والأنوثة سلبية ، الذكورة تعطى ، والأنوثة تتلقى (وقد كان فى هذا الرد ما أقنع شيرلى ماكلين عن تساؤل كان يخطر لها دائماً ، لماذا كان الأنبياء جميعاً ذكوراً ولم يكن منهم نساء) وسألت شيرلى «نفسها الأعلى» عما إذا كان يمكنه أن يوقف أهتزاز أغصان شجرة تراءت لها من النافذة ، فقال لها «أطلبى منها الإذن أولاً» وقالت «وهل تحس الشجرة» فقال لها «إن كل صور الحياة تنبض بالشعور . وسألت شيرلى الشجرة أن توقف أغصانها عن الأهتزاز . وبعد فترة قصيرة سكنت الأغصان دون أى حركة أو نأمه ..

قد يكون فى هذا كله شيء من الهلوسة والخلط ، ومعروف أن عالم الأرواح حافل بالأرواح الشريرة والطيبة على السواء ، ولكن هذا لا ينفى أمرين يستحقا النظر فى كتاب شيرلى ، وصفحاته تنوف على أربعمائه . الاول أن بعض ما جاء فيها يتفق مع ماجاء به القرآن . فهى تؤمن أن كل خلية من خلايا أعضاء الجسم لها ذاكرة ويمكن أن تطلق ما عرض لها من تجربة .. «أخذت أنظر إلى ساقىّ وقدمىّ فى البانيو وأقول إن لهما ذاكرة خاصة بهما» .

إن هذا قريب جداً مما جاء فى القرآن الكريم من شهادة الأيدى والأرجل والجلود على أصحابها يوم القيامة ﴿حتى اذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم

وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة ، وإليه ترجعون﴾ .

(٢٠ - ٢١ فصلت)

وكذلك ما جاء عن الشجرة ، إنها تؤكد أن ما من شيء الا يسبح الله ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم .

وثمة فقرة تذكر الانسان بحديث «ان الميت يعذب ببكاء اهله الذي اختلف فيه المحدثون» . وهي تتعلق بزميل لها يدعى كريستوفر . كان في الثلاثين من عمره عندما أصيب بالسرطان وتنبأ له الاطباء بالموت الوشيك . ولكن شيرلي ماكلين أخذت تحثه على التشبث بالحياة ، وتبعد عنه فكرة الموت عندما ظهر لها «نفسها الاعلى» وخاطبها غاضباً «لماذا ترين لنفسك الحق فى الاصرار على بقاء كريستوفر حيا بالجسم ، عندما يكون امامه ما يشغله فى الابعاد العليا ، انت تعلمين انه لن يموت حقاً فدعيه يمضي لطيته . ان احداً من الناس لا يمكن أن يعلم ماذا يريد الآخر أو ماذا يعمله ...»

فأجابته ان كريستوفر يريد ان يحيا بالبدن فقال لها ان جزءً منه فحسب هو الذى يريد هذا - ولكن «نفسه الاعلى» يريده . وانت لا تفهمين هذا لانك انما تقدرين الحياة فى البدن . فدعيه يمضي في هدوء .

بعد هذا كفت عن ان تشجع زميلها ، أو تأسى له ، وبعد ستة اسابيع عندما آوت الى فراشها مبكرة احست بشعاع من نور كأنه نسيم . فظنت ان الشمس قد اشرقت ، ولكن الظلام كان مطبقا على الغرفة . ومع هذا ظلت تحس بالنور في رأسها وكانت تشعر انه يحيط بها . فعلمت ان كريستوفر قد مات . وعندما تلقت مكالمة تليفونية بعد ذلك بموته قالت لمحدثها «لقد علمت بالفعل ...» .

والثانى تأملاتها لخاصة فى ما انتهى إليه تطور علوم الطبيعة (الفيزياء) خاصة بعد نظرية الكوانتم التى كانت أشبه بصدمة هزت وزلزلت كيان الرياضات السابقة عليها وتطورت حتى أوجدت عالماً جديداً أبرز مافيه

«الوعى» الذى لا يقتصر على الإنسان ، ولكن على كل شيء ، بما فى ذلك **جزئيات ماتحت المادة** Subatomic Particles **والفوتون** Photon **وان الكون من** ناحية محكوم بقوانين دقيقة تضبط حركات الأجرام السماوية .. ولكنه من ناحية أخرى يرفض «الميكانيكية» فتظهر خوارق وسلوكيات تنم عن إرادة لا تخضع **للقوانين العليا التى تحكم الكون ، ويمكن أن تفسر من مدخل صوفي أكثر مما تفسر بمدخل علمي ، إذ أنه لا يوجد علم مضبوط** Exact Science **على ما** قال ورنرهيز نبورج صاحب نظرية «اللاحتمية» وان رياضيات الكوانتم تقودنا إلى المكان الوحيد الذى علينا أن نذهب إليه وهو «أنفسنا» .

وأشارت شيرلى إلى أن بعض كهنة «اللاما» كانوا يثقبون فى الماء المتجمد ثغرة يدخلون فيها . ويتأملون حتى يذوب الثلج ويتصاعد البخار من أجسامهم . وقالوا ببساطة أنهم كثفوا أو استحثوا الطاقة الأليكترو ماجيك للذرات داخل أجسامهم . وهم يقولون ان معدل الطاقة الاليكترو ماجيك يمكن أن تغير من طبيعة الأشياء الثابتة كحرق النار أو تجمد الثلج ، فليس هناك قوانين ثابتة بالنسبة للوعى .

والفكرة الرئيسية التى تسيطر على شيرلى ماكلين هى اتفاق العلم والدين بالنسبة لقضية الروح والله تعالى وهى تؤمن إيماناً لا يخالجه شك فى وجود الله تعالى وخلود الروح . وإيمانها ينبثق من العلم والدين معاً ، وهى تأخذ **منطلقها من الطاقة التى يمكن أن تكون وعياً وروحاً كما يمكن عندما** تتجمد أن تصبح مادة وجسماً . وهى تؤمن أن رجل العلم ورجل الدين سيتلاقيان عند قمة جبل المعرفة يوماً ما . لأن مدخل كل واحد منهما وإن اختلف فى الوسيلة فهو يستهدف هدفاً واحداً هو الحقيقة وبهذا يكملان بعضهما بعضا . والدين عقيدة دون علم والعلم برهان دون عقيدة والمدخل الروحى لحقائق الكون وما فيه من اتساق يعترف بالأبعاد غير المرئية داخل وعينا ، والمدخل العلمى يعترف بالابعاد نفسها من خارجنا . وقد قارب العلم الحديث أن يقول إنهما شيء واحد . وأن الوعى يجمعهما .. وأن المدخلين ضروريان للمعرفة الشاملة .

★ ★ ★

السؤال الذى قد يتبادر إلى ذهن القارىء المسلم بعد قراءة ما جاء عن عالم الأرواح هو « أين الإسلام فى هذا .» بمعنى أن عالم الأرواح ، كما عرضناه ، لايفرق بين مسلمين ، وغير مسلمين ، ومعظم ماأوردناه ، أو كل ماأوردناه هو عن أقوال أوربيين مثل ما شاهدته شيرلى ماكلين ، وما قامت به الجمعية العلمية فى بريطانيا ، وهى كلها لاتشير إلى أى أثر للأديان سواء كانت مسيحية أو إسلامية .

وقد يرى البعض أن ما أوردناه ، وإن كان يثبت خلود الروح ، فإنه يضع علامة إستفهام كبرى عن مدى تجاوب ذلك مع التراث الإسلامى والمفهوم التقليدى لعالم ما بعد الموت .. وهى شبهة قوية ، ويمكن أن لاتقتصر على المسلمين ، ولكنها تمتد إلى المؤمنين بالأديان الأخرى .. ولابد من تصفيتها لأنها تمثل أحد الرواسب العميقة فى نفوس المؤمنين على أختلاف أديانهم .

فالسبب الأول لها يعود إلى ما قرره القرآن ﴿قل لو أنتم تمسكون خزائن رحمة ربى لأمسكتم خشية الانفاق﴾ فالإنسان تغلب عليه الأثرة والأنانية وضيق الأفق والإنطلاق من منطلق ذاتى فلا يري لغيره ، وبالأكثر لغير المؤمنين بدينه ، حقاً فى رحمة الله أو دركاً لمغفرته مع أن أنبياء هذه الديانات على اختلافهم التمسوا من الله تعالى الرحمة للمخالفين ، فهذا إبراهيم يقول ﴿ ومن عصانى فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ وهذا رسولنا محمد « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .. وكما سنشير فى موضع لاحق فإنهم يطلبون الرحمة والعفو لمن هم أشد الناس استحقاقاً للعقاب لأنهم الذين عارضوا أو خالفوا الرسل وجهاً لوجه وبصورة مباشرة .

ولكن أين فهم الأتباع من فهم الأنبياء . ان من العسير على الأتباع أن يفهموا أن رحمة الله تسع المخالفين لأنهم يوزعونها بمقاييسهم ونفسياتهم . .

وهناك بعد ما ينساه أصحاب الأديان ، أن لاعقاب .. إلا برسول ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ .. وأمريكا وأوربا لاتعرف رسالة الرسول العربى ، ولم تقرأ أو تسمع القرآن . وما لدى بعضها من معلومات عن الإسلام

هى معلومات مشوهة ، وواقع المسلمين يجعلهم « فتنة » للأوربيين تبعدهم عن الإسلام . فكيف يطبق على هؤلاء معايير المسلمين الذين يقرأون القرآن ، أو يتلى عليهم القرآن .. ليل نهار ..

فإذا حوسب هؤلاء فعلى أساس المسيحية التى هى ديانتهم ، وتظل ديانتهم حتى تبلغهم رسالة الإسلام «كالمحجة البيضاء .»

ومعظم هؤلاء يؤمنون بإله واحد ولا يفقهون من لاهوت التثليث الكنسى شيئاً ، وحتى الذين ينظرون منهم إلى المسيح كابن الله فباعتبار المعنى المجازى الذى قد يؤديه الأثر « الناس عيال الله » .

وقد تكون أخلاق هؤلاء أقرب إلى خلق الإسلام من كثير من المسلمين ، ومعاملاتهم ، أشد إتقاناً ، ونظمهم السياسية أقرب إلى القيم الأدبية والمعنوية التى هى فى أصل الأديان جميعاً ، فحتى لو أعطينا أنفسنا سلطة الحكم ، فإن كفتهم قد لا تكون المرجوحة .

وقد عالج الغزالى وضع الناس بعد بعثة الرسول فقال إنهم أصناف ثلاثة :

(١) من لم تبلغهم دعوته . ولم يسمعوا به أصلاً . أولئك مقطوع لهم الجنة .

(٢) من بلغتهم دعوته وظهور المعجزات على يديه وما كان عليه من الأخلاق العظيمة والصفات الكريمة . ولم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانينا . أولئك مقطوع لهم النار .

(٣) من بلغتهم دعوته لله ، وسمعوا به ، ولم يمتثلوا أوامره ونواهيه . وهؤلاء أرجو لهم الجنة إذا لم يسمعوا مايرغبهم فى الإيمان به .

ويشرح الشيخ عبدالعال شاهين الفقرة الأخيرة فيقول « يريد الغزالى بهذا أنهم سمعوا عنه أخباراً مكذوبة وعن دينه أخباراً لا تنطبق على حقيقته كالتشويه فى أخبار الرسول أنه مزواج مطلاق . وأن دينه دين وثنية لأنه كان يسجد

للكعبة . وأنه خالف جميع الأنبياء واتجه إليها ولم يتجه إلى بيت المقدس إلى نحو ذلك مما يقولون . وهم لا يعقلون الا ترهات وأباطيل [١] ».

وكلام الغزالى صريح فى أن من لم تبلغه دعوته ، ولم يسمعوا به أصلاً « مقطوع لهم الجنة » » ومعظم الأوربيين والأمريكيين والأسيويين (من هنود أو صينيين أو يابانيين) يدخلون فى هؤلاء إذا لم يدخلوا فى الفئة الثالثة التى « يرجو لها الجنة » .

فالقضية محلولة .. وعلى المسلمين أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا غيرهم . وليدعوا غيرهم إلى الله لأنه تعالي هو الذى سيفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

خاتمة الفصل :

توصلت البحوث العلمية الأخيرة إلي وجود «روح» أو «عقل أو «إرادة» أو «وعى» لا يفنى بفناء الجسد المادى ، كما أن التجارب الروحية وقفت على حافة العالم الأثيرى الغامض الذى تختلط فيه الحقيقة بالوهم ، وأظهرت أطيافاً للروح لها حقيقة ما ، وإن صعب تعينها على وجه التحديد ، ولم يكن من هذا مناص ، وقد قال القرآن الكريم وهو يشير إلى الروح ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ .

وأظهرت التجارب أن العلم فى هذا المجال يتحسس طريقه ، وانه يحاول التعرف على حقائق مرحلة متقدمة فى حين أنه لم يحل مشاكل سابقة عليها ، أو يصل فيها إلي تقرير حاسم ، فحتى الآن نحن لا نعرف تماماً ماهى الحياة ، فنحن على سبيل المثال – لا تعرف ما إذا كان الفيروس حياً أو غير حى لأن الفيروس لايتنفس ، ولا يأكل ولا يشرب ، ثم أنه قد يتحول إلى ملح أو بللورات تذوب في الماء كما يذوب السكر مثلاً ، ولم نشهد كائناً واحداً يمكن أن تكون له مثل هذه الصفات ثم نضعه فى قائمة الأحياء .. فهو إذن جزئيات ميتة ، ولكن

---

(١) جريدة الجمهورية فى يوم ١٩٨٤/٧/٥ .

قولك إن الفيروس ميت خطأ أيضاً ، لأن الفيروس يتكاثر وتصبح له ذرية ، وهذه صفة مميزة من صفات الحياة ، لكن تكاثر الفيروس لايتم إلا إذا أستعار روح غيره ، بمعنى أنه يدخل خلية يهواها ، وبالخطة الوراثية الكامنة على شريط أو جزئية الوراثى يعرف كيف يستعبدها ويستعمرها فيأمرها بتشغيل أجهزتها الحيوية لحسابه ، فتأكل له وتتنفس له ، وتصنع له «حياته» وذريته على حساب حياتها هى ، ولكى تبعث ذرية بالعشرات أو المئات من داخلها كان لابد أن تموت هى ليخرج هو .. ليس كفيروس واحد بل فيروسات كثيرة لتسلك سلوك الأموات ، فإذا عادت إلى الخلية دبت فيها بعض خصال الأحياء .

وقل مثل هذا عن الطاقة والمادة ، والموت والحياة » ، كما أننا أحيانا لانستطيع أن نحدد إن كانت بعض المخلوقات نباتات أو حيوانات ، فهناك كائنات أولية بسيطة لاترى إلا بالميكروسكوبات ، وعندما تنظر إليها تريد بذلك تصنيفها أو وضعها فى مملكتها الصحيحة ، عندئذ لا تستطيع أن تحدد ذلك . ففيها صفات النبات جنباً إلى جنب صفات الحيوان . ومن أجل هذا ترى علماء النبات يضعونها فى كتبهم ومراجعهم ، وكذلك يكون الحال مع علماء الحيوان ، فهى نبات فى حيوان أو حيوان فى نبات[1]» .

ولم يتصور الإنسان حياة نشطة فى غير الصورة العضوية التى تقوم على لحم ودم سواء كان فى الإنسان أو الحيوان أو الطيور أو الأسماك . ولكن الإسلام يحدثنا عن مخلوقات من نور كالملائكة . وعن شياطين «من مارج من نار» .

فالدين أوسع آفاقاً من العلم فى هذا المجال ، وبالطبع فنحن لا نعلم شيئاً عن حياة مخلوقات من نور أو نار . ولكن المهم أن الصورة العضوية ليست هى الصورة الوحيدة للحياة ، التى يتصورها الإنسان ، والتى جعلته عندما يتصور مخلوقات فضائية يعطيها صورة قريبة من صورته ، وأن تفاوتت طولا

---

(١) أنظر مقالاً بعنوان «الحائرون الثلاثة» بقلم الدكتور عبد المنعم صالح فى مجلة العربى العدد ٢٣٢ - مارس ١٩٧٨ ص ٣٩ .

وعرضاً ، الأمر الذى يوضح أن الإنسان رغم كل تقدمه فإنه لم يستطع تصور حياة مختلفة عن حياته الخاصة .

فإذا كنا لا نعرف الحياة تماماً ، فنحن أيضاً لانعرف الموت تماماً وهل هو «نوم طويل بدون أحلام» – إن النائم المسجى على سريره هو – إلى حد ما – كالميت الممدد فى كفنه فلا هو يسير ، أو يتكلم أو يأكل أو يشرب أو يمارس نشاطاً مما يمارسه الإنسان فى حياته ، ولا يملك قوة تدفع عنه الأذى والفرق الأعظم بين الموت .. والنوم .. هى اليقظة فى الصباح ففى حالة الموت ، لايأت هذا الصباح – كما يتصور المنكرون للبعث – أو يأت بعد فترة – قد تكون ألوف السنين ، عند البعث ، ولكنها بالنسبة للميت عندما يبعث «يوماً أو بعض يوم» لأن مدلول الزمن مفقود فى حالتى النوم .. والموت ...

وفى هذا النوم ، والعيون مغلقة ، والبظاطين مسدلة ، ترينا الأحلام عالماً سحرياً .. رجال ، ونساء ، وبلاد ، وحيوانات ، وحوادث .. ويقولون إنها «العقل الباطن» . وهل يرى العقل الباطن ويقطع المسافات ويؤلف الروايات ، ويظهر للعين المغلقة الرؤى والمشاهد . دع عنك صدق كثير من الأحلام ، سواء فى المستقبل أو الماضى . وهى حالات متواترة فى الشرق والغرب . فى الحديث والقديم – .. وقد اجاز ابو بكر وصية ثابت بن قيس التى ذكرها فى المنام لأحد اخوانه . وهى واقعة مؤكدة ، ومذكورة فى معظم كتب الحديث[1] .

ولقد يبدو قياس الموت على النوم فجاً ، ولكن الظواهر التى تكتنف الزمن تسمح لنابه ، بل وتجاوزه ، كما أن حقيقة أن المادة طاقة مختزنة محبوسة ، وأن الطاقة مادة متحررة منطلقة ، جعل التحول من مادة إلى طاقة – أو العكس – ليس مستحيلاً من الناحية النظرية ، حتى فى صورة لاتكاد تصدق .

---

(١) انظر على سبيل المثال «سر الروح للامام البقاعى الشافعى ، وكان ثابت قد قتل يوم اليمامه وعليه درع نفيسه ، فمر به رجل من المسلمين . فأخذها . فجاء ثابت لرجل من المسلمين فى المنام وقال له «اوصيك بوصية فاياك ان تقول هذا حلم فتضيعه» ثم وصف له مكان درعه ، واين خبأها من أخذها – ثم اوصاه اذا قدم على ابى بكر بالمدينة ان يسد دينه وان يحرر بعض عبيده الخ ... فأخبر الرجل خالداً فأرسل فأحضر الدرع ثم لما ذهب الرجل الى المدينة ذكر لأبى بكر رؤياه فأجاز ابو بكر ما جاء بها وقالوا : «لانعلم احداً اجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس» .

وقد نال مدرس مصرى درجة الدكتوراة من كلية الهندسة حول ذلك الموضوع ويومها قال إنه نظرياً يمكن إرسال انسان باللاسلكى بواسطة جهاز إلى أمريكا فى جزء من الثانية وإستقباله هناك بجهاز آخر يعيده بشراً سوياً»[١] . «وقال بعض علماء الطبيعة «اننا لو تصورنا إنسانا يعيش على احد الاجرام السماوية التى تبعد عن الارض اربعة الاف سنة ضوئية ، ولو تصورناه يملك منظاراً ضخماً يمكنه ان يرى مايجرى على الارض لاستطاع هذا الانسان ان يرى الآن فى هذه الساعة الحوادث التى كانت تجرى على الارض منذ أربعة الآف سنة – أى لرأى المصريين القدماء وهم يبنون معبد الكرنك أو لرأى تحتمس أو رمسيس الثانى وهما يخوضان معاركها فى كادش ومجدو»[٢] .

وثمة ظاهرة طبيعية معروفة تدعى «الإنسلاخ» Metamorphosis تحدث لبيضة دودة القز «التى تنقف عن دويدة صغيرة تنمو حتى تصير يسروعاً يلتهم أضعاف وزنه من ورق التوت الغض ، فإذا بلغ أشده واكتمل حجمه فكان حوالى ثلاث بوصات طولاً – تأبى وأمسك عن وليمته تلك ، وحل بسلوكه تحول ظاهر ، يرفع رأسه ويمضى متراوحاً قدماً طوراً ، ورجعاً آخر ، وما يلبث أن يمج من مغزال فى فكه الأسفل خيطاً حريرياً دقيقاً يثبته إلى غصين أو حامل آخر راسخ مطمئن ، ومن ثمة يأخذ فى الغزل ألتفافاً ثم ألتفافاً فى دورة على صورة الرقم الأفرنجى 8 بضعة أيام ، فيقيم من حول نفسه كسوة طول خيوطها ألف ياردة أو أكثر من حرير ثمين حتى يصبح محوياً فى داخل فيلجة بيضاء .

ثم يخيم السكون المطلق ، ويظهر اليسروع بمظهر المأخوذ بالنعاس ملفوفاً فى كفن من الحرير .. قد أسمى هذه الحال نوعاً من النوم ، ولكن فى داخل حشوته البدنية ، تبدأ إستحالة من نوع باهر عجيب ، فإن كثيراً من أعضائه وأنسجته تأخذ فى التقشر ثم تنبذ ، ومن مادتها تتخلق أبنية جديدة مختلفة تماماً عن أصلها ، هى أعضاء البعوضة المجنحة ، كما لو أن هذا الكائن العضوى

---

(١) أنظر مقالاً فى العدد ١٢٥٦ من مجلة صباح الخير فى ١٩٨٠/١/٣١ «أستعدوا للسفر فى الفضاء ، ص ٥٠ .

(٢) الاسلام ورسوله بلغة العصر للاستاذ أحمد حسين ص ٨٨ .

هو في جملته حيوانان مختلفان خلق الثاني من الأنقاض البدنية المتخلفة عن الأول[١] ».

فهل هناك ماهو أكثر إثارة للدهشة والعجب من أن يتحول اليسروع المكفن في فيلجة بيضاء من الحرير إلى بعوضة مجنحة تنطلق في الفضاء ؟ إنه ليروق للإنسان أن يتصور أرواح الشهداء هكذا وقد أنطلقت من أجسامهم حتى تتعلق بأطيار الجنه .

إننا لا نستطيع أن نجزم بعدم وجود أرواح ، بل نحن نجزم بوجودها ، ولكننا لا نستطيع أن نعرف عنها المعرفة المحددة التى تتشهاها الطُلعة الإنسانية . أو يرتضيها العلم ومقاييسه ، وكما قلنا ، فأنه لم يكن من هذا بد .. لأن الروح تظل من أمر الله ، ويظل علمنا مهما كثر .. قليلاً أمامها .. وعلينا أن نقتنع بالمبدأ العام الرئيسى الذى يمكن .. لولا التعنت والتمحك .. أن تتلاقى عليه العقلانية والأسلام . وهو خلود الأرواح – ولكن دون معرفة دقيقة لحالها ..

وقد يقنعنا في هذه الحياة الدنيا أن ما كنا نحبه فى من فقدناهم من أم أو زوجة أو أبن أو أب ، وما كان يذكرنا بهم ويأخذ بألبابنا من حركة وسكنة ، ونغمة فى الصوت وومضة فى العين «ولازمة» عند القول أو العمل ، بل حتى ملامح الوجه وإتساق الأعضاء .. الخ إن هذه اصلها **صفات والصفات** لاتموت بموت أعزائنا .. ويمكن أن نحتفظ بحبنا لها ، ويمكن أن نتلمسها فى آخرين – كنوع من الإحياء لها – **ويمكن أن يكون حبنا لهذه الصفات معبراً مابين الحياة** والموت .

قال أحد الكتاب :

«كان لأمى تأثير كبير جداً فى حياتى ، فقد كنت أحبها : أحب كل ملامح وجهها ، وأنغام صوتها ، ولمحات عينيها ،. ثم أنتبهت ذات يوم إلى أن ما كنت أراه فيها ليس هو ذاتيتها ، وأن صفاتها الحقيقية هو ما فيها من حب وعطف ورحمة ، وهذه الصفات ليست مايرى بالعين» .

---

(١) حياة الروح فى ضوء العلم ص ٥٤ .

الفصل التاسع

الدار الآخرة : الجنة . والنار

يصل تجهم العقلانية للدين إلى غايته عند ذكر الحياه الآخرة ، وماتصطحب به من ثواب وعقاب وجنة ونار ، فإن وجود جنة «عرضها السموات والأرض» ونار تشوى الوجوه ، هو أمر يصعب على العقلانية أن تسيغه ، وما أيسر أن تقول مع الذين قالوا ﴿إن هى إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ .

نعم ليس هناك ماهو أسهل من الإنكار ومن التخلى عن الإيجاب وما يتطلبه من إثبات .. ورغم الدهشة التى قد تمتلك النفوس ، أول وهلة ، من وجود دار آخرة ، فهناك أكثر من مبرر أصولى واحد ، يوجب ايجاباً وجود الدار الآخرة ..

هناك غلبة الحياة على العدم ، ولماذا نقبل فكرة الإندثار النهائى للحياة الإنسانية ، وللجنس الإنسانى وأديانه وفلسفاته وحضاراته .. وكأنها لم تكن ، ولانقبل إعادة لهذه الحياة بعد إندثارها .. إن الماديين أنفسهم يرفضون فكرة الأندثار . فعلماء الطبيعة يرون ان الطاقة لاتفنى ، وانما تغير نفسها ، ولما لم تكن جامدة ، فانها تأخذ اشكالاً متفاوتة تتوالى من حياة الى حياة ، وعلماء الاحياء يذهبون الى ان المادة لاتفنى ويتحدثون عن «دورات الحياة» فالذين يموتون ويدفنون تتحلل أجسامهم إلى عناصرها الأولى بفعل الميكروبات التى

تملأ التربة ، ومن هذه العناصر تستمد الأشجار بفضل جذورها الضاربة فى أعماق الأرض غذاءها الذى يمكن الأشجار بفضل عملية التمثيل الضوئى من أن تثمر ثمارها . وعلى هذه الأثمار وما يماثلها من بقول أو خضر يعيش الحيوان والإنسان حتى يموت لتبدأ دورة جديدة من دورات الحياة بحيث جاز لكاتب أن يقول «فما يدريك بعد هذا ان جسم سقراط أو الأسكندر أو تيمور لنك قد توزعت عناصره بين شجرة وطائر وثعبان ودودة وحصان وآلاف أخرى من الأحياء : لقد أختفوا ظاهرياً فى التراب كما أختفى غيرهم ، ولكن عناصرهم دارت وتدور فى أحياء أخرى .

ومايدريك إن الجسم البض الذى يتلوى أمامك على خشبة المسرح راقصاً رقصات تثير الإعجاب ، مايدريك إن عناصره كانت من قبل موزعة بين جراثيم وأميبا وخنافس وسحال وثعابين وديدان وخنازير وكلاب وغير ذلك . وقد تظنون أننى أقصد بهذا تناسخ الأرواح ، ولكن ماهذا قصدت ، بل أعنى تلك العجلة الضخمة التى تدور بعناصر الأرض وبأحيائها ، فتحيل التراب حياة والحياة تراباً[١]» .

فهذا نمط من «البعث» بالتعبير القرآنى فى صورة مادية وإذا كان الله تعالى قد وضع سُنناً تجرى بها هذه الدورات فى صورة متكررة آلية غير محسوسة ، وتحمل مع هذا صورة من صور الإعجاز والخلق ، فماهى الغرابة فى أن ينشأ الله نشأة أخرى يوم تبدل السموات غير السموات والأرض .. عندما يحدث عارض يودى بالكرة الأرضية أو يؤدى إلى فناء الجنس البشرى عليها ..

أما كيف يبعث الله تعالى العظام وهى رميم فهو السؤال الذى ردده المشركون فى القديم ، ويردده الماديون فى الحديث ، وقد رد عليه القرآن رداً منطقياً ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشاها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ (٧٨ يس)

---

(١) دورات الحياة للدكتور عبد المحسن صالح - المكتبة الثقافية يناير ١٩٦٣ - ص ٥٠ .

﴿وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ (٢٧ الروم)

★ ★ ★

وليس الإسلام وحده هو الذى يقول هذا الكلام ، إن اليهودية والمسيحية تذهب إليه أيضاً وبنفس الألفاظ تقريباً «فالقيامة» – وهو التعبير المسيحى للدار الآخرة لدى المسلمين – موضوع مقرر ، ومقدس ، وليس هناك ماهو أكثر تأثيراً ولمساً للنفس من عبارة «**رقد على رجاء القيامة**» التى نراها على شواهد قبور المسيحيين ، أو نقرأها فى صفحات الوفيات .

جاء فى كتاب الخلود للدكتور سيد عويس

«وقد وجه العهد القديم النظر إلى القيامة . فقد جاء فيه «تحيا أمواتك تقوم الجثث استيقظوا ترنموا ياسكان التراب (اكو ١٥ – ١٣ – ٢٤) وكثير من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية ، وهؤلاء إلى العار للأندراء الأبدى . والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور» ، ولما لم يؤمن اليهود بهذا ، وقالوا إن عظامنا قد صارت أرضاً وفنيت » .. هاهم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا . فقد أنقطعنا ، كانت الإجابة على ذلك .. قل لهم هكذا : قال السيد الرب : هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم ياشعبى وآتى بكم إلى أرض إسرائيل . فتعلمون أنى أنا الرب عند فتحى قبوركم وإصعادى إياكم من قبوركم ياشعبى وأجعل روحى فيكم فتحيون وأجعلكم فى أرضكم فتعلمون أنى أنا الرب تكلمت وأفعل» (حز ٣٧ : ١٢ – ١٤) .

وقد أكثر كتبة العهد الجديد من ذكر القيامة المجيدة للأجساد إيذانا بمركزها العظيم بين المبادىء المسيحية وتعظيماً لفوائدها . حيث وردت كلمة «قيامة» مع مشتقاتها نحواً من مائة وإحدى وعشرون مرة . منها إحدى وعشرون تختص بالقيامة الوقتية ، والمائة بالقيامة الأخيرة . هذا عدا مترادفاتها كالحياة وغيرها ومستلزماتها كالدينونة ونحوها .

وكان الرسل الأماجد فى خطبهم العامة والخاصة ، يجتهدون فى أن يجلوا موضوع القيامة مقررين إياه بوضوح ، كما أثبت ذلك «لوقا الإنجيلى» فى سفر الأعمال . ففى خطابات «بطرس» الخمسة ، قرر هذه الحقيقة عشر مرات ، وفى خطابات «بولس» الستة ، ذكرها فى خمسة منها عشر مرات أيضاً ، كما أن خطاباته التى ألقاها ولم يسجل نصها ، كانت مرتكزة عليها . منها خطبه الثلاث التى ألقاها فى مجمع تسالونيكى ، كانت تعلن بوضوح هذه الحقيقة ، «فدخل بولس إليهم (مجمع اليهود) حسب عادته وكان يحاجهم ثلاثة سبوت من الكتب - موضحاً ومبيناً أنه كان ينبغى أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات (١ ع ١٧ : ٢ - ٣) ، وكان موضوع بشراه فى أثينا ، نفس هذا الحق «يبشرهم بيسوع والقيامة (١ ع ١٧ : ١٨) . ومن فحوى خطابه الخاص ل «فيلكس» نرى أنه لم يغفل عن الإلمام إلى هذه الحقيقة بطريق الكناية «الدينونة العتيدة» (١ ع ٢٤ : ٣٥) .

ومانلك إلا لكون الرسل أعتبروا أن القيامة هى الموضوع الجوهرى ، الذى شعروا بمسئوليتهم نحوه بالشهادة الصريحة فى كل حين بمنتهى الشجاعة والتضحية : «وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيامة الرب ، لذا أثبتوا فى صلب قانون إيمانهم أن «**أومن بقيام الجسد**»[1] .

والكيفية التى تبعث بها الاجساد فى المسيحية قريبة من كيفية بعث الاجساد فى الاسلام «**فما ان ينفخ فى البوق حتى تقوم الاجساد الميتة ، وتسلم البحار** الأموات الذين غرقوا فيها . وتتقرح الصخور والكهوف «وكل عبد وكل حر أخفوا أنفسهم فى الغابر وفى صخور الجبال» وحينئذ يتقدم ملائكة الله ليفصلوا الأشرار من الابرار فيقف الابرار عن يمين الله ، أما الهالكون الأشرار فيحشرون جميعاً الى اليسار . ويكون مصير الأولين الحياة الأبدية ، بينما يكون مصير الآخرين العذاب الأبدى أو النار الأبدية المعدة لابليس وملائكته»[1] .

(١) ص ٨١ - ٨٢ .

الدار الآخرة – هيكل العدالة المثلى :

على أن السبب الأعظم الذى يوجب إيجاباً قيام «الدار الآخرة» فى الاسلام هو إستكمال العدالة التى عجزت الحياة الدنيا عن أن تحققها . فالفكرة الرئيسية فى الدار الآخرة هى إثابة المحسن وعقاب المسيء . وللقيام بهذا الدور ومن أجله أوجب الله تعالى الدار الآخرة وقرن بها الجنة والنار ، وهو أمر واضح جداً فى القرآن ومكرر فى مئات الآيات التى يعجز عن إستيعابها هذا الفصل ، فالدار الآخرة هى هيكل العدالة الكاملة والمثلى التى تنتصب لكل مظلوم «حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء لم نطحتها» . كما جاء فى الحديث وسواء أريد بالحديث هذه الواقعة وأمثالها بالذات أو أريد به رمز لشمول العدالة ، فإن الفكرة فى الدار الآخرة هى دار «العدالة» .. وبدون الدار الآخرة لايكون هناك عدالة ، لأن محاكم الدنيا ، كما يعلم كل فرد ، إذا أدانت ظالماً فإنها تفلت عشرة ، فضلاً عن أن هناك من القضاة من كان يجب أن يقف موقف المتهمين والعكس بالعكس ، وحتى لو أدانت المجرمين فإنها لاتثيب المحسنين ، فإذا سمح بهذا فإن بناء العدالة ينهار ، فالعدالة لابد وأن تكون عدالة كاملة أذكى من تحايل المخادعين وأقوى من هيمنة السلاطين .

وقد كانت هذه النقطة – أعنى الحاجة إلى هيكل للعدالة المثلى – هى التى جعلت الفيلسوف كانت يؤمن بالدار الآخرة ، لأن فلسفته القائمة على الواجب لايمكن أن تكتمل إلا بوجود مثل هذه المحكمة التى تجعل للواجب كياناً وواقعاً يخرج به من إطار الفرض النظرى . وتمثل هذه اللفتة نقطة التقاء بين المدخل العقلانى لمؤلف «نقد العقل المجرد» والمدخل الإيمانى للاسلام . وتبرهن على أن البحث المخلص الأمين عن الحقيقة يجعل أصحابه يصلون فى النهاية إليها ، حتى وإن أختلفت سبلهم واساليبهم ومداخلهم .

ونوجه الإنتباه إلى نقطة هامة للغاية ، إن فكرة خلود الروح كانت فى بعض الديانات والمعتقدات – هى التى أدت إلى وجود الدار الآخرة ، بل وإلى وجود الله تعالى كما رأينا فى الفصل السابق ، ولكن الامر فى الإسلام مختلف ، فإن

فكرة العدالة التى يقوم عليها الإسلام هى التى إستتبعت خلود الروح لتأخذ العدالة مجراها . ومن هنا جاء التركيز فى الحياة الآخرة على الثواب والعقاب ، أى العدالة التى لاتفلت أحداً بما فى ذلك المسلمين أنفسهم .

وتتضح أهمية هذه الملاحظة من أن خيال الإنسان القديم أظهر له الخلود كأمل أسمى ومواصلة للبقاء الذى قطعه الموت . وبالتالى قاده إلى الإيمان بالله . ولكن خيال الأنسان الحديث قد لايجعل الخلود هو الأمل الأسمى له ، كما كان بالنسبة للإنسان القديم[١] ومن ثم لايكون هناك مبرر لأن تأخذ الدار الآخرة الصورة الصارمة التى أخذتها فى الأسلام ، بل لقد يفضل الكثيرون أن لاتوجد أصلاً ، لأن الخوف من عذاب النار قد يفوق الأمل فى نعيم الجنة .

والفرق بين الاسلام والأديان الأخرى فى هذه النقطة هو الاختلاف مابين المنطلق الموضوعى . والمنطلق الذاتى . الحقيقة الموضوعية بكل مافيها من تجرد ، والمنطلق الذاتى الذى يبلور الهوى الفردى .

والعدالة فى حقيقتها تعنى الحق ، فهى الحق مطبقاً ، والحق هو الأساس لكل شيء ، وللاديان وللسموات والأرض ، بل هو أعظم ، هو اسم من أسماء الله تعالى ، وهو رمز الله تعالى . وأقرأ إذا شئت :

﴿ثم ردوا إلى الله **مولاهم الحق** ألا له الحكم﴾ **(٦٢ الانعام)**

﴿فتعالى الله **الملك الحق**﴾ **(١١٤ طه)**

﴿ذلك بان **الله هو الحق** ، وإنه يحيى الموتى﴾ **(٦ الحجر)**

﴿ذلك بان **الله هو الحق** ، وان مايدعون من دونه الباطل﴾ **(٣٠ لقمان)**

﴿الم تر أن **الله خلق السموات والأرض بالحق**﴾ **(١٩ ابراهيم)**

---

(١) أنظر ماجاء فى كتاب «الخلود للدكتور سيد عويس» عن ملاحظة وليام اوسلام من ان اقلية من المحتضرين كانوا يرغبون فى حماس فى حياة بعد الموت . وأن أقلية أخرى كانوا يأملون فى الفناء النهائى . أما الأغلبية من هؤلاء الأشخاص فقد كانوا غير مكترثين ص ٥٨ .

﴿وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق﴾ (٨٥ الحجر)

وقد يتشدق البعض .. هذا فرض .. وليس دليلاً ، ونحن نقول إن كل الحقائق تبدأ بفروض وتنتهي بالحقائق والوقائع . وهذا هو العقل أما الحس فهو يعجز عن الوصول إلى الأدلة ، وجدير بالعقلانين ان يؤمنوا بما يوجبه العقل . لا الحس ، وإذا وصلت السفسطة بنا إلى إنكار «الحق» و «العدل» ومايوجبانه فلا فائدة .

وليس يصح فى الأفهام شيءٌ
إذا احتاج النهار إلى دليل

والحقيقة التى لايمارى فيها أحد هى أن نظمنا الدنيوية عجزت عن تحقيق العدالة ، وحتى عندما تدعى بعض الدول أنها تطبق الشريعة فإما أنها لم تفهم الشريعة حق الفهم .. أو أنها أساءت التطبيق بحيث أصبحت الدنيا دار ظلم أكثر مما هى دار عدل . فهناك الملايين الذين يكدون ويشقون ويعملون ليل نهار فى صمت ولاينالون مايكفل لهم الحياة الكريمة أو يتيح لهم حظاً من الإستمتاع ، فهم يعيشون ويموتون يلفهم الجحود والنكران ، كجنود مجهولين فى جيش جرار طواه الزمان ، وفى مقابل ذلك يظفر الدهاه والمنافقون وأبناء الأغنياء وورثة الحكام بالذكر والشهرة ويتمتعون بكل طيبات الحياة . وقد يكون منهم من لم يعمل عملاً صالحاً فى حياته أو يحسن شيئاً ، وقد يكون بينهم من يستحق السجن أو يكون قد أرتكب من الموبقات ما لو قطع إرباً لما نال مايستحق ، ونجد الغادرين من الساسة .. والقتلة من العسكريين يتصدرون قوائم الشرف ويشغلون مناصب الرئاسة ، وعندما يموتون يشيعون بمواكب مهيبة .. فإذا جاز أن يستمر هذا وأن يقف الأمر عنده لما كانت هناك عدالة ، ولما كان هناك حق ، ولكان كل هذا الوجود باطلاً ..

وقد يقول قائل .. ولماذا سمح الله تعالى بكل هذه المظالم فى الحياة الدنيا ، وكان يمكنه تعالى أن يحول دونها بادىء ذى بدأ ولايكون هناك حاجة

لإستئناف . والذى يسأل هذا السؤال هو كمن يسأل لماذا لم يجعل الله تعالى للناس عيناً فى ظهورهم ليروا بها ما خلفهم أو يجعل بدلاً من أقدامهم المنبسطة دائرة كالعجلة .. الخ هذه السفسطات والأسئلة التى لاتقف عند حد . إن الله تعالى أوجد الحياة الدنيا تبعاً لنواميس معينة ، وجعلها إختياراً ومسرحاً للفتنة من ناحية والإيمان من ناحية أخرى . ولم يجعل الإنسان ملاكاً ، وكان يمكنه ذلك ، فلا يخطىء ولايذنب ، وسلح كل واحد بالهداية كما سلط عليه الفتنة . وصورة الحياة الدنيا على ما فيها من نقص وقصور أكثر روعة من حياة الملائكة الذين لايفتنون ومن ثم لايذنبون ولايحاسبون ، شرط أن يتم الإنصاف فى الحياة الأخرى حتى لايكسب الظالمون من ظلمهم ، ولا يغمط المحسنون إحسانهم .

الجنة والنار :

إن الحياة الآخرة فى جوهرها «محكمة عدالة» لأثابة المحسن .. ولعقاب المسىء .

كيف يثاب الأول ؟.. وكيف يعاقب الثانى ؟
أوجد الأسلام جنة للأولين .. وجحيما للآخرين

وعلى الذين يعجبون أو ينكرون أن يقولوا لنا ماذا كان يمكن أن يوجد للثواب والعقاب غير هذين ؟

وقد لايكون هناك إعتراض على إيجاد الجنة والنار ، خاصة وأن الإسلام لم ينفرد بهما ، فهما فى معظم الأديان ، وإن تميز الإسلام بتأكيدهما بصفة لاتوجد فى الأديان الأخرى بإستثناء الديانة المصرية القديمة .

ففى المسيحية جنة ونار ، وبالنسبة للجنة ، استخدمت المسيحية التعبير الذى استخدمه الاسلام تقريباً «ما لم تر عين ولم تسمع اذن . ولم يخطر على بال انسان ما أعده الله للذين يحبونه» (اكو ٢ : ٩) وجعلت المتعة العظمى فى الجنة الأنس بلقاء الله تعالى (كما فى الاسلام) اما النار فهى نار حقيقية مستعرة - كالتنور - الى الأبد .

وإنما يكون اعتراض المعترضين على ما أقترنت به الجنة والنار من صفات ، ففى الجنة حور عين ، ولحم طير ، وأنهار من عسل ولبن وأساور من ذهب واستبرق وفى النار جحيم ومهل يشوى الوجوه وسلسلة ذرعها سبعون ذراعاً .. الخ ، واعتراض المعترضين ينصب على «حسية» النعيم فى الجنة و «وحشية العذاب فى النار ..

وهى شبهات روج لها المستشرقون وأعداء الإسلام ولكنها قد تخطر لغيرهم من الذين لم يلموا بالأبعاد الكاملة لهذه القضية ، فيحكمون عليها بالظواهر أو بما يتطرق إلى النفس أول وهلة ، دون تحقيق فكر أو إنعام نظر ..

والرد على هذه الشبهات متعدد الوجوه ، وذى فى النهاية يمحوها تماماً .. ولايدع لها أثراً ..

فأول شىء .. إن علينا أن نفهم طبيعة الخطاب القرآنى وهدفه ..

فالقرآن الكريم ليس قصة لها بداية تبدأ منها .. وله نهاية ينتهى بها ثم يسدل الستار عليها ، وليس هو سرداً لتاريخ أو إنباءً بمعلومة .. لايترك أثراً .. ولاهو مجرد إعلام ببعض الظواهر أو الوقائع ، أو المبادىء .. إن القرآن كتاب هداية وموضوعه الإنسان وهدفه هو هداية هذا الإنسان ، وهذه الهداية تتطلب عادة كفاحاً وجهاداً وقوة وعزيمة كى ينتقل الإنسان من عالم الضلالة إلى عالم الهداية . خاصة إذا أقترن عالم الضلالة بالشهوات وبما تهوى الأنفس ، وبما خلفه الآباء وماتقره الأوضاع القائمة بالفعل .

والإنسان هنا اسم جنس كما يقولون .. أى أن المقصود به الانسان فى كل زمان ومكان .

علينا أن نقدر مدى صعوبة المهمة التى تصدى لها القرآن والتى لا تماثلها فيما نعلم مهمة ثانية حتى بالنسبة للأديان الأخرى التى كانت مقصورة على اناس دون اناس ، وعلى زمن دون زمن .

والقرآن كما هو معروف نظم لكلمات ، ولايملك قوة أخرى غير هذه

الكلمات . فكان يجب أن تكون هذه الكلمات من القوة بحيث تصيب من الانسان الموضع المؤثر والوتر الحساس ، وبالتالى يمكن أن تغير وتحقق الهداية .

وهذا أمر لايتأتى بسرد ، أو بإعلام ، أو بتقرير حقائق علمية وحسابية ، فلو جاء القرآن بأن ناتج ضرب ٢ × ٢ هو ٤ ، أو أن أطول أضلاع المثلث أقصر من ضلعيه الآخرين لما لمس هذا نفسية الناس . فلم يحدث أبداً أن قامت ثورة لمثل هذا الهدف ، أو تحركت الجماهير لتحقيقه ، أو غير شيئاً من نفسية الناس ، فالمدخل الوحيد لتغيير الناس هو معالجة «النفس» ، التى لاتختلف بإختلاف الأزمان والأماكن . وبقدر ما يعالج أصل ما فى هذه النفس ، بقدر ما يكون عمق التأثير والتغيير .

من هنا اكتسب الخطاب القرآنى طبيعة نفسية «سيكولوجية» وأسلوباً فنياً ، لأن الفن وثيق الصلة بالنفس .

وكان لابد بالنسبة لمعالجة القرآن للثواب والعقاب أن يأخذ هذا الطابع ، كما أخذته معالجة القرآن للقضايا الأخرى الرئيسية للإيمان والهداية .

وطبيعة المعالجة النفسية - الفنية لها مقتضيات لايمكن أن تقوم إلا بها ، منها تكثيف التصوير بحيث يُضمن تأثيره على الطبائع الجافية ، والقلوب القاسية والنفوس اللاهية ، وإستخدام الرمز ، والإستعارة والمجاز والإلتجاء إلى التكرار والتأكيد والأطناب ، وإستخدام الجرس الموسيقى للفظ بحيث يدخل الأذن ، ويصل إلى أعماقها .. وغير ذلك من المقتضيات التى تتطلبها الفنون التى يراد بها التأثير على النفس ، بالإضافة إلى نبل المعانى وسمو الغايات التى هى لب الهداية .

ولم يكن هناك معدى من هذا ، مادامت معجزة الإسلام كتاباً . ومادام هدف هذا الكتاب هو تغيير النفوس وإنقاذها من الضلالة إلى الهداية ، ولم يكن ليجدى إستخدام إسلوب الحوار «السقراطى» الذى يتطلب محاوراً

ومحاوَرا وأسئلة وأجوبة ، أو تقرير مبادىء علمية لاتتحرك لها النفوس أو الأقناع العقلى المجرد والجاف .

ان مخاطبة الجماهير العريضة ليس فحسب عن موضوع الهداية بل حتى فى الموضوعات العلمية يتطلب اسلوباً خاصاً يختلف عن الاسلوب الفنى والاصطلاحى تماماً . وقد لاحظ اينشتين ذلك عندما وجه احد الكتاب نظره الى كتابات سير ارثر اد ينجتون وسير جيمس جنز اللذين اصدرا عدداً من الكتب العلمية عن الرياضة والكون بأسلوب له الطابع الأدبى ووجهاها الى الجماهير العريضة فقال لمحدثه .

«يجب ان تميز مابين الكتابات الأدبية ، والبحث العلمى ان هؤلاء السادة هم علماء حقا ، ولكن لايجوز ان تؤخذ تعبيراتهم الأدبية على اساس انها تقرير علمى .. انهم فى كتبهم «رومانتيكيون» وغير منطقيين ، ولكنهم فى ابحاثهم يعملون بالمنطق العقلي الدقيق»[١] .

ومن غير المفهوم أن تمدح الفنون كالموسيقى والشعر والقصة والرسم ، وأن توضع فى أعلى منجزات الإنسان ، ثم تذم إذا أستخدمها القرآن لهداية الناس .

مانريد أن نصل إليه هو إنه لما كان هدف القرآن هو الهداية ، ولما كانت الهداية لاتتأتى بالصورة الجماهيرية ولكل الناس فى كل العصور ، إلا بالمعالجة السيكولوجية – الفنية للطبيعة الإنسانية ، ولما كانت الوسائل الأخرى – بما فى ذلك الإقناع العقلى المجرد – تعجز عن ذلك . فقد تعين على القرآن أن يستخدم هذا الأسلوب ، وقد أستخدمه ونجح فى الهدف – وهو الهداية ، وخلق الإنسان خلقاً جديداً .

ولايمكن محاسبة هذه الوسيلة – مادامت هى الوحيدة التى تحقق الهداية . لأن أسلوبها يختلف عن الأسلوب العقلانى – اسلوب الأبيض والأسود ، الحقيقة

---

(1) Where is Science Going. Max Planck p. 211 .

والواقع ، وأنه يلجأ إلى الظلال والأطياف ويستخدم الرمز والمجاز . وماقد يؤدى اليه هذا من أن الأوصاف التى جاءت فى القرآن قد لاتكون مما نعهده فى الحياة الدنيا ، أو نحكم عليه بمشاهداتنا فى الحياة الدنيا . فالحور العين ، ولحم الطير ، وأنهار الخمر والعسل والسلسلة التى طولها سبعون ذراعاً والمهل الذى يشوى الوجوه ، كل هذا ليس شرطا أن يكون مما نعهده فى الدنيا بالفعل وإنما إستخدم القرآن ما نعهده لأنه ليس من طريقة أخرى لتقريب المعنى .

ومن هنا قال ابن تيمية فى «الأكليل فى المتشابه والتأويل» « وهذا القدر الذى أخبر به القرآن من هذه الأمور لايعلم وقته وقدره وصفته إلا الله ، فإن الله يقول «فلا تعلم نفس ما أُخفى لهم من قُرة أعين» ويقول «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر» . وقال أبن عباس «ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء » فإن الله قد أخبر إن فى الجنة خمراً ولبناً وماء وحريراً وذهباً وفضة .. وغير ذلك ، ونحن نعلم قطعاً إن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه ، بل بينهما تباين عظيم مع التشابه كما فى قوله «وأتوا به متشابها» على أحد القولين ، إن يشبه مافى الدنيا ، وليس مثله . فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق ، كما أشبهت الحقائق من بعض الوجوه . فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما . لكن لتلك الحقائق خاصية لاندركها فى الدنيا ، ولاسبيل إلى إدراكنا لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه . وتلك الحقائق على ماهى عليه هى تأويل ما أخبر الله به . وهذا فيه رد على اليهود والنصارى والصابئين من المتفلسفة وغيرهم ، فإنهم ينكرون أن يكون فى الجنة أكل وشرب ولباس ونكاح ويمنعون ما أخبر القرآن . ومن دخل فى الإسلام ونافق المؤمنين تأول ذلك على أن هذه أمثال مضروبة لتفهيم النعيم الروحانى إن كان من المتفلسفة الصابئة المنكرة لحشر الأجساد .. وإن كان من منافقة الملتين مقر بحشر

الأجساد تأول ذلك على تفهم النعيم الذى فى الجنة من الروحانى والسماع الطيب والروائح العطرة كل ضال يحرف الكلم عن مواضعه إلى ما أعتقد ثبوته . وكان فى هذا متبعاً للمتشابه ، إذ الأسماء تشبه الأسماء والمسميات تشبه المسميات . ولكن تخالفها أكثر مما تشابهها ، فهؤلاء يتبعون هذا المتشابه إبتغاء الفتنة بما يوردونه من الشبهات على إمتناع أن يكون فى الجنة هذه الحقائق ، وإبتغاء تأويله ليردوه إلى المعهود الذى يعلمونه فى الدنيا . قال الله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) . فإن تلك الحقائق قال تعالى فيها (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) لا ملك مقرب ولانبى مرسل»[1] .

وصنف الغزالى فى كتابه «ميزان العمل» الناس فى أمر الآخرة أربع فرق الأولى هى المؤمنة بالنعيم الحسى والمعنوى ، وهؤلاء هم جمهور المسلمين والثانية وهم بعض الإلهيين الأسلاميين من الفلاسفة أستبعدوا اللذات الحسية وأبقوا على اللذات العقلية ، ولم يستنكر الغزالى ذلك ، كما لم ير فيه مايؤدى إلى فتور الطلب . والثالثة رأت أن استخدام القرآن لصور النعيم المألوفة فى الدنيا هو من باب التشبيه والتقريب لعدم إستطاعة إدراك نعيم الجنة حقاً فمثله القرآن بما فى الدنيا ، ولم يستنكر الغزالى ذلك أيضاً ، بل روى ما يقوله بعض مشايخ الصوفية «من يعبد الله لطلب الجنة أو للحذر من النار فهو لئيم وإنما مطلب القاصدين الى الله اشرف من هذا ، ومن رأى مشايخهم وبحث عن معتقداتهم وتصفح كتب المصنفين منهم فهم هذا الإعتقاد من مجارى أحوالهم على القطع»[2] والفرقة الرابعة وهى الوحيدة التى استنكرها ، بل ونبذها هى التى لاتؤمن ببعث أو نشور ، وترى أن الانسان يرجع إلى العدم بعد موته كما كان قبل وجوده»[3] .

---

(١) الأكليل فى المتشابه والتأويل - لأبن تيمية - مكتبة أنصار السنة المحمدية- ص ١٢ - ١٣.

(٢)، (٣) ميزان العمل للغزالى طبعة محمد على صبيح سنة ٦٣ ص ٦ .

وفيما نرى ، فإن الناس أمام نعيم الجنة وعذاب النار أنماط ثلاثة .

النمط الأول : الذين صفت مداركهم ورقت حواسهم ، وصحت طبيعتهم ووصلوا إلى درجة كبيرة من الفهم ، سواء كان ذلك بحكم ملكاتهم الفائقة أو وضعهم الثقافي المميز . وهؤلاء يتجاوبون مع ماجاء به القرآن من أن الجنة هي رحمة الله «ففي رحمة الله هم فيها خالدون» وتحيتهم فيها سلام «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» ، وهذه الإشارات تلمس المعاني التي تملك نفوسهم وتتجاوب مع مشاعرهم ، وفيها مايرضيهم ويقنعهم ، وليسوا هم بحاجة إلى حوافز المتاع الحسي .. أو كوابح العذاب البدني ..

ومن الواضح بالطبع إن هؤلاء أقلية نادرة في المجتمع البشري ، ومثلهم مثل علي بن أبي طالب ورابعة العدوية وكبار الواصلين الذين يعبدون الله إيمانا وحباً لارغبة في جنة ولا خوفاً من نار .

النمط الثاني : جمهور الناس وأغلبيتهم الكاسحة ، الذين يكدحون طول حياتهم ، ولاتدع لهم ضرورات العمل ومطالب المعيشة الملحة فراغاً للفكر أو مجالاً للإستمتاع ، وحياتهم رحلة شقاء وحرمان ، وأملهم الأسمى هو أن تتاح لهم فرصة الأستمتاع بما حرموا منه والراحة مما شقوا به .. والجنة بالنسبة لهم هي الملاذ الذي يكفل لهم طيبات تماثل طيبات الحياة الدنيا التي حرموها . ومن هنا فإن الشيء الوحيد الذي يلمس نفوسهم هو ماجاء بالقرآن من إشارات إلى السندس والاستبرق والحور العين وأنهار العسل والخمر حتى وإن كانت حقيقتها غير ماهي في الدنيا .. مما لايعلمه **(ملك مقرب أو نبي مرسل)** بتعبير ابن تيمية .

النمط الثالث : الذين تضافرت عليهم ظروف معينة بحيث جعلتهم ذوي طبيعة عدوانية أنانية شريرة ، فطباعهم جافية ، وقلوبهم قاسية ، وقد تحكمت فيهم الأنانية فلم يروا إلا أنفسهم ، فعملوا كل حياتهم للوصول إلى أعلى المناصب بالنفاق والخداع والكذب والتزييف والأستغلال ، ومنهم الذين يشبعون

نزعاتهم الشريرة ونفوسهم المريضة بإذلال الناس وتعذيبهم ، ومنهم أكابر المجرمين من رجال السياسة والحروب وأصحاب الأعمال «وأبطال الأمبراطوريات» .. الخ .. الذين سفكوا الدماء وحكموا بالحديد والنار ، وحرموا شعوبهم الحرية والعزة .. وجعلوا بلادهم سجناً كبيراً وتفننوا فى التعذيب هم وأتباعهم - من وزراء الداخلية .. حتى أصغر جندى أشترك معهم .. الخ .. وهؤلاء لاينفع فيهم حديث عن جنة فيها سمو روحى أو إستمتاع حسى - فليس لهم قلوب يفقهون بها ، وقد أستطاعوا بفنون التزييف والأستغلال والبطش أن يصنعوا لأنفسهم جنة صغيرة فى الحياة الدنيا . وانما ينال منهم الوعيد الشديد والجزاء الرهيب ، وأشدها هى النار ، ولابد أن تظهر النار فى أشنع صورها - لأن كلمة النار المجردة لاتكفى - وقد تنسى فلابد من كل الأوصاف المروعة التى توصف بها فى القرآن حتى يمكن أن تؤثر فى قلوبهم القاسية ونفوسهم المتحجرة .

وفى الوقت نفسه فإن القرآن قد فتح لهم باب التوبة إذا أقلعوا عن موبقاتهم .

النعيم «الحسى» والنعيم المعنوى :

كان لابد للقرآن أن يخاطب كل نمط من هذه الأنماط بما يتجاوب معه ، ومايؤثر فيه ، إذا أراد هداية الناس ، ولم يكن هناك من وسيلة أخرى ، وكان من الضرورى ان يتعامل مع الغريزة آونة ، ومع القيم آونة أخرى . وكان كالطبيب الذى لايمكن ان يرفض مريضاً لشدة مرضه ، او سوء حالته - على العكس . ان هذه نفسها تكفل للمريض نصيباً اكبر من عناية الطبيب ، وتجعله احوج اليها .. وكان من الضرورى ان يعمل القرآن حساب الاختلافات العديدة فى النفسية والمزاج والفهم بين الأجناس بعضها بعضا ، وبين العصور قديمها وحديثها .

وقد نجح القرآن فى هذا . فلا نعلم كتاب ظل بعد إلف واربعمائة سنة غضاً نضيراً ، بل متوهجاً متألقاً كالقرآن ، لايزيده مر السنين إلا رواء ، وكل يوم

يمضي يكشف عن جديد من وجوه إعجازه بحيث يمارس دوره في الهداية اليوم ، كما كان يمارسه عند نزوله .

فالله تعالى الذى خلق الإنسان ويعلم ماتوسوس به نفسه أنزل فى كتابه مايتفق مع طبيعة هذا الإنسان ومايحقق معه أعظم النتائج ، وليس من البعيد أن يكون وراء غمز الغامزين ، وما يثيرونه من شبهات الحسد العميق من توفيق القرآن .

وبالنسبة للجَنَّة ، كان لابد أن يعرضها القرآن كما عرضها بالفعل نعيماً حسياً ، ونعيماً معنوياً . ولو توجه القرآن إلى الناس بنعيم معنوى فحسب لما أصاب ذلك نفوس الأغلبية المكدودة المحرومة ، ولما جاء بالجديد المنشود . ذلك ان فرص الإستمتاع النفسية والروحية والمعنوية ، أُصبحت فى هذا العصر متاحة للجميع تقريباً بفضل التقدم فى وسائل الأعلام ، فيمكن للجميع الأستماع إلى ألحان موزار وسمفونيات بيتهوفن .. ورؤية لوحات روبنز وفان جوخ ورافائيل الخ .. ورؤية أو شهود الأوبرا التى لم يكن يشهدها إلا النبلاء . ومشاهد الجمال الطبيعى مبذولة دوماً للجميع ، وقد أصبحت السياحة متاحة لأوساط الناس ، وأهم من هذا كله أن أسمى وسيلة للأستمتاع الأدبى والتذوق الفنى هى قراءة القرآن والأستماع إلى جرسه ونغمه ، وما فيها من إتساق وموسيقى ، وتدبر معانيه الرائعة وتشبيهاته الرائقة .. وهذا كله متاح لكل الناس دون حاجة إلى جنة فى الآخرة .

ولو كان الأستمتاع الروحى والنفسى كافياً ، لعكف كبار الفلاسفة والكتاب والمفكرين والفنانين على فنونهم ، وهى من النسق الأعلى ، وهم سادتها ، ولما ضعف كثير منهم أمام المرأة الجميلة ، وخضعوا لها فنجد نيتشه يستجدى رضاء يهودية لعوب وماكسيم جوركى يتقرب الى ممثلة ترفضه ، ونابليون تخدعه زوجته الأولى فيحب أمرأة لاتفضل الأوزة السمينة .. واوجست كونت يتوله فى حب المرأة معلقة اختفى زوجها من حياتها ، ولما ضحى الزعيم الالمانى «لاسال» بخيانه فى سبيل المرأة التى أحبها .. ولما فقد بارنل

وبولانجيه[1] مستقبلهما السياسى لعلاقاتهما النسائية ، ولما ضحى إدوارد الثامن بعرش الأمبراطورية البريطانية للإحتفاظ بمطلقة جميلة .. وغير هؤلاء كثيرون .

إننا لسنا مثل منافقى العهد الفيكتورى ، ولايخجلنا أن نقول إننا نسعد بالمتع الحسية ، وأن الأستمتاع بالجمال هو من أعظم صور الأستمتاع ، وأن أروع صور الجمال تأثيراً هى ما جسدته القدرة الإلهية فى الجسم الإنسانى ، وان أعمق صور التعاطف هى مايجمع الرجل بالمرأة . إن كل الفنون من أقدم الآباد حتى الآن تدور حول الحب ، الذى لايكون حباً إلا عندما تمتزج فيه العاطفة بالغريزة ، فإذا كان فيها مايشين المجتمع ، فلماذا جعلها محور الثقافة والآداب ونبع فنون التمثيل والسينما والموسيقى والشعر .. الخ .

إن مسلك الأوربيين والأمريكيين وادعاءاتهم تثير العجب فهم يتهمون المسلمين «بالشهوانية» فى حين أن حياتهم كلها تدور حول الشهوة والجنس ، وهم يتسافدون تسافد الحيوانات وتبدأ الحياة الجنسية من المراهقة حتى السبعين ، وتجد المرأة الأمريكية فى السبعين متأنقة تمارس «الحب» وتسعى لقضاء وقت طيب !! ولكل زوجة عشيق ، ولكل زوج عشيقة ...

إن العلاقة بين الرجل والمرأة أكتنفتها فى الحياة الدنيا مخاطر عضوية لم تجعلها صفواً دائماً . وقد أنتفت هذه المخاطر فى الجنة ، فالمرأة فى جنة الأسلام مبرأة من كل ما فرضته الضرورات البيولوجية عليها فى الحياة الدنيا ، فهل يؤخذ على الأسلام إنه يبرز صورة «محسنة» للمرأة فى الجنة ، وهذا هو أمل الفنانين والمثالين ، والمرأة نفسها ؟

وماذا عن الطيبات الحسية الأخرى .. لحم طير ، فاكهة ، أنهار من عسل مصفى .. الخ .

---

(١) بارنل سياسى ايرلندى ، وبولانجيه سياسى فرنسى وصل كلاهما الى قمة الشهرة ، ولكنهما خسراها لتورطهما فى علاقات نسائية .

. لقد كان أمل البشرية الذى عجزت عنه حتى الآن هو أن توجد مجتمعاً لاتفنى موارده ، ولاتحد ذخائره مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . وعندما اكتُشِفت الآلات والقوى المحركة تصور «أوين» وبعض الكتاب ان العمال لن يضطروا إلى العمل إلا ثلاث أو أربع ساعات تكفى لأشاعة الطيبات . وظهر ماركس وقال للعمال إن الدين أفيون الشعوب ، يدعى جنة فى الآخرة فى حين ان من الممكن للاشتراكية أن تقدم لهم جنة فى الدنيا ، فأنساقوا وراءه ، فلم يجدوا الجنة الموعودة ، ولكنهم وجدوا الجحيم الذى يفوق جحيم الرأسماليين . وكان قصارى ماوصلت إليه الحضارة الحديثة أنها حققت الجنة فعلاً ، ولكن للمليونيرات ، أما الجماهير العريضة فعليها أن تكدح ثم لاتجد إلا حياة تلبد جوها الأقساط «وشبح البطالة» والأزمات .. الخ .

إن الفلاح الذى تغضنت يداه من الامساك بالفأس والضرب به حتى أصبحت كيد التمساح ، والعامل الذى يكدح من الصباح حتى المساء وتشغله هموم الحياة وجهاز الحياة الصناعية الحديثة الذى سلبه القوة والحرية ، وربة البيت التى لاتعرف إلا الحمل والرضاعة ، وتعمل من الفجر حتى الليل فى الكنس والغسل والطهى ورعاية الأبناء وشئون البيت .. إن هؤلاء جميعاً يمضون حياتهم فى عناء وشقاء ولايكون لهم ذرة أمل فى إستمتاع ما لم يدركهم الله برحمته فيوجد لهم جنة تعوضهم عن كل ما حرموا منه فى الحياة الدنيا وتكافئهم عن عملهم وكفاحهم . **فلماذا يعد هذا شيئاً شاذا أو غريباً ، وأصول العدالة توجبه ، وقدرة الله لاتضيق به .. ام أن الكحكة فى يد اليتيم «عجبة» كما يقول المثل المصرى .. وإن الجنة لاتوجد إلا فى الحياة الدنيا ، وإلا بالنسبة للأغنياء والأثرياء و «سيدات الصالونات» .**

إن الحضارة الأوربية لاتخفى فخرها بإتاحة الطيبات من الرزق الأكل – الشرب – الملبس – الاستمتاع المادى والجنسى ، لكل من يستطيع أن يدفع ، فهل يلام الإسلام لأن جنته تقدم كل هذا مجاناً .. وللمستحقين .

ومع هذا ..

فقد أتسع نعيم الجنة الحسى للذى يريد أن يشبع هوايته فى الزرع ، وإن كان الزرع من أروع ماتقدمه الجنة ، ومن ثم فيمكن لذوى الهوايات أن يشبعوا هواياتهم الأخرى ، وأقترن نعيمها الحسى والمادى بمتعة روحية يصغر أمامها كل المتع الأخرى ، إلا وهى رؤية الله تعالى ، هذا الأمل الذى تقطعت دونه أعناق الفلاسفة والمفكرين .. إن المؤمنين يسعدون به بصورة ما نعجز عن تكييفها ، لأن الله تعالي «لاتدركه الأبصار» حتى وإن كانت نفوس المؤمنين شاخصة ووجوههم اليه ناظرة .. وحتى لو كان هناك حديث نبوى عن الرؤية «كرؤية القمر» وعلى كل حال فإننا لانرى من القمر إلا نوره ..

حقيقة التعذيب «الوحشى» فى النار :

أوضحنا فى الفقرات السابقة ان الطبيعة النفسية الفنية للخطاب القرآنى المنبثقة من هدفه «وهو الهداية» أقتضت أن يبرز النار إبرازاً رهيباً مزوعاً بحيث يؤثر على ذوى القلوب القاسية الذين أريدوا بهذا الابراز ، وبدون هذا ما كان يمكن أن يحقق الأثر المطلوب ، وان هذا هو سر التشبيهات والتصويرات المروعة .

وأوضحنا - كذلك - إن الخطاب النفسى / الفنى أقتضى إن ما تتضمنه من تصويرات قد لاتتفق مع مشاهدنا فى الدنيا ، وأن القرآن ، كان لابد وأن يستخدم هذه التصويرات لأنها الوحيدة التى نعلمها ، ويمكن عبرها أن نتفهم المضمون شأنها فى هذا شأن ماجاء عن الجنة أو ماجاء عن الله تعالى ..

وفى هذا وذاك مايغير الصورة التى تبدو للوهلة الأولى - عن تعذيب رهيب فى نار جهنم .

وبالإضافة إلى هذا ، فيجب عند عرض هذه الصور من العذاب ، والآيات عن الجحيم أن نعرض أيضاً للآيات العديدة عن رحمة الله تعالى «وهو أرحم الراحمين» وان رحمة الله تفوق بمراحل رحمة الإنسان .. وحسب القرآن أن

كل آياته تتوج باسم الله «الرحمن الرحيم» ومامن تأكيد للرحمة كهذا التأكيد ، فضلاً عن أن الرسول ما أرسل «إلا رحمة للعالمين» ، وأن الرسالة كلها «هدى ورحمة» ﴿أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم **وهدى ورحمة**﴾ (١٥٧ الأنعام)

﴿ولقد جئتهم بكتاب فصلنه على علم **هدى ورحمة** لقوم يؤمنون﴾
(٥١ الانعام)

﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء **وهدى ورحمة** وبشرى للمسلمين﴾
(٨٩ النحل)

﴿هذا بصائر من ربكم **وهدى ورحمة** لقوم يؤمنون﴾ (٢٠٣ الأنعام)

﴿ من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس **وهدى ورحمة** لعلهم يتذكرون﴾ (١٣ القصص)

﴿**هدى ورحمة** للمحسنين﴾ (٣ لقمان)

وكذلك :

﴿قل لو أنتم تمسكون خزائن رحمة ربى لأمسكتم خشية الانفاق﴾
(١٠٠ الاسراء)

﴿قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله **إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه** الغفور الرحيم﴾ (٥٣ الزمر)

﴿قال عذابى أصيب به من أشاء **ورحمتى وسعت كل شيء** فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ (١٥٦ الأعراف)

فضلاً عن الآيات التى وصفت الله تعالى بأنه غفور رحيم ، ويضيق المجال عن ذكرها . والآيات التى حرم فيها الظلم على الناس تحريما شديداً ، فكيف **نظن بالله تعالى بعد ذلك أثارة من ظلم .. إن الله لايظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها .**

والحقيقة انه مادامت الدار الآخرة هى أصلاً هيكل عدالة ، فالمفروض أن يُستبعد بداهة أى ظلم ، لأنها إنما قامت لتقويم الظلم ، وتعويض المظلومين ، فكيف نظن أن يُرتكب فيها ظلم ، أو أن يكون العلاج هو الداء نفسه .

وقد كنت أبحث عن مبرر العدالة فى آية مثل ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ (١٥٦ النساء) دون أن أهتدى إليه حتى تنبهت إلى ما أقترفه «أكابر المجرمين» من الذين حكموا البشرية من فراعنة مصر ، حتى الأشوريين الذين أقاموا «أهرامات» من الجماجم ، حتى فظائع الرومان ، ثم فظائع التتار الذين كانوا يهلكون الحرث والنسل ولايدعون طفلاً أو شيخاً أو رجلاً أو أمرأة ، ويتترسون بالأسرى ثم ما قامت به محاكم التفتيش من أساليب للتعذيب تقشعر الجلود لمجرد قراءته ، وما قام به قادة الاستعمار من استعباد للأفريقيين . ونهب وسلب أفريقيا وآسيا ، حتى نأتى إلى عهد الديكتاتوريين فى العصر الحديث وساسة أوربا الذين تسببوا فى حربين عالميتين قتل وشوه فيهما مايزيد على مائة مليون فرد ، حتى نصل إلى حمزة البسيونى وأمثاله فى سوريا والعراق ومختلف دول العالم الثالث .

إن كل واحد من الملوك والأمراء والقادة والساسة واتباعهم الذين طبقوا أوامرهم الوحشية تسبب فى قتل وتعذيب وتشويه عشرات الألوف . إنه لم يسرق رغيفاً أو يفجر بأمرأة . ولكنه قتل وشوه شعوباً بأسرها ومارس أسوأ صور التعذيب من سمل عيون ، وقلع أظافر ، واحراق على نار بطيئة ، وكان أسفه الوحيد أن الموت ينقذ ضحاياه .

ماذا فعلت عدالة البشرية لهم ؟ إنها لاتزال تمجدهم ومن حكمت عليه فإن أقصى مالديها أن تقضى عليه بالموت فهل من العدالة أن يتساوى فى العقوبة من قتل فرداً ومن يقتل مليوناً ؟ إن عدالة البشرية لاتستطيع أن تقتل مجرماً إلا مرة واحدة . وعدالة نار الآخرة وحدها هى التى يمكن أن تعاقبهم بمقدار جرائمهم .

إنها صورة مروعة ، ولكنها عدالة ، وفظاعتها هى نفسها عين العدالة . لأن الجرائم الفظيعة يجب أن يعاقب عليها بعقوبة تتناسب معها ، وأى تسامح يكون إخلالاً بميزان العدالة .

وإذا جلت الذنوب وهالت   فمن العدل أن يهول الجزاء

والعقوبات بصفة عامة كلها سيئة كريهة . ان السجن فى زنزانات ضيقة وتقييد الأيدى بالاغلال الحديدية .. هو إهدار للكرامة .. وقضاء على الحرية ، ومع ذلك فلا مناص عنه ، وهو يطبق فى كل دول العالم ، لأنه إنما يطبق على من أهدروا الكرامة والحرية .

لقد أعدت جهنم لكل «مارد متمرد» بتعبير الرسول ﷺ لكل طاغوت وديكتاتور وسفاح ومستغل ولم تُعَدّ لمن يقصّر فى صلاة .. أو يرتكب أثماً لأن هذه مما يَجُبُّهُ الأستغفار وتذهبه الحسنات «إن الحسنات يذهبن السيئات» .

★ ★ ★

- ومع هذا ...

فإذا تعاظمتنا تلك الآيات التى تصف عذاب النار ، فلابد أن نضع جنباً إلى جنبها آيات العفو والمغفرة والرحمة ، واستبعاد الظلم ، لأن القرآن يكمل بعضه بعضاً . فإذا حدث هذا لرجحت كفة الرحمة ، حتى على كفة العدالة . لأن الله تعالى يحكم بالعدل أولاً ، ثم يتلطف برحمته .. لتنقذ كل من فى نفسه ذرة من الخير .

فإذا قيل ألم يكن من الأفضل إغفال تلك الآيات المروعة والأوصاف الرهيبة ، فإننا نقول ، كلا .. كان لابد أن تَرِدْ ، لأن هناك من لايفهم إلا هذه اللغة ولايتأثر إلا بها .

★ ★ ★

والقضية بعد ليست جديدة ، كما يُظَنّ ، فقد عرضها على النص نفسه أولى الناس بالدفاع وأقربهم إلى الرحمة : ام . فقد روى عن ابن عمر قال كنا مع النبى ﷺ فى بعض غزواته ، فمر بقوم فقال «من القوم» قالوا نحن المسلمون ، وأمرأة تحضب (أى توقد) بقدرها ومعها إبن لها فإذا أرتفع وهج تنحت به ، فأتت النبى ﷺ فقالت «أنت رسول الله» ؟ قال «نعم» قالت «بأبى أنت وأمى أليس الله أرحم الراحمين» قال «بلى» قالت «إن الأم لاتلقى ولدها فى النار» فأكب رسول الله ﷺ يبكى ثم رفع رأسه إليها وقال «إن الله لايعذب من عباده إلا المارد المتمرد الذى يتمرد على الله وأبى أن يقول لا إله إلا الله» . رواه أبن ماجة[1] . فهذا الحديث وإن كان يثبت النار ، إلا أنه يوضح أن فهم كثير من المسلمين عن هذا الموضوع لايتفق مع ماقدمه الرسول ، وماقصر به النار على المارد المتمرد .

والذين يثيرون قضية النار ومعظمهم من المستشرقين والذين يغمزون الأسلام ينسون أن هذه النقطة أدت إلى أن يستبعد التشريع الإسلامى من عقوباته الحرق بالنار «فلا يحرق بالنار إلا خالقها» . فوجود النار فى الدار الآخرة .. أبعدها من الحياة الدنيا ، على نقيض ماحدث للمسيحية ، فلما كانت الكنيسة تمقت الدماء «ecclisia abhorreta sangune» متأثرة بما قيل عن «الدم المسفوح للمسيح عند صلبه ، فإن العقوبة المقررة أصبحت الاحراق .. فكانت الكنيسة تسلم المدان إلى السلطات المدنية لإعدامه بشرط أن لا يسفك دمه ! وكان معنى هذا الحرق . وهذا هو سر تلك المواكب الرهيبة التى سيق فيها المخالفون والملحدون زمراً إلى المحرقة وأطلق عليها مواكب الإيمان auts de fé واستمرت من سنة ١٤٨١ حتى سنة ١٨١٣ فى أسبانيا .

وقد أثار موضوع عذاب النار فى نفوس بعض الفقهاء القدامى ما يثيره فى نفوس بعض المحدثين ، فارتأى معظمهم أنه لن يخلد فى النار أحد من

---

(١) كتاب مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزى - المكتب الإسلامى ببيروت تحقيق الألبانى ج ٢ ص ٧٣٥ .

المسلمين – وتضمنت بعض الأحاديث وصفاً لآخر من يخرج من النار ويدخل الجنة ، فضلاً عن أحاديث عديدة عن إخراج مئات الألوف برحمة الله . **وأهم من هذا ما ذهب إليه بعض المفسرين من فناء النار نفسها** . وفي تفسير الآية ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ..﴾ قال الشيخ محمد مصطفى المراغي « الأول : السابق في الوجود على جميع الموجودات .

والآخر : الذي يبقى بعد فناء جميع الموجودات . أما أنه أول بهذا المعنى فأمره ظاهر ، لأنه واجب الوجود ، وجوده مقتضى بذاته ، أو هو الوجود الحق وكل ماعداه فهو هالك في ذاته يحتاج في وجوده إلى إشراق الوجود الحق . وأما أنه آخر بهذا المعنى فليس موضع اتفاق ، وأكثر العلماء على خلافه ، فمن الناس من ذهب إلى أن كل شيء يفني ويبقى الله وحده ﴿ كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ ، ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ والله تعالى يوصل الثواب إلى أهل الثواب ، والعقاب إلى أهل العقاب ، ثم يفنى الجنة وأهلها ، والنار وأهلها ، والعرش والكرسي ، والملك والفلك ، ولا يبقى مع الله شيء أبداً ، ولا يعيد بعد ذلك شيئاً أبداً ، وكما كان الله ولا شيء معه سيكون الله ولا شيء معه أبد الآباد . وهذا المذهب ، إن صح هو تفسير الآخر . ومن الناس من جرى على هذا الرأى وخالف في الإعادة ، فقال إن الله بعد أن يفنى كل شيء ويبقى وحده ، وبذلك يكون آخراً يعيد كل شيء مرة أخرى ويبقيها أبداً ، وقالوا : مما لا شبهة فيه إمكان بقاء العالم وهناك إجماع من المسلمين على أبدية الجنة والنار ، فالآخرية التي وصف بها الله نفسه لا تتحقق إلا بعد فناء الجميع وبقائه وحده جل وعلا . وأبدية الجنة والنار مجمع عليها لا تتحقق إلا إذا أعيدت الجنة وأهلها ، والنار وأهلها ، وبقى الكل بعد ذلك أبد الآباد» (١) .

وجاء في رسالة « العصمة من الضلال » للعلامة الجلال إن الموصل إلى النار هو الشرك لا غير ، وقال الجمهور بل وغيره من المخالفات على اتفاق

---

(١) الشيخ محمد مصطفى المراغي – حديث رمضان – كتاب الهلال – دار الهلال – نوفمبر ١٩٧٠ – ص ١٥٨ – ١٥٩ .

الجميع على جواز العفو عقلاً قيل وشرعاً ، كما صرح به قول إبراهيم عليه السلام « ومن عصانى فإنك أنت العزيز الحكيم » وقول عيسى عليه السلام « .. وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم »وقول سيدنا محمدﷺ « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » [1] .

نقول إن هذه الفقرة التى يمر عليها سراعاً الفقهاء تتضمن الكثير . إن ثلاثة من أولى العزم من الرسل يبتهلون إلى الله تعالى العفو عن المخالفين لهم . فما أبعد ذلك عن أقوال الفقهاء وتأكيدهم ، إن المشركين لابد وأن يقذف بهم فى النار . حقاً لقد جاء فى القرآن آيات مثل ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك ﴾ .. ولكن هناك أضعاف هذه الآية عن رحمة « تسع كل شىء » وتمحو الذنوب جميعاً .

واستطرد العلامة الجلال فأورد إشارة من قال من الفقهاء بفناء النار « لأنها من عالم الفساد دون الجنة ، إذ هى من رحمة الله ، كما أطبق عليه المفسرون فى قوله تعالى ﴿ ففى رحمة الله هم خالدون ﴾ ، والرحمة لا تفنى ، فإذا رد عليهم ذلك بآيات الخلود والتأبيد ، قيل إنما المقصود بها هو اللبث الطويل [2] ولا ينطبق هذا على الجنة لأن الله تعالى يقول « عطاءً غير مجذوذ» ، وهو خبر لا يكذب [3] .

ولعلنا اليوم أقدر على تفهم معنى الخلود بعد الدراسات الجديدة عن الزمن ، والنقص الرئيسى فى فهمنا لمعنى الخلود يعود إلى إننا نحكم بمفاهيمنا «الأرضية» على العوالم الأخرى – فى حين أن هذه العوالم الأخرى لاتنطبق عليها الأوضاع الخاصة بالكرة الأرضية . وطبيعى أن تتغير عندما تبدل

(١ ، ٣) أنظر هذه الرسالة وهى الثالثة فى مجموعة الصنعانى الرسائل اليمنية المطبوعة بالقاهرة – دار الطباعة المنيرية ص – ٢١ – والجلال مؤلفها هو الإمام المجتهد الحسن بن أحمد الجلال الحسنى اليمنى المتوفى بجران صنعاء سنة ١٠٨٤ بتعليقات الإمام الشهير محمد بن إسماعيل الأمير الصنعانى .

(٢) إن استخدام « التأبيد » بمعنى المكوث الطويل ليس مستنكراً . وهم يطلقون على من يحكم عليه بخمسة وعشرين عاما سجناً السجن المؤبد أو أنه (عوقب بتأبيدة) .

الأرض غير الأرض ، والسموات ، فنحن نحكم على الزمن بدورة الأرض حول نفسها ، وحول الشمس ، ولكن الأمر يختلف حيث لا شمس ولا أرض . وقد أمكن للعلم الحديث أن يلقى إطلالة على « ما فوق الفضاء » حيث ينتفى البعد الرابع – أى الزمن – فلا يصبح هناك ماض ولا مستقبل ، وانما هو حاضر أبدى فالخلود ممكن بمقتضى أبحاث « مافوق الفضاء » . ولكن هذا الخلود لا يأخذ الشكل الذى يفهمه إنسان الكوكب الأرضى .

★ ★ ★

وأخيراً جداً فقد يسأل بعض الناس « أين هى النار ، وأين هى الجنة ؟ » .

من السهل أن نقول لهذا السائل إن النار قد تكون أقرب إليه مما يتصور ، وأنه قد يكون واقفاً عليها !! ولو أنه حفر فى باطن الأرض لعمق أربعين كيلو متر لوجد النار التى وقودها الحجارة ولا ينقصها إلا هو ليكون وقودها الناس والحجارة !! فنحن إذا جاوزنا « القشرة » الأرضية ، وهى فى حدود عمق أربعين كيلو ، وجدنا باطن الأرض أتونا ملتهباً تندلع فيه النيران التى تذيب المعادن والصخور . وهو جحيم حقيقى نسير فوقه .. وتنبسط فوقه المحيطات بملايين الملايين من أطنان الماء وآلاف البواخر التى تمخرها .. وتحت هذا كله النار .

وليس معنى هذا أن النار التى جاء ذكرها فى القرآن هى باطن الأرض ، وإن كان باطن الأرض يصلح جحيماً يسع المجرمين من البشرية منذ أن وجدت ، ولكننا نريد فحسب أن نضرب المثل بمدى المفارقة .. وكيف أن هذا التساؤل هو مما لا محل له .. ففي الكون مليارات الكواكب التى لم تكشف عنها البشرية ، ولن تستطيع أن تكشف عنها ، لأن الكون يتمدد بأسرع مما يمكن لأى اتصال ، وفى أى كوكب من هذه الكواكب يمكن أن تجد الجنة والنار .. ومن ذا يستطيع أن يثبت كذب هذا الكلام .. وانفساح الكون ووجود ملايين أو مليارات من الكواكب تسمح بوجود عشرات من صور الحياة التى تختلف عن حياتنا .. فأين الجنة ؟ .. وأين النار ؟ .. سؤال سخيف لا محل له ..

الفصل العاشر

القضية الرابعة : إنكار النبوات

إنكار النبوات هى آخر وأهون ما تطرحه العقلانية على الأديان ، وإنكارها عادة ما ينصَّب على نقطة «الوحى» ، أى تلك العلاقة التى لاتفهمها العقلانية بين النبى والله ، والتى بها يتلقى النبى رسالته من الله تعالى .

والعقلانيون يكادون يجمعون على أن الأنبياء أفذاذ ، عظماء ، موهوبون وأنهم يمثلون نمطاً فريداً من القادة والهداة وهم لايرمون الأنبياء بالكذب أو الإدعاء ، فلا يمكن أن يصل إلى ذروة السيادة ويكتسب الأحترام والتوقير ، على مر الأجيال دعىٌ أو كاذب ولكنهم يرون أن إيمان الأنبياء بدعوتهم ، كان من القوة والهيمنة ، بحيث جعلهم فى حالة نفسية يؤمنون معها أن رسالتهم من الله فصدقوا بها على هذا الاساس ، فهم صادقون فيما بينهم وبين أنفسهم . ولكن هذا لايعنى - فيما يرون - أن يكون هذا صحيحاً من الناحية الحقيقية .

وأغلب الظن أن جحود العقلانية لنبوات الأنبياء إنما جاء من نكرانها لوجود الله ، لأنها إذا كانت تجحد الأصل ، فجحدها للفرع طبيعى ومتوقع ، ولكنها لو آمنت بالله ، فلن يكون هناك ما يمكن أن ترفضه فى وجود وحى ، بل لكان هذا هو الأقرب إلى المنطق والعقل إذ إفتراض عناية الله تعالى بمخلوقاته أقرب إلى المنطق من إهماله لها . ومن ثم فيفترض أن يكون ثمة علاقة من نوع ما

الوحـــى :

وقد استخدم القرآن الكريم كلمة «وحى» ومشتقاتها فى عدد من الإستخدامات لاتنم بالضرورة على وجود أداة أو قناة إستثنائية للوحى ، فجاء

﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ﴾ . (٦٨ النحل)

﴿ ويومئذ تُحَدِّثُ أخبارها بأن ربك أوحى لها ﴾ . (أى الأرض) .
(٥ الزلزلة)

كما جاء التعبير بالنسبة لأم موسى ﴿وأوحينا لأم موسى أن أرضعيه ...﴾
(٧ القصص)

واستخدم القرآن التعبير بالنسبة للشياطين ﴿ وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وان أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ . (١٢١ الانعام)

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ .
(١١٢ الأنعام)

فالقرآن الكريم يستخدم كلمة وحى بمعنيين : **الأول** : المعنى اللغوى العام للكلمة الذى لا يتطلب وجود واسطة استثنائية معينة ، **والثانى** : عندما يشير إلى واسطة خاصة يمكن فى بعض الأحيان أن تكون مرئية ، حتى وإن لم تكن معروفة للآخرين ، إذ تتقمص صورة رجل من عامة الناس . والقرآن يقصد بهذه الواسطة - ناقل الوحى من الله إلى رسوله « جبريل » . وقد ذكر فى القرآن باسمه ثلاث مرات .

﴿ قل من كان عدواً لجبريل ، فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل ، فإن الله عدو للكافرين ﴾ . (٩٧ - ٩٨ البقرة) .

﴿ وإن تظاهرا عليه ، فإن الله هو مولاه ، وجبريل وصالح المؤمنين ﴾ .
(٤ التحريم) .

وليس فى هذه الآيات – باستثناء الأولى ، ما يشير إلى وظيفة جبريل فى تبليغ رسالة الله إلى النبى ، وإن جاءت آيات بهذا المعنى دون أن تشير إلى جبريل بالاسم .

والآثار المروية عن الرسول ﷺ ، يصور معظمها نزول الوحى على الرسول ، وهو فى مجلسه ، وبين الصحابة بحالة نفسية معينة قد تصطحب بعرق غزير ، تستغرق الرسول للحظات ، ووردت آثار قليلة عن جبريل عندما جاء إلى الرسول وهو فى ملأ من أصحابه فى هيئة رجل لا يرى عليه أثر السفر .

فليس فى هذه الآيات والآثار ما يتنافى وأصول العقلانية فإن جبريل جاء فى هيئة رجل من عامة الناس ، دون أن يظهر فى هيئته النورانية الملائكية ، لأن القرآن نفسه سفه رغبة المشركين فى أن ينزل الله ملائكة على الأرض يكلمونهم ... .

وعلى كل حال فإن نزول وحى من السماء ، يحمله أحد الملائكة هو أمر لا تستطيع العقلانية أن تثبت بطلانه ، حتى وإن عجزت عن فهمه بوسائل وأدوات بحثها الخاص ...

★ ★ ★

إن الدليل الأعظم على صدق الأنبياء أن حياتهم كلها ، وأفعالهم كلها ، كانت مصداق دعواتهم ، وهو دليل يفترض أن يتقبله العقل أكثر من غيره ، فقد كان الأنبياء نماذج للخلق الكريم والصدق والأمانة والشجاعة والمروءة ، ولم يعرف عن أى واحد منهم كذباً أو نفاقاً ولم يستهدف أى واحد منهم منصباً أو مالاً أو ثروة أو جاهاً ، بل ضحوا بما يملكون ، وتعرضوا للإضطهاد من ناحية ، والإغراء من ناحية أخرى فصمدوا للإضطهاد ورفضوا الإغراء .

والدعوات التى دعوا إليها هى أعظم العوامل فى هداية المجتمع الإنسانى ، وهى التى أعطته القيم الحضارية التى تميزه ، فالمسألة ليست أن حياتهم ودعواتهم ، ظاهرهم وباطنهم ، سرهم وعلنهم واحد ، إنه أيضاً أن الدعوات التى دعوا إليها كانت أفضل وأثمن ما تعتز به البشرية .

دور النبوات فى التاريخ ومنزلة الأنبياء :

لقد قال الشيوعيون « إن الدين أفيون الشعوب » فما أكذب هذه الدعوى ... فمن حرَّك جماهير اليهود المستعبدين فى إسار الفرعونية .. ومن دفع بالجماهير لمجابهة الجبروت الرومانى الذى أخضع العالم .. ومن زود القبائل العربية بالشجاعة والقوة كى تطيح بالإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية . إن الثورات التى كانت العقلانية وراءها لا يمكن أن تقاس بهذه الثورات الجماهيرية الثلاث لا فى الحجم ولا فى الأثر ، ولا الأسلوب الذى أديت به .

ومن الذى غرس فى النفس الإنسانية « الضمير » والوعى بالخير والشر والإقبال على الأول والعزوف عن الثانى ..

ومن الذى أعطى البشرية قيم المساواة والسماحة ، وحطم الفوراق الطبقية بين الأغنياء والفقراء ، الأقوياء والضعفاء .. الحكام والمحكومين ، أليست الأديان هى التى وضعتها أول مرة .. وحافظت عليها ، ووصلت بها إلى أبعد مما وصل إليه « إعلان حقوق الانسان »..

نحن لا ننكر أن الأديان استغلت ، وأن الأحبار والسدنة والفقهاء فى كل دين تقريباً استخدموا الأديان لمآربهم الخاصة على حساب الجماهير . ولكن هذه الواقعة يجب أن لا تحسب على الأديان نفسها ، ولكن على الذين أعطوا أنفسهم حق العمل والحديث باسم الأديان .. شأنهم فى هذا شأن الساسة الذين يسيئون إستخدام الديمقراطية والحرية ، فلا تعد إساءتهم نقصاً فى الديمقراطية ، وحتى

لو وضعت هذه النقيصة – أى استغلال رجال الدين – فى كفة الأديان فإن حسنات الأديان فى الكفة الأخرى ترجحها . وتجعل الحصيلة النهائية فى صالح الأديان .. لأن الأديان زودت الجماهير بالهداية والطمأنينة والرضا وأشعرتهم أن لحياتهم هدفاً ورسالة .. وعرفتهم على قيم ثمينة كالحب والصفح والعدل .. فجنبتهم عقارب الشك وقوارض القلق وتمزق الضياع وحالت بينهم وبين أن يكونوا كالأنعام « يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » .

إن الإبداع الخارق للأديان ، وما اتسمت به من شمول وكمال فى عالم الفكر والدعوات أثبت بالإضافة إلى صدق الأنبياء أن هذه الدعوات إنما هى من الله صدقاً وحقاً . لأنها أعظم من أن يأتى بها بشر . كائنة ما كانت عبقريته وعظمته .

وكما قلنا فى كتابنا « روح الإسلام » . « وعندما نطلب إلى الناس الإيمان بأن محمداً رسول موحى إليه من الله ، فنحن نطلب إليهم أهون اختيارين وأكثرهما سلامة .. .

ذلك أننا إذا وضعنا مآثر أكبر الزعماء والقادة الذين أنجبتهم البشرية أمام مآثر محمد .. لبدت الأولى ضئيلة ، قميئة معيبة أمام الثانية .. فقد كان محمد نبياً جاء بدين ناجح وسياسياً بنى دولة ورثت الإمبراطوريات القديمة ، ومشرعاً حمل قانوناً عبقرياً يشمل العقوبة الجنائية والعلاقات الشخصية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، وبليغاً جاء بجوامع الكلم واعتبرت أحاديثه حجة فى اللغة . وقائداً عسكرياً مظفراً . ومثلاً أعلى فى الخلق الكريم ، ونتيجة لهذا فإن اسمه لا يزال منذ ألف وربعمائة عام حتى الآن يتردد خمس مرات كل يوم فى أربعة أركان العالم كلما أذّن لصلاة . ولا يزال مثواه الأخير علماً منوراً يهرع إليه المؤمنون من أقطار الأرض يحدوهم الشوق لكى يقفوا بين يديه فى تلك البقعة التى هى فى الأرض « روضة » من رياض الجنة .

من ذا يسامى هذه المآثر ، . أو يظفر بمثل هذه المنزلة . .

لقد كان الإسكندر فاتحاً عسكرياً مظفراً ، وتتلمذ على يد أعجوبة البشرية « أرسطو » ، ولكنه لم يكن المشرع ولم يكن النبى ، وما أكثر ما غلبته انفعالاته وورطته فى منكرات وآثام .

وكان أعجوبة البشرية « أرسطو » فريداً فى الفلسفة والمنطق والآداب والعلوم ، ولكنه لم يكن رجل الدولة ولا رجل الدين .. ولا القائد العسكرى .

وكان قيصر رجل دولة ، ورجل سياسة وأدب وقائداً منتصراً ، ولكنه لم يكن رجل الدين أو المشرع ، وفوق هذا فقد كان رجل كل امرأة ... وامرأة كل رجل !! .

وكان نابليون رجل دولة ، ورجل سياسة وقائداً عسكرياً ، ومشرعاً ، ولكنه لم يكن صاحب الدين أو رجل اللغة والأدب أو المثل الأعلى فى الأخلاق .

وكان كل من « شكسبير » و « جوته » علماً من أعلام الأدب والشعر والمسرح ولكنهما كانا أصفاراً فى الساسة والتشريع والقيادة العسكرية أو الرسالة الدينية .

إن الشخصية الباهرة والخارقة للرسول العربى قد فرضت نفسها من الوهلة الأولى مع تلك الجملة التى ما كانت تشبيهات شكسبير وتهاويله لتصل إلى ما هو أبعد منها « .. لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ..... ما تركته » .

فهل كان يملك الإسكندر ، أرقى ثمرة للثقافة الهلينية وتلميذ أرسطو أن يقول شيئاً كهذا .

أى قائد أو ملك أو امبراطور أو نبى فى العالم يستطيع أن يقول كما قال « محمد » عن أصحابه : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم .. اهتديتم » .

وأصحاب أى قائد ظفروا من الأجيال بتوقير وتبجيل كما ظفر الصحابة ؟ إن مجد محمد الذى انعكس عليهم امتد إلى أصحابهم فقيل لهم « التابعون » وإلى أصحاب هؤلاء التابعين فقيل « تابعو التابعين ... » .

أى جنود معركة نالوا مثل « الوسام » الذى منحه محمد لجند بدر « إنه شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال « افعلوا ما شئتم » .

أى بشر يصل به الإعتداد وتملك قيادة البلاغة وقوة التصوير إلى أن يقول لأصحابه « لو كنتم فى أهلكم كما تكونون معى لصافحتكم الملائكة » .

وكل هذا ...

يصدر من عربى أمى لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم على يد فيلسوف .. .

فإذا لم يكن هذا وحياً ، وإذا لم يكن محمد نبياً ، فإن البديل الوحيد هو أن يكون محمد – كما كان يرى اليونان والرومان – إلهاً أو نصف إله (١) .

★ ★ ★

وما يقال على الرسول العربى العظيم ، يمكن أن يقال بصورة متفاوتة على موسى ... وعيسى .

فلو لم يكن موسى نبياً لأصبح أحد أمراء القصر الفرعونى ، ولوجد فى هذا وهو سليل الإسرائيليين المستعبدين ما يرضيه ، وما يشعره الزهو والإمتياز ، وكان يمكن أن يرفض هذا دون أن تكون له دعوة يوجهها إلى فرعون ، ولكنه رفض النعيم الفرعونى ، ولم يقتصر على تحرير اليهود من إسار العبودية بل وجه دعوته للإيمان بالله إلى فرعون نفسه وكان له مندوحة عن ذلك لو لم يكن نبياً .. .

---

(١) روح الإسلام – جمال البنا – ص ١٢١ – ١٢٢ .

وكانت دعوة المسيح ثورة على الأحبار الذين قدسوا النصوص والطقوس والشكليات ، وضحوا في سبيلها بالروح والجوهر والإنسان .. قدر ما كان ثورة على الجبروت الروماني .. فكيف أمكن لهذا الرسول الذي تصور أعداؤه أنهم صلبوه أن يزلزل قوائم الإمبراطورية الرومانية ، وأن تصبح دعوته شعاعاً إلهياً ونوراً ربانياً وسط المجتمع الأوربي الوثني . وما تحفل به حضارة العصر من مادية واستمتاع ... .

★ ★ ★

والوحي في الحقيقة يحل لنا عدداً من المشكلات لا يمكن حلها إلا به . فإن المناطقة والفلاسفة استطاعوا التوصل إلى ضرورة وجود الله باعتباره « واجب الوجود » ، ولكن وسائلهم في البحث عجزت عن أن تضفي على الله تعالى صفات الحياة ، والحكمة .. الخ ، وكان لابد أن يتم ذلك عن طريق الوحي .. .

وفي القضية الجدلية حول **دور الفرد في التاريخ** ، وهل البطل هو الذي يصنع تاريخ مجتمع ما .. أو أن ظروف المجتمع هي التي تصنع البطل ، يقدم لنا « الوحي » حلاً تعادلياً ، فالرسول الذي يمثل البطل ، والذات هو نفسه « حامل » الموضوع والمعبر عن المجتمع . وهو على خلاف الأبطال التقليديين الذين ينسبون إلى أشخاصهم ، أو ينسب إليهم أنصارهم ، الدور الفعال في التأثير التاريخي لا يدعي لنفسه أو لملكاته الخاصة شيئاً ، بل إنه ما كان يدري « ما الكتاب ، وما الإيمان ... » ودوره هو كما يتضح من اسمه - انه رسول يحمل رسالة ... ولكن هذه الرسالة ليست هي العوامل الموضوعية ، أو الإجتماعية وقوى الإنتاج كما يتصور ذلك الإشتراكيون ، ولكنها الظروف والعوامل كما ينبغي أن تكون لا كما هي كائنة بالفعل ، لأنها لو كانت وحدها وكما هي التي تفرز البطل ؛ لما كان هناك تقدم ، والفرد باعتباره ابن المجتمع ، لا يمكن أن يزيد عن هذا المجتمع ، فلا يكون هناك تقدم، فلابد من مصدر جديد : من الوحي .

إن إبعاد الأديان عن عالم الفكر الحي وإبعاد الأنبياء عن عالم التاريخ كان

أكبر أسباب شقاء البشرية ، وضياع الإنسان المعاصر .. ولك أن تتصور مدى ما كان يمكن أن يحدث من تغيير للصورة لو درست الأديان دراسة رشيدة ، إلى جانب دراسات الأفكار الأخرى ، ولو درست شخصيات وتاريخ موسى وعيسى ومحمد ، وليس الإسكندر ويوليوس قيصر ونابليون .

وفى رسالتنا الموجزة « العهد » وجهنا الدعوة « لنجعل الأنبياء قادتنا وقدوتنا ولنطرح الإعجاب بالطغاة الذين جعلوا سياستهم الإستعلاء فى الأرض » . وقلنا فى إيضاح ذلك : « يظهر استعراض التاريخ السياسى للبشرية انها خضعت لقادة وحكام كانت وسيلتهم هى القوة الباطشة ، وكان هدفهم هو الإستعلاء فى الأرض ، وأبرز الأمثلة على ذلك قادة الإمبراطورية الرومانية ، ثم قادة الدول الأوربية التى تأثرت عميقاً بالإمبراطورية الرومانية ونسجت على منوالها .

ونعتقد أن من أكبر العوامل التى أدت إلى فساد الفكر السياسى إبراز الملوك والأباطرة والطغاة والقادة العسكريين .. وإغفال الأنبياء .. وأتباعهم من حواريين أو صحابة ، لأن إعجاب الطبقة المثقفة والحاكمة فى أوروبا بالحضارة الرومانية واليونانية وأبطالها الوحشيين الإسكندر - قيصر - أوغسطس - وغيرهم هو الذى مهد السبيل لظهور ميكافيللى وتقبل فصله الحاد ما بين السياسة والقيم الخلقية ، وأدى إلى ظهور نابليون ، ولينين وهتلر وموسولينى وستالين وأمثالهم ، ثم هو الذى سمح بوجود آدم سميث وكارل ماركس وعزلهما الإقتصاد وإبعاده عما ينبغى له من خدمة المجتمع وأدى إلى ظهور الرأسمالية والشيوعية ، وطغيان المقوم المادى فى المجتمع على بقية المقومات . **والوضع السليم يقتضى إبراز هؤلاء الملوك والأباطرة على حقيقتهم طغاة استعبدوا الجماهير ووضعوا سياسة الإستعلاء فى الأرض وجعل القوة والخداع وسائلهم لتدعيم سلطانهم،وإبراز الأنبياء باعتبارهم القادة الذين قاوموا هذا الطغيان ووضعوا الحق فى مواجهة القوة ، المبدئية فى مقابل الإنتهازية ، وأرسوا مبدأ كرامة النفس الإنسانية وقداستها ونجحوا بدرجات متفاوتة فى**

إنقاذ البشرية من حكم الطغاة وسلطان الظلام . وهذا هو النهج الذى رسمه القرآن عندما وضع موسى فى مواجهة فرعون ، وعندما جعل الرسالات السماوية هى محاور التاريخ ، والرسل والأنبياء هم قادة الجماهير .

وكان واجباً أن تتضمن مناهج التاريخ التى تدرس فى المدارس والجامعات على اختلافها تاريخ الأديان وحياة الأنبياء جنباً إلى جنب ، إن لم يكن قبل - تاريخ التقلبات السياسية وحياة العسكريين والملوك والمعارك الحربية » (١).

★ ★ ★

وبعد ، فإن إنكار النبوات هو أوهى ما تثيره العقلانية فى مواجهة الأديان ، لأن تميز النبوات على بقية الدعوات والحركات وتفوق الأنبياء على القادة والفلاسفة والمفكرين يتطلب « الوحى » كحل وحيد لهذا التميز الذى لم يسبق ، أو يلحق للأديان والأنبياء .

---

(١) رسالة العهد : - رسائل الإتحاد الإسلامى الدولى للعمل صفحة ١٧ ، ١٨ .

فهرست

صفحة

بقلم المؤلف

أ – مؤلفات

ثلاث عقبات فى الطريق الى المجد .... (١٩٤٥)

ديمقراطية جديدة .... (١٩٤٦)

على هامش المفاوضات .... (١٩٤٧)

مسئولية الانحلال بين الشعوب والقادة كما يوضحها القرآن الكريم .... (١٩٥٢)

ترشيد النهضة (صودر قبل التوزيع) .... (١٩٥٢)

الازمة والبطالة فى الرأسمالية .... (١٩٥٣)

موقف المفكر العربى تجاه المذاهب السياسية المعاصرة .... (١٩٥٧)

قصة فرسان العمل .... (١٩٦٢)

دور المنظم فى الحركة النقابية .... (١٩٥٧)

القانون والقضاء فى المجتمع الاشتراكى .... (١٩٦٣)

التنظيم والبنيان النقابى (ثلاث طبعات) .... (١٩٦٦)

فى التاريخ النقابى المقارن – طبعتان .... (١٩٦٧)

دور النقابات فى المجتمع الاشتراكى .... (١٩٦٧)

مسئولية القيادات النقابية ملحق مجلة العمل العدد ٣٦ سنة ١٩٦٧

الثقافة العمالية بين حاضرها ومستقبلها .... (١٩٦٩)

منظمة العمل الدولية – ملحق مجلة العمل العدد ٦٤ سنة .... (١٩٦٩)

الحركة العمالية الدولية – ملحق العمل العدد ٧٢ سنة .... (١٩٧٠)

العمل فى الاسلام – ملحق مجلة العمل العدد ٨٥ سنة .... (١٩٧١)

محاضرات فى الادارة النقابية .... (١٩٧٢)

الحرية النقابية ملحق مجلة العمل مارس .... (١٩٧٢)

روح الاسلام .... (١٩٧٢)

العمال والدولة العصرية ملحق مجلة العمل عدد مايو سنة ١٩٧٥

قضية الأنتاج .... (١٩٧٣)

ظهور وسقوط جمهورية فايمار .... (١٩٧٧)

حرية الاعتقاد فى الاسلام (طبعتان) .... (١٩٧٧)

بحوث فى الثقافة العمالية .... (١٩٧٨)

الدعوات الاسلامية المعاصرة مالها وما عليها .... (١٩٧٨)

من محو الامية حتى الجامعة العمالية ملحق مجلة العمل مايو .... (١٩٧٨)
الجامعة العمالية .... (١٩٧٩)
الأصول الفكرية للدولة الاسلامية .... (١٩٧٩)
بيان رمضان (طبعتان) .... (١٩٧٩)
الأصلان العظيمان : القرآن والسنة .... (١٩٨٢)
الفريضة الغائبة : جهاد السيف أم جهاد العقل .... (١٩٨٤)
الحكم بالقرآن وقضية تطبيق الشريعة .... (١٩٨٦)
الربا وعلاقته بالممارسات المصرفية والبنوك الاسلامية .... (١٩٨٦)
الحركة العمالية الدولية (كبير) .... (١٩٨٨)
مشروع لاصلاح الحركة النقابية .... (١٩٨٧)
الحساسية الدينية (وسيط) دار الزهراء .... (١٩٨٨)
الاسلام هو الحل (٨١٣ صفحة) .... (١٩٨٨)
تفسير حديث «من رأى منكم منكرا» .. الخ .... (١٩٨٨)
خطابات حسن البنا الشاب الى أبيه .... (١٩٩٠)

ب - كتب الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل

خلال الفترة من (١٩٨١) حتى الآن كتب الأستاذ جمال البنا للاتحاد الكتب الآتية :

أزمة النقابة .
الاسلام والحركة النقابية .
الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل (كتيب تعريفى) .
الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل يبدأ المسيرة .
رسالة الاسلام .
أخت الصلاة المهجورة .
الحركة النقابية من منطق اسلامى .
الخيار الصعب .
الحساسية الدينية (وجيز) .
نظم الثقافة العمالية فى الوطن العربى .
وجوه الائتلاف والاختلاف بين الرأسمالية والشيوعية والاسلام .

الدولة العصرية .
رؤية لمضمون الحكم بالقرآن .
محكمة العدل الدولية الاسلامية .
الاتحاد الاسلامي الدولي للعمل في عامين .
العودة الى القرآن .
لا حرج (قضية التيسير في الاسلام) .
نحن ودعوتنا .
لست عليهم بمسيطر (قضية الحرية في الاسلام) .
العهـــد .
الشورى في الادارة .
الحركة العمالية الدولية (وسيط) .
عمال السودان والسياسة (مع آخرين) .
الحرية النقابية ثلاثة اجزاء .
نحو حركة نقابية مثقفة .
الحركة النقابية السودانية تجد نفسها .

جـ - مترجمات ومراجعات

النقابات في الولايات المتحدة .... (١٩٦٢)
النقابات في المملكة المتحدة .... (١٩٦٢)
النقابات في الاتحاد السوفيتي .... (١٩٦٢)
النقابات في السويد .... (١٩٦٢)
النقابات في بورما .... (١٩٦٣)
النقابات في الملايو .... (١٩٦٣)
الازمة المقبلة .... (١٩٦٣)
العمالة والتنمية الاقتصادية .... (١٩٦٦)
مدخل لدراسة الأجور .... (١٩٦٦)
الادارة العمالية في يوجوسلافيا .... (١٩٦٧)
العمل يجابه عصرا جديدا .... (١٩٦٨)

الديمقراطية النقابية .... (١٩٦٩)
دستور منظمة العمل الدولية .... (١٩٧٠)
اتفاقيات العمل الدولية في «مجلدين» .... (١٩٧١)
توصيات العمل الدولية .... (١٩٧١)
البرنامج العالمي للعمالة .... (١٩٧١)
«تقرير المدير العام لمنظمة العمل الدولية» .

وكل هذه الكتب باستثناء الديمقراطية النقابية والأزمة المقبلة من مطبوعات منظمة العمل الدولية .

رقم ايداع ١٦٩٥/ ١٩٩١

دار الطباعة الحديثة
ت : ٩٠٨٣١٨

الإسلام والعقلانية

يفند هذا الكتاب دعوة ذائعة هى التعارض ما بين العقلانية والإسلام. وهو يضم ثلاثة أبواب فى عشرة فصول ففى الباب الأول يعرض علاقة العقلانية بالإسلام ويثبت أن الإسلام يؤذن بالعقل . ثم يناقش قضية العقل والنقل . ويعرض فى فصل مستقل أثر القلب على العقل .

وفى الباب الثانى: مقومات العقلانية الإسلامية يوضح كيف أن الإسلام يجعل إعمال القلب هو سبيل الإيمان. وأن العقلانية الإسلامية موضوعية أكثر من أى مذهب عقلانى آخر. كما أنها تتميز بطبيعة خيرة تميزها عن العقلانية الطليقة التى لا تجد ما يحول دون إساءة استغلالها .

والباب الثالث - قرابة نصف الكتاب يعالج القضايا الأربع التى تطرحها العقلانية على الإسلام إلا وهى : وجود الله تعالى وصفاته. وخلود الروح. ووجود حساب وعقاب جنة ونار وأخيراً النبوات التى يكون الوحى العنصر المميـ

دار الفكر الإسلامـ